تصحيح
أفكار
ومعتقدات

5

نظام الزواج في الإسلام



سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

تصحيح
أفكار 5
ومعتقدات

نظام الزواج في الإسلام

سليم الجابي
ماجستير علم الأديان المقارن

نظام الزواج
في
الإســــلام

2004 - 2005

عنوان المؤلف
دمشق - سورية
ص ب 5425
هاتف +963 11 2710925

الطبعة الأولى
2000 نسخة

العمليات الفنية
الأوائل للنشر والتوزيع
والخدمات الطباعيــة
تلفاكس: +963 11 2248255

- تجدون كل المعلومات المتعلقة بسلسلة مؤلفات المفكر سليم الجابي على العنوان الإلكتروني التالي على شبكة الإنترنت:

http://www.saleemaljabi.com

- يتلقى المؤلف برحابة صدر كل الإنتقادات و الأراء و الاستفسارات على البريد الإلكتروني:

saleem@saleemaljabi.com

صدر للمؤلف

■ السلسلة العامة:

القراءة المعاصرة تحت المجهر

نظرية جذور الأخلاق

القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة

النظرية القرآنية حول خلق العالم

الرأي في المرأة والحرية والتراث

فن الإختزال القرآني (المقطعات القرآنية)

هل مات المسيح على الصليب ؟

الله جل جلاله (وصاله وعرفانه وطرق التقرب منه سبحانه)

نشوء الإنسان وتطوره

منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره

خصائص القرآن الكريم المعجزة

■ سلسلة باب العبادات:

الصوم في الإسلام

فريضة الصلاة الاسلامية وأداتها الاعلامية

■ سلسلة باب التفسير

في ظلال دلالات سورة الكهف

في ظلال دلالات سورة الإسراء

في ظلال دلالات سورة هود

■ سلسلة تصحيح افكار ومعتقدات

مثنى وثلاث ورباع

الجن حقيقة أم خيال؟

هل كان محمد (ص) شهوانياً ؟

العقل تعريفه - ماهيته - حدود عمله

نظام الزواج في الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

نظام الزّواج في الإسلام

تقديم للموضوع

إنّ من المؤسف القول بأنّ المجتمعات العربية عادت تستعمل كلمات تُطلقها على مواضيع بغير دلالاتها الحقيقية. وأنا لا أبرّئ نفسي من هذه الظّاهرة المؤسفة. ولقد حاول بعض المفكرين تصحيح تلك الأخطاء ولكنّ مساعيهم لم تُثمر حتى الآن الثّمرة المرجوّة من تحقيقاتهم المشار إليها إلا قليلاً.

فلقد تبيّن لي وبعد أن قمت بإجراء دراسةٍ وتحقيقٍ حول معطيات آيات هذا القرآن الكريم بخصوص نظام الزّواج ومصطلحاته القرآنية أقول قد تبيّن لي أنّ كلمة (الأسرة) المتداولة على ألسنة النّاس وبواسطة أقلام الكتّاب العرب، إنما هي كلمةٌ ذات مفهوم جاهليّ. لذلك نلاحظ بأن كتاب الله العزيز قد أعرض عن استعمالها في شتّى مجالات هذا الموضوع الذي أتكلّم فيه. ويرجع إعراضه إلى أسباب منها:

أولاً: فمن حيث اشتقاق كلمة (أُسرة) فقد اشتُقّت من فعل أَسَرَ حيث تقول أسرتُ فلاناً ومعناه أنني أمسكتُ به وشددته بالإسار

وعصبتُه وقبضتُ عليه وقيّدته وسجنته حتى بات أسيراً بين يدي. وهذا المعنى لا يتّفق مع دلالات أحكام نظام الزّواج في الإسلام. فالزّوجة والأولاد في نظام الزّواج الإسلاميّ ليسوا أسارى بين يدي الزّوج يفعل بهم ما يفعله الآسر مع أسيره.

ثانياً: ومن حيث الاستعمال فالعرب الجاهليّون لم يهملوا استعمال هذه الكلمة (أسرة) بل أطلقوها على عشيرة الرّجل لكون الأسرة في تلك الأزمنة تشكّل درعاً حصيناً لرب الأسرة وبالتّالي فقد كانت تثبت سيطرة الرّجل في تلك الحُقبة من الزّمان على المرأة وعلى الأولاد سيطرة الآسر على أسيره. فكان يُقال فلانٌ من أسرة فلان أي من رهطه الأدْنين لأنه يتقوّى بهم (محيط المحيط) أي أنّ ربّ الأسرة الجاهليّ كان يمثّل نمطاً من أنماط النّظام الفرديّ الدّكتاتوري في ذاك الحين.

ثالثاً: هذا وإنّ كتاب الله العزيز قد أعرض عن استعمال كلمة (أسرة) ليس للسّببين آنفي الذّكر وحسب. بل بسبب أنّ نظام الزّوجية الذي أتى به الإسلام الحنيف قد قام بتحرير المرأة من كثير من القيود التي كانت مفروضةً على المرأة في الجاهلية. وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقاً كانت محرومة منها. كما أنّ أحكام الزّواج الإسلامي ألقى على الزّوجين من المسؤوليات المتعلّقة بتربية أولادهما ما يُخالف ويسمو على المسؤوليات التي كان يتحملها الوالدان في زمن الجاهلية التي سبقت ظهور هذا الدِّين الحنيف. وهي حقائق سأحاول الكلام عنها فيما بعد وفي الأمكنة المناسبة لها. ألا وما دام هذا القرآن المجيد المحفوظ إلى يوم الدِّين قد أعرض عن استعمال كلمة (أُسرة) تعبيرا عن نظام الزّواج

الذي أتت به تعاليمه. وما دام هذا القرآن المجيد قد حفظ لنا لُغتنا العربية وبشهادة جميع لغويي ومفكّري هذه الأمة، وبشهادة أعدائهم أيضاً. فقد ارتأيت أن أبتعد بنفسي عن استعمال كلمة (أسرة) أسوةً بما فعله الله جلّ شأنه في كتابه العزيز.

وقد لاحظت من خلال تحقيقي الشّخصي أنّ القرآن المجيد قد استعمل تعبيرا عن هذا الموضوع كلمات (أهل وبيت ومسكن). فأورد كلمة (أهل) أكثر من مائة مرّة وبمختلف الصّيَغ. كما أورد كلمة (بيت) أكثر من خمسين مرة وبمختلف الصّيغ أيضاً. كذلك أورد كلمة (مسكن) حوالي عشرين مرة وبمختلف الصّيغ والاستعمالات أيضاً. فتارةً كان الله عز وجل يستعمل هذه الكلمات بصيغة الأمر وتارةً بصيغة الفعل الماضي أو المضارع وتارة أخرى بصيغة الجار والمجرور. وعليه كان من واجب المتدبّر لآيات كتاب الله العزيز أن يُعرض هو نفسه أيضا عن استعمال كلمة (أسرة) في كتاباته وبشكل عام؟

وإنّ الله جلّ شأنه قد أعرض عن إيراد كلمة (أسرة) في كتابه العزيز بالإضافة للأسباب الثّلاثة التي سبق لي أن أوردتها من قبل، قد أعرض عنها بسبب اشتقاقها اللّغوي لكنّه استعمل هذه الكلمة بصيغ أخرى غير صيغة المصدر (أسرة) ففي الآية 26 من سورة الأحزاب فقد راح الله تعالى يقول وهو يمنّ على جماعة المؤمنين ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾. وأمّا في الآية 67 من سورة الأنفال فقد راح تعالى يعلّم رسوله الكريم قواعد الحرب وقال ﴿ مَا

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ بمعنى أنه لا ينبغي أن يحتفظ المؤمنون بالأسرى المقاتلين إلاّ حين وقوع حربٍ كبيرة دامية وليس حرباً موضعيّةً مؤقتة. وحقيقة هذا المعنى تفسّره وقائع السّيرة النّبوية ومعطيات هذا المعنى الذي وضّحته هذه الآية الكريمة. كذلك ففي الآية 70 من سورة الأنفال قد خاطب الله تعالى رسوله الكريم قائلاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وفي الآية الثّامنة من سورة الإنسان قال الله تعالى يوضّح صفات المؤمنين ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾. وقال تعالى في الآية 28 من نفس السّورة وبصيغة الإنذار ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾. وعلى هذه الصّورة يكون الله تعالى قد أتى بفعل (أَسَرَ) بصيغٍ عديدةٍ وبمعانيه التي اشتمل عليها. لكنّه تعالى أعرض عن إيراد كلمة (أسرة) المشتقّة من فعل (أسر) وبصيغة المصدر للأسباب التي وضّحتها للقارئ من قبل. وأنا بدوري سأعرض عن استعمال هذه الكلمة (أُسرة) ضمن موضوع هذا الكتاب تأسيّاً بالله جلّ شأنه وانطلاقاً من المفاهيم التي استنبطتها من معطيات آيات هذا الكتاب العزيز في مجال موضوع نظام الزّواج الذي أتى به هذا الدِّين الإسلامي الحنيف. لكنّ الذي أراه نتيجةً لهذا التّحقيق الذي قمت به والذي عرضتُ أبعاده آنفاً، هو أنّ المفكرين المسلمين الذين أبقوا على كلمة (أسرة) قيد الاستعمال في هذه المجتمعات

الإسلامية، يكونون في حقيقة أمرهم مسؤولين عمّا وصل إليه حال هذه المجتمعات الإسلامية من فسادٍ في بيوت الزّوجية وما نشأ عن ذلك من أحوالٍ عادت في أيدي أعداء الإسلام في زماننا حُجّةً على التّعاليم الإسلامية وفي وقت تبرأ فيه هذه التّعاليم إلى الله تعالى ممّا في مجتمعات المسلمين من مخالفات.

فهذه حقيقةٌ لا يختلف فيها اثنان وهي أنّ غياب المفاهيم الحقيقية عن أذهان النّاس يُلقي بآثاره وبصورةٍ طبيعيّةٍ على سلوكهم اليوميّ وعلى ما يصدر عنهم من تصرفات. وإنّ القارئ الذي يتابع ما فتحه ربي عليّ في هذا المؤلف. يعود يملك زمام مقوّمات ما ينبغي عليه من واجب وهو القيام بالدّعوة الإسلامية بهذه المفاهيم لإصلاح مجتمعاتنا الإسلامية ولترميم قوانينها وتشريعاتها، وللدّفاع عن تعاليم هذا الدِّين الحنيف في هذا المضمار. وإنّ هذه الحقيقة التي وضّحتها حتى الآن تفسّر للقارئ سبب ابتعادي عن إيراد كلمة (أسرة) في هذا الكتاب وتبنّي هذا العنوان (نظام الزّواج: نشوؤه وتطوّره ومقاصده) لهذا المؤلف الجديد الذي أكتب فيه في هذا المجال المشار إليه.

سليم الجابي

نظرة تاريخية عابرة

إنّ كلّ من طالع من القرّاء مؤلفي (نشوء الإنسان وتطوره) يكون قد أدرك أنّ الله عز وجلّ كان قد بعث آدم عليه السّلام كأوّل نبيٍّ لتهذيب البشر ولنقلهم نقلةً نوعيّةً وذلك بإخراجه إيّاهم من حياة الكهوف إلى سُكنى السّهول والجبال خارجها والبدء بحضارةٍ قوامها النّطق بلغة البيان واستثمار كل ما سخّره الله تعالى لصالح هذا الإنسان.

وقد نبّهتنا آيات هذا القرآن الكريم إلى حقيقةٍ وهي أنّ الله جلّ شأنه بدأ بآدم نظام الزّواج المُقنّن وبغاية تحقيق المقاصد من هذا النّظام. وهي حقيقة عبّر الله تعالى عنها في الآيات من سورة البقرة وقال ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وأختصر هنا ما كنت قد وضّحته في مؤلّفاتي بشأن معطيات دلالات هذه الآية الكريمة آنفة الذّكر فأقول: يتبيّن من هذه الآية الكريمة أنّ نظام عقد الزّواج ما بين الرّجل والمرأة ما كان معروفاً من قبل بعثة آدم عليه السّلام. وإنّ فعل الأمر (اسكن) اشتُقّ من (سكن) بمعنى قرّ في المكان وأقام. والاسم منه السّكن والسّكنى. تقول سكن إليه بمعنى ارتاح وسكن الحرف ضد تحرّك (محيط المحيط) والملاحظ هو أنّ الله عز وجلّ قد استعمل كلمة (سكن) بمختلف صيغها في كتابه العزيز وبنفس المعنى الذي أوردته آنفاً. وعلى سبيل المثال فإنّ الله عز وجلّ قال في الآية (67) من سورة يونس ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾. فاللّيل

هو جزء من اليوم ليرتاح الإنسان فيه من عناء العمل في النّهار. وقال تعالى في الآية **21** من سورة الرّوم ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ فالزّوجة على هذه الصّورة وسيلة سكنٍ وراحةٍ لها ولزوجها من عناء نهارهما الذي أمضياه وهما يكدحان ويعملان.

وعليه فإنّ فعل الأمر (اسكن) يعني بألفاظٍ أخرى أنّ من الضّروري توفير مكانٍ لزوجين ليسكُن فيه الواحد إلى الآخر ويرتاحان. وليس بضروريٍّ أن يكون هذا المكان مستقلا عن الوالدين بحالٍ من الأحوال. فبإمكان هذين الزّوجين أن يسكنا عند أحد والديهما أو أن يستقلاّ بمسكنٍ مستقلّ ويسكن معهما من كان من والديهما بلا سكنٍ مستقلٍ لهما ذلك أنّ الضّرورات تتحكّم في مجال السّكن، هذا إن كان المجتمع الذي ينتسب إليه هذان الزّوجان هو مجتمع روحي حقيقي وتنظمه تعاليم الدِّين الإسلاميّ.

فنظام الزّواج الذي تأسس على أيدي آدم عليه السّلام قد شاع في المجتمعات التي تأسست بعده. وقد انتشر هذا النّظام الشّرعيّ وعمّ جميع النّاس. بدليل أنّ المجتمعات البشرية المعاصرة لا يوجد من بينها بيئةٌ تخلو من هذا النّظام الذي أقامه الله جلّ شأنه على أيدي أوّل أنبيائه وهو آدم عليه السّلام.

وهنا يطرح سؤالٌ نفسه وهو أنّه يُفهم من منطوق هذه الآية الكريمة التي أوردناها بأنّ نظام تعدد الزّوجات يخالف هذا التّعليم الذي تلقّاه آدم عليه السّلام. ذلك أنّه يُفهم من نصّ هذه الآية الكريمة أنّ أمر الزّواج قد حدّده الله عز وجلّ بفتاة واحدة. فأجيب وأقول إنّ هذا الأمر

الإلهي وإن ورد عامّ الدّلالة فإنّه يجوز الاستثناء في بعض الأحوال. فلكلّ قاعدة شواذ. وإنّ للضّرورات أحكامها. وقد كتبت مؤلّفاً بحثت فيه حقيقة الإذن بتعدّد الزّوجات الذي أجازته سورة النّساء وأثبتّ هناك بأنّ السّماح بالتّعدّدية ورد استثنائيّا لمعالجة المعضلات الاجتماعية التي نشأت عن استشهاد عشرات ألوف الصّحابة رضوان الله عليهم، أولئك الذي خلّفوا بموتهم مئات ألوف الأرامل واليتامى. وبإمكان القارئ الرّجوع إلى المؤلّف المذكور الذي أثبت فيه أيضا بأنّ الأصل في تعليم الدِّين الإسلاميّ هو الزّواج بواحدة. وعلى ضوء مضمون الكتاب المشار إليه فبإمكان القارئ تفسير شيوع تعدّد الزّوجات في المجتمعات البائدة قبل الإسلام. وسأتكلّم في الوقت المناسب بشكلٍ موسّع في هذا المجال ومدعّماً بالنّصوص القرآنية أيضاً.

فما هي تلك الضّرورات التّاريخية التي استدعت من قبل ألاّ يضع الدِّين عقبات في مجالات كانت تؤدي إلى قتل الرّجال وأسر النّساء وجعلهنّ إماءً لدى الطّرفين المتحاربين؟ بسبب النّظام العشائري الذي امتدّ زمانه حتى بعد ظهور الدِّين الإسلاميّ بقرون في بقاع عديدة من العالم. ثمّ إنّ تعاليم الإسلام حين سمحت بتعدّد الزّوجات قد سمحت بهذا التّعدّد من الإماء ومن الأرامل وليس من غيرهنّ. وقد ورد سماح الإسلام بالتّعدّدية بشروطٍ قاسية أيضاً مما سيأتي بيانه في المقام المناسب له إن شاء الله العزيز.

فمن الوجهة التّاريخية فإنّ عيد الأضحية التي نمضي أيامه يذكّرنا بحقيقة ما ذكرته آنفاً. يذكّرنا بزَواْج إبراهيم عليه السّلام من امرأتين

وكانت الأولى وهي ساره قد أنجبت له ولدا هو يعقوب وهي في سنٍّ متأخّرة وكانت حُرّةً لكنّها لم تنجب له أولادا بعد الزّواج. لذلك فقد سمحت هي بنفسها لإبراهيم عليه السّلام أن يتزوج من أمَتها هاجر التي حملت منه وولدت له ابنه البكر إسماعيل. فهذه حقيقة تاريخية تكشف الغطاء عن وجود نظام تعدّد الزّوجات في تلك الفترة من الزّمان. وعلما بأنّ إبراهيم عليه السّلام كان نبيّاً ويُسمّى أبو الأنبياء أيضاً. فلو كان نظام تعدد الزّوجات في زمانه يخالف مشيئة الله عز وجلّ لكان قد رفض ما طلبته منه زوجته سارة وهو الذي وصفه القرآن المجيد بقوله تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ فنبيٌّ بهذه الصّفات لا يندفع وراء طلب الأولاد وخلافاً لتعاليم ربه عز وجلّ.

والمهم في الأمر هو أنّ الأديان السّماويّة التي سبقت الإسلام ما سدّت أبواب نظام تعدد الزّوجات للسّبب الرّئيسي الذي أتيت على ذكره والذي امتدّ زمنه إلى ما بعد ظهور الإسلام الحنيف بقرون. وقد سمح الإسلام به من قبيل المعاملة بالمثل أيضا ولمعالجة مشكلات اجتماعيّة، وليس من باب الإباحة المطلقة. لكنّ فقهاء الأمة الإسلامية وعلماءها لم ينبّهوا إلى هذه الحقيقة لذلك نلاحظ أنّه يوجد في زماننا من يشتري إماءً له من جنسيّاتٍ مختلفةٍ ويتسرّى بهنّ كزوجاتٍ من غير وعيٍ للحقيقة التي نبّهت إليها آنفاً.

واستناداً إلى ما ذكرته فإنّ تعاليم الإسلام عالجت موضوع تعدّد الزّوجات بنفس المرونة التي عالجت بها نظام الأسْر والاستعباد الذي كان سائداً في العالم. فألغت نظام العبودية وألغت هذا النّظام المشار إليه بمرونةٍ ظاهرةٍ للعيان أيضاً وعلى صورةٍ لم نُدركها لولا بعثة مجدد هذا الزّمان

الأخير من تاريخ الأمة الإسلامية هذا المجدد الذي رفضه هؤلاء المسلمون المقلّدون تقليدا أعمى بسبب ما ورثوه من تقليد أعمى لكلّ ما هو موروث.

2. أهمية نظام الزّواج:

وما دام نظام الزّواج يرجع زمان تأسيسه إلى زمن بعثة أول نبي في تاريخ البشر وهو آدم عليه السّلام. فهذه الحقيقة تساعد على فهم أهمية هذا النّظام المشار إليه. وإنّها لحقيقةٌ لابدّ أن يكون الله عز وجلّ قد قصد بها تحقيق مقاصد سامية ومتعددة. خصوصاً وأنّ الله عز وجلّ قد خصص لبحث جوانب هذا النّظام مئات الآيات الكريمة من آيات كتابه العزيز. يشرح لنا ويبيّن من خلال مضامينها تاريخ نظام الزّواج ومراحل تطوره والمؤهلات التي ينبغي توفرها في الزّوجين والمسؤوليات الملقاة على كاهل كلّ واحد منهما كما سنّ أحكاماً لفضّ النّزاع ما بين الزّوجين وأحكاماً للطّلاق إذا عَسُر التّوفيق بين الزّوجين والحقوق المترتبة على عملية الطّلاق هذه. وحثّ على إنجاب الأولاد وتربيتهم تربية صالحة وعلّم هؤلاء الأبناء آداب السّلوك الذي ينبغي أن يسلكوه مع والديهم. ولقد قوّمت تعاليم الإسلام ما اعوجّ من تعاليم نظام الزّواج المستمرّ على مرّ الزّمان. فأتى بتعاليم تساعد على تحقيق المقاصد السّامية المرجوّة من هذا النّظام. وبذلك فقد عادت تعاليم الإسلام الحنيف تُبرز بصورةٍ عمليةٍ بواسطة ذاك التّقويم أهمية هذا النّظام الذي عاد في لباسه وحُلل تعاليمه الإسلامية بمثابة جنة فُتحت أبوابها أمام جماعة المؤمنين. حتى أنّه أُثر عن محمد رسول الله ﷺ بأنّ الزّواج هو بمثابة تحقيق نصف تعاليم الدِّين وأنّ إيمان هذا المؤمن لا يكتمل إلاّ بالزّواج الذي نصّت على تفاصيل نظامه آيات هذا القرآن المجيد.

هذا وإنّ عراقة تاريخ نظام الزّواج، وهـذا التّقنـين القرآنـي الدّقيـق والشّامل والمتعلّق بتنظيم الزّواج هذا التّنظيم المستند إلـى تحقيـق المقـاصد السّامية منـه. تكشـف للقـارئ أهميـة الـدّور الـذي يلعبهُ نظـام الـزّواج الإسلامي في مختلف المجتمعات التي يتواجـد فيـها المؤمنـون بتعـاليم هـذا الدِّين الإسـلاميّ الحنيـف. فنظـام الـزّواج، وكمـا سيثبت ممـا سـأبيّنه في حينه، يُعتبر دعامةً قويةً ولبناتٍ تُلقي بآثارها على مختلف نواحي الحيـاة الاجتماعية الإسلاميّة منها والاقتصادية والسّياسية وغيرها مـن مختلـف نواحي المجتمع المتقدم الرّاقـي والفـاضل. هـذا وإنّ كـل ضعـفٍ يظـهر في جانب كل طرفٍ من الأطراف التي يتشكّل منها نظام الـزّواج الّـذي جـاء به الإسلام يلقي بظلاله على جميع النّواحي الاجتماعية التـي ذكرنـاهـا. بدليل وجود مجتمع المسلمين المتخلّف المعاصر الذي تسبب بوجود كـثرة المحاكم في قطرنا العربي السّوري وفي إساءة سمعة الإسـلام لـدى أولئـك الذين يرون هذه المجتمعات على هذه الحالة مـن التّفسـخ والتّخلّـف وهـم يزورون بلادنا الرّحبة الفسيحة.

كذلك تنبع أهمية نظام الزّواج الإسلامي مما نلاحظه في أيامنا هـذه من وجـود تيـارات هنـا وهنـاك تدعـو إلـى الإباحيـة الجنسـية وإلـى حيـاة اختلاط الجنسين دون أيّ قيود. فهذه الحقيقة تشكّل في حـدّ ذاتـها خطـراً داهماً يهدد أبناء الجماعة المؤمنة التـي تصـل تلـك الدّعـوات إلـى آذانـهم وفي وقت يكـون هـؤلاء الأبنـاء محرومـين فيـه مـن رؤيـة مـن يمثـل نظـام الزّواج الإسلامي تمثيلاً حقيقياً وبشـكلٍ جـذّاب ومقنـع. بـل وإن هيمنـة الـدّول التـي تحـارب الإسـلام بوسـائل الإعـلام في مجـالات الإنـترنت وغيرها تؤكد هذا الخطر المداهم الـذي يواجـه نظـام الـزّواج الإسـلامي.

ويستدعي من طرفنا الإفاضة في شرح ميزاته والنّواحي الحضارية فيه وتقديم النّماذج العلمية التي تثبت صلاحيته المعاصرة والتي لا تتنافى مع العلم ولا مع العقل ولا تحول دون تقدم هذه الأمة.

وبالإضافة إلى ذلك كلّه فإنّ هذا النّظام الذي له مثل هذه الأهمية فهو يحتاج إلى مراجعة جميع ما يخصّه من قواعد وقوانين، هو بحاجة إلى مراجعة كل ذلك على ضوء معطيات آيات هذا القرآن الكريم وبالرّجوع إلى معطيات الحقائق العلميّة التي ظهرت على أيدي المختصّين فيما لم يأت هذا القرآن الكريم على ذكره والتّطرّق إليه. لأنّ من خصوصية هذا الكتاب العزيز أنّه يُعرض عن الكلام عن كلّ أمرٍ مُعرّضٍ للتّبديل على مرّ الزّمان ونتيجة للمتغيرات الحادثة هنا وهناك. ولا يدفعنا هذا القرآن العظيم للعمل على ما قال وما قيل.

ألا إن نحن اعتقدنا بمصداقية هذا الكتاب المبارك والمقدّس والمتّصف بالكمال والنّماء. واعتقدنا بأنّ الله عز وجلّ أنزله ليُعرّفنا على وجود ذاته جلّ شأنه وليُدللنا على طريق التّعرّف عليه والفوز بمحبّته وقربه ورضوانه. كما اعتقدنا بأهمية نظام الزّواج كوسيلةٍ من هذه الوسائل المساعدة على تحقيق ذلك كلّه وأنّ محمداً بن عبد الله ﷺ كان أسوةً صادقةً لنا على هذا الطّريق. وأنّ ربنا عز وجلّ أمرنا أن نستعمل عقولنا بشكل صحيح في كل شيءٍ نُقدم عليه. وأن تتصف جميع خطواتنا بصفة اليقين بنتائج ما أمرنا ربنا جلّ شأنه بالقيام به وأدائه بأسلوبٍ وفهم عمليين.

ألا إنّ هذا كلّه وبالنّظر إلى أهمية هذا الموضوع يكون لزاماً علينا أن نطرح على أنفسنا أسئلةً تتعلق بجميع جوانب هذا الموضوع وأن نجيب عليها إجابات عقلانية ومنطقية وعمليّة مُقنعة وعلى ضوء

المعطيات العلميّة المعاصرة أيضاً وليس أن نفهم جوانب موضوع الزّواج من منطلق ما توارثناه ومشوباً بما يخالف تعاليم الإسلام الحنيف.

ألا وإنّ هذه الموجبات جميعها تدعونا لنحدد أولاً المنطلقات النّظرية لهذا الموضوع التي بدون الإلمام بها وبدون معرفتها لا نكون قد انطلقنا انطلاقة عمليّة في مجال الكلام عن نظام الزّواج في الإسلام. فإن نحن تبيّنا معالم هذه المنطلقات النّظرية التي سأعددها للقارئ فيما يلي هذا الكلام نكون قد حددنا الخطوط الحمراء والخطوط الخضراء التي هي بمثابة إشاراتٍ على طريق بحثنا هذا. وتساعدنا خلال ما نقوم به من بحث ودراسة لتحديد أبعاده وخلال ما نورده في هذا الكتاب الذي خصصته للكلام عن هذا النّظام الإسلامي الحضاريّ ولكن بفهم جديدٍ مُستمدٍ من مشيئة الله تعالى الذي فرضه على عباده في كتابه العزيز القرآنٍ المجيد. ومُستعيناً به في جميع هذه الخطوات التي سأقدم عليها في هذا الكتاب والله المستعان يقيناً فأدعوه تعالى أن يعينني وأن يؤيّدني بروحٍ وعلمٍ منه اللهم آمين.

3. منطلقات البحث النّظرية:

أولاً: وأول ما ينبغي أن يطّلع عليه القارئ هو أنّ كلّ من تكلّم عن نظام الزّواج من قبلنا فقد تكلّم من زوايا نظرٍ تخصّ ما اعتقده وبما هو متبلورٌ في ذهنه من أفكار. لذلك وُجد من المفكرين الذين خاضوا في هذا البحث من منطلقٍ إلحاديٍّ أنكروا فيه وجود الله الخالق وفكّروا في كلّ شيءٍ من منطلق تفكير مادي بحت.

كذلك وُجد من المفكرين من خاض في هذا البحث الهام من منطلق إيمانيّ ولكن بعقلٍ تقليديّ مسلّمين فيه بما وصلهم من كتب تفسير وكتب فقه وحديثٍ وعلى أنها مسلّمات لا تقبل المراجعة ولا النّقد ولا التّمحيص.

لكني لا أنطلق في موضوع نظام الزّواج من الزّوايا التي ذكرتها، ولكنّي أنطلق من وجود خالقٍ فرض هذا النّظام على عباده ومنذ اللّحظة الأولى التي بعث فيها من يهذّب هؤلاء العباد ويُبعدهم عن حياة التّوحّش التي كانوا يحيونها.

أنطلق من إيمانٍ راسخٍ بوجود الله تعالى المتّصف بالأسماء الحسنى التي أطلعنا عليها الله تعالى بنفسه في كتابه العزيز. أنطلق من وجود هذه الذّات الإلهيّة الخالقة للسّماوات والأرض وما بينهما. والدّال على وجوده وكونه الله الذي لا شريك له في ملكه الدّال على ذلك وجود قوانين واحدةٍ تنظّم السّماء وما فيها وكما دلتّ على ذلك حقائق العلم الحديث، وتنظّم تلك القوانين نفسها نظام عالمنا الشّمسي أيضاً. وهذه الحقيقة إن دلت على شيءٍ إنّما تدلّ على أنّ خالق هذا الكون واحد لا شريك له في ملكه. فإن تفكّر الباحث في القدرات والصّفات التي مكّنت هذا الإله الخالق من خلق هذا الكون. فسوف يصل تباعاً إلى اتّصافه جلّ شأنه بالأسماء الحسنى التي أتى على ذكرها القرآن المجيد.

ثانياً: وما دام هذا القرآن العظيم هو الذي دلّنا على وجود ربنا عز وجلّ وعلى أسمائه الحسنى وعلى كونه تعالى مالك الملك ولا شريك له في مُلكه. وأنّه جلّ شأنه قد بعث نبيّه آدم عليه السّلام ليُخرج النّاس من حياة الكهوف، وليقوم بتهذّيبهم، وأنّ آدم المذكور قد أمره ربه عز وجلّ أن يبدأ نظام الزّواج الشّرعي. هذا النّظام الذي نزل القرآن الكريم يكملُ أحكامه ويصلح ما اعوجّ منه على مرّ الزّمان. فقد عاد منطلقنا الثّاني ينحصر في ضرورة رجوعنا إلى معطيات هذا الكتب العزيز في هذا المجال، وليس أن نرجع إلى أيّ مرجعٍ سواه كما عاد من واجبنا إصلاح ما اعوجّ من هذا النّظام خلال الأربعة عشر قرناً الماضية أيضاً.

ثالثاً: هذا وإنّ كلّ باحثٍ يُطالع كتب الدِّين الإسلامية في زماننا يلاحظ بأنّ علماء الأمة الذين لم يطّلعوا بعد على منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره، ويأخذون ما وصل إليهم من تُراث الأقدمين بلا تمحيص. فهؤلاء العلماء يعلّمون تلاميذهم بوجود أربعة مصادر تشريعٍ دينيّة هي القرآن والحديث والقياس والإجماع. ولا يدركون بأنهم بذلك يطعنون بكمال تعاليم القرآن الكريم من حيث لا يدرون. فالقرآن كامل ما هو بحاجة إلى مكمّل.

أمّا وقد فتح الله عز وجلّ علينا أصول تفسير كتابه العزيز[1]، وكشف لنا عن أهم خصائصه المعجزة[2]. فقد بات من واجبنا والحال هذه أن نعيد النّظر فيما توارثناه ونعتبر القرآن الكريم هو المرجع التّشريعي الوحيد لنا في جميع مجالات حياتنا فإن رجعنا إلى سواه فلا يكون إلاّ على سبيل الاستئناس فقط. وأن نتذكّر في الوقت نفسه أنّ من خصائص هذا الكتاب المقدّس أنه حين نصّ على حُكمٍ من الأحكام فلا مجال للاجتهاد فيه. وحيث سكت عن أمرٍ من الأمور فهذا يعني أنّ الله عز وجلّ قد ترك الكلام عنه ليُعالجهُ المسلم على ضوء المتغيرات الحادثة في زمانه وعلى ضوء مكتشفات العلوم المعاصرة. فإن كان الأمر يتعلّق بحقيقةٍ علميّة فيرجع في ذلك إلى العلماء المختصّين بالعلم المشار إليه لقوله تعالى في الفقرة الأخيرة من الآية 59 من سورة الفرقان ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾.

ثم إنّه لو كانت أحاديث رسول الله ﷺ تعدُّ مرجعاً تشريعياً، لكان محمد المصطفى صلّى الله عليه نفسه قد أمر بجمع أحاديثه، ولكان قد

---

(1) راجع كتاب (منهجية القرآن الكريم وأسول تفسيره) للمؤلف.

(2) راجع كتاب (خصائص القرآن الكريم المعجزة) للمؤلف.

شكّل في زمانه طبقةً من حُفّاظ الأحاديث بمحاذاة حُفّاظ القرآن الكريم على أقلّ تقدير.

رابعاً: ثم إنّ نظام الزّواج في الإسلام شأنه شأن جميع ما فرضه الإسلام الحنيف على المؤمنين من فرائض تعبّديّة وماليّة وغيرها. فهو خاضعٌ لفلسفة الابتلاء التي قام على أساسٍ منها هذا العالم الدّنيويّ. فلم يفرض الإسلام هذا النّظام لتنظيم قضاء الشّهوات الجنسية وحسب، بل فرضه الإسلام على العبد المسلم ليُبتلى هذا العبد ويُمتحن فيما هو قادمٌ على أدائه. أي أنّ الله الخالق يبتلي الزّوجين في مدى التزامهما بقواعد الزّواج وقوانينه وأحكامه والمقاصد المرجوّة منه، ولينظر هل يلتزم هؤلاء بتلك القوانين والأحكام والمقاصد المرجو تحقيقها لإرضاء ربّهم وجذب محبته ونيل قربه ورضاه؟ أم أنّهم يتناسون ذلك كلّه بعد أن يُعقد زواجهما ويتسببان بالتّالي بإغضاب ربّهما والتّفريط في سمعة هذا الدِّين الإسلامي الحنيف الذي جمع بين قلبيهما؟

وعليه فإنّ فريضة الزّواج تخضع لفلسفة الابتلاء والامتحان. ولا فرق بينها في ذلك وما بين فرائض الصّلاة والصّوم والزّكاة والحجّ وغيرها من فرائض الدِّين الإسلامي. فلها قوانينها ولها أحكامها والمقاصد المرجوة من تحقيقها. لذلك فإنّ كلّ تقصير في مجال الالتزام بتلك القوانين والأحكام والمقاصد، يؤثّر سلباً على الكيان الرّوحي للمؤمن ويحرمه بالتّالي من بركات هذا الزّواج.

لذا فإنّ هذه الحقيقة التي أشرت إليها آنفاً تشكّل في نظري المنطلق الرّابع الذي ينبغي الانطلاق منه في مجال الكلام عن نظام الزّواج وما يلحقه من قوانين وأحكام ومقاصد مرجوّة التّحقيق منه. وإنّ هذا المنطلق الرّابع المذكور يشكّل امتيازاً يمتاز به نظام الزّواج الإسلامي عن غيره من

الأنظمة الأخرى في هذا الحقل وإنّ الذين يجهلون هذه الفلسفة الحياتية المؤسس عليها كلّ شيءٍ في هذه الحياة والتي أمر بها الدِّين الإسلامي الحنيف وفرض العمل عليه من مفهومه. فهؤلاء الذين يجهلون هذه الفلسفة الحياتية غير مؤهّلين للعمل على قوانين الزّواج الإسلاميّ.

هذا وإنّ هذا المنطلق يعني بألفاظٍ أخرى أنّ نظام الزّواج الإسلامي يُطالب الزّوج أو الزّوجة بتقديم التّضحيات التي تدعم استمرارية هذا العقد المقدس، وبغاية الحصول على محبة الله وقربه ورضوانه. خصوصاً وأننا كنّا قد بحثنا أهمية هذا النّظام من قبل.

خامساً: ثم إننا نعتقد بأنّ قوانين وأحكام ومقاصد نظام الزّواج الذي أتت به تعاليم القرآن الكريم قد أتت به متلائمةً مع الفطرة التي فطر الله تعالى النّاس عليها. ونعتقد أيضاً بأنّ هذه الفطرة البشرية لن يأتي عليها تغيير أو تبديل على مدى الدّهر. وهي حقيقة شرحتها في مؤلّف (نظرية جذور الأخلاق) وبإمكان القارئ مطالعته، للاطّلاع على مفهوم الفطرة البشريّة وما تحمله من قوى بمنطق العلم ومعطياته. وسندنا في الاعتقاد المذكور هو ما تضمنته الآية 30 من سورة الرّوم التي قال تعالى فيها مخاطباً رسوله والذين اتّبعوه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

فمن هذا المنطلق الذي دلّتنا عليه هذه الآيات الكريمة ننطلق في فهمنا لنظام الزّواج الذي أتى به الإسلام الحنيف ومعرضين عن الأخذ بكلّ نظام

يخالف قوانينه وأحكامه الشّرعيّة والمقاصد التّي يسعى لتحقيقها.

ألا إنّ النّصّ القرآني الذي ذكرناه أتى بالبنود التّالية:

أولاً - مُطالبتنا بالعودة إلى نظام الزّواج الذي أتى به القرآن الكريم.

ثانياً - وأنّ الله الخالق قد فطر النّاس جميعاً على فطرةٍ واحدةٍ، لذلك تستلزم نظاماً موحداً

ثالثاً - وأنّ خلق الله تعالى لهذه الفطرة البشرية التي لن يطرأ عليها أيّ تغير أو تبديل فمن هذه الحقيقة تنبع ديمومة تعاليم الدِّين الإسلامي الحنيف في موضوع الزّواج خاصّة.

رابعاً - وأنّ أكثرية النّاس يوم إنزال تعاليم الإسلام كانت تجهل تلك الحقيقة العلمية لمفهوم الفطرة البشرية لتأخّر اكتشاف الذّرّة المادّية زمانيا.

خامساً - ولا يستفيد من بركات نظام الزّواج الإسلامي إلاّ كل مؤمن تقيٍّ قد أناب إلى ربه في ذلك واتّقاه حين الأخذ بمضامين أحكامه الشّرعية ودعا ربه ليمنحه من بركاته، وبعيداً عن جميع الانحرافات التي وقع فيها سواه ممن قبله ممّن خلطوا بين مُعطياته ومعطيات الأعراف والتّقاليد.

سادساً - وبما أنّ الإسلام يمرّ من حالتي سلم وحرب في حياته. لذلك ننطلق من أنّ من واجبنا التّفريق ما بين التّعاليم المتعلقة بنظام الزّواج التّابع لأيام السّلم وما بين تلك التّعاليم المتعلقة بنظام الزّواج والعائدة إلى أيام الحرب. وهي الحقيقة سأتعرّض للكلام عنها في الوقت المناسب.

سابعاً - هذا وإنّ جميع المنطلقات التي أتيت على ذكرها تدفعني دفعاً لطرح جميع ما سيتضمّنه هذا المؤلف من زاوية نظرٍ أسقطت فيها جميع ما انحرفت المجتمعات الإسلامية فيه عن التّعليم الإسلامي الحنيف وبمعونة الله عز وجلّ.

الباب الأوّل

الفصل الأول:

ما الفرق بين الرّجل والمرأة؟

إنّ المفكر الباحث الذي يلقى نظرةً شاملةً على أنظمة الزّواج السّائدة في عالمنا المعاصر يلاحظ بأنّ المفكرين التّابعين لتلك الأنظمة يقولون بمساواة الرّجل بالمرأة من جميع النّواحي الحياتية. ويُناقشون هذه القضية من زوايا نظرٍ مختلفة وليس من زاوية معطيات أديانهم المُشوّهة التّعاليم والتي لم تعد صالحةً لتجيب عن السّؤال المذكور إجابةً علميّةً عقلانية.

أمّا نحن المؤمنون بوجود الله عز وجلّ والمنطلقين من أنّ الله تعالى قد أمدّنا بقواعد وأحكامٍ شرعيةٍ نابعة من ملاءمتها مع الفطرة البشرية والصّالحة لكلّ زمانٍ ومكانٍ. فإننا لا نناقش هذه القضية من زوايا نظر غير المؤمنين والمشركين. وإنّما نناقشها من معطيات آيات هذا القرآن العظيم الموعود بحفظه إلى يوم الدِّين. ولا نناقشها بما يتبادر لأذهاننا من تلك الآيات وعلى نسق ما فعله الذين سبقونا في القرون الغابرة. ولكننا نناقشها ونتدبّرها وفق معطيات هذه الآيات الكريمة النّابعة من منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره. علماً بأنّ الله عز وجلّ قد خصّص آيات

كثيرة من سورة النّساء للإجابة على هذا السّؤال فكان من واجبنا تدبّرها بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره لفهم مضامينها. وليس أن نفهم تلك الآيات وفق ما ورد في التّفاسير القديمة.

أوّلاً . المساواة النفسيّة ما بين المرأة والرّجل:

أ فلم نلاحظ كيف أنّ الله عز وجلّ قد استهلّ سورة النّساء هذه بقوله تعالى، وهو يخاطب النّاس جميعاً، قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ . فهذه الآية الكريمة ينبغي تدبّرها بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره وليس الأخذ بما فهمه منها الأقدمون.

وعليه أتدبّر الفقرة الأولى وهي ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ونتساءل عمّا فهمه منها ابن كثيرٍ صاحب التّفسير المشهور الذي يتباهى به السّلفيّون. فابن كثير رحمه الله تعالى كتب يقول:

" يقول الله تعالى آمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبّهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفسٍ واحدةٍ وهي آدم عليه السّلام ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حوّاء عليها السّلام، خُلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائمٌ فاستيقظ فرآها فأعجبته، فآنسَ إليها وأنست إليه ... ".

واستنادا إلى ما نقلناه عن ابن كثير وهو يفسّر الفقرة الأولى من هذه الآية الأولى من سورة النّساء فإنّ المسلمين الذين فُتنوا بتفسير ابن

كثير رحمه الله فهموا إجابة على السّؤال المطروح في زماننا وهو ما مدى مساواة الرّجل بالمرأة في نظر تعاليم الإسلام؟ فهموا من هذه الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة أنّ الرّجال خُلقوا من آدم، وأنّ النّساء خُلقن من ضلعٍ أعوج من أضلاع القفص الصّدريّ اليساري من الخلف لآدم عليه السّلام فهل بإمكاننا المساواة بين الرّجل والمرأة تبعاً لهذا المفهوم الذي أورده ابن كثير رحمه الله؟

ونعود إلى ما أورده العلاّمة الفخر الرّازي في تفسيره الكبير وهو يفسّر الفقرة المذكورة فهو قال من جملة ما كتبه:

" أنّ خلقَ جميع الأشخاص الإنسانية من الإنسان الواحد أدلّ على كمال القدرة... فكان ارتباط قوله ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ بقوله ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ في غاية الحُسن والانتظام... وأنّ النّاس إذا عرفوا كون الكلّ من شخصٍ واحدٍ تركوا المفاخرة والتّكبُّر وأظهروا التّواضع وحسنَ الخلق." وهنا نقل عن الأصمّ قوله: " قال الأصمّ: الفائدة فيه أنّ العقل لا دليلَ فيه على أنّ الخَلق يجب أن يكونوا مخلوقين من نفسٍ واحدة، بل إنّ ذلك يُعرفُ بالدّلائل السّمعية... فإن قيل: كيف يصحّ أن يكون الخلق أجمع من نفسٍ واحدةٍ مع كثرتهم وصغر تلك النّفس؟ قُلنا: قد بيّن الله المراد بذلك لأنّ زوج آدم إذا خُلقَت من بعضه ثم حصل خلق أولاده من نُطفتهما ثم كذلك أبداً، جازت إضافة الخلق أَجمع إلى آدم." .

وأضاف الفخر الرّازي رحمه الله يقول:

" أجمع المسلمون على أنّ المراد بالنّفس الواحدة هنا هو آدم عليه السّلام. إلاّ أنه تعالى أنّث الوصف على لفظ النّفس، ونظيره ﴿ أَقَتَلْتَ

نَفۡسًا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٍ﴾". وأضاف يقول "قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ فيه مسائل، المسألة الأولى: المراد من هذا الزّوج حوّاء. وفي كون حوّاء مخلوقةً من آدم قولان: الأول وهو الذي عليه الأكثرون من المسلمين أنّه لمّا خلق الله آدم ألقى عليه النّوم، ثم خلق حوّاء من ضلعٍ من أضلاعه اليسرى، فلمّا استيقظ رآها ومال إليها وألفها لأنها كانت مخلوقةً من جزءٍ من أجزائه...والقول الثّاني وهو اختيار أبي مسلم الأصفهاني أنّ المراد من قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أي من جنسها... إذ لو كانت حوّاء مخلوقةً ابتداءً لكان النّاس مخلوقين من نفسين لا من نفسٍ واحدة. ويمكن أن يُجاب عنه بأنّ كلمة (من) لابتداء الغاية. فلمّا كان ابتداء التّخليق والإيجاد وقع بآدم عليه السّلام صحّ أن يُقال خلقكم من نفسٍ واحدةٍ. وأيضاً فلمّا ثبت أنه تعالى قادرٌ على خَلْق آدم من التّراب، كان قادراً أيضاً على خلق حوّاء من التّراب. وإذا كان الأمر كذلك، فأيّ فائدةٍ في خَلقها من ضلعٍ من أضلاع آدم...؟ المسألة الثّانية: احتجّ جمعٌ من الطّبّائعيين بهذه الآية فقالوا: قوله تعالى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ يدلّ على أنّ الخلق كلّهم مخلوقون من النّفس الواحدة...أجاب المتكلّمون فقالوا: خلقُ الشّيء من الشّيء محالٌ في العقول لأنّ هذا المخلوق إن كان عين ذلك الشّيء الذي كان موجوداً قبل ذلك لم يكن هذا مخلوقاً البتّة. وإذا لم يكن مخلوقاً امتنع كونه مخلوقاً من شيءٍ آخر. وإن قُلنا: إنّ هذا المخلوق مغايرٌ للذي كان موجوداً قبل ذلك فحينئذٍ هذا المخلوق وهذا المحدث إنّما حدث وحصل عن العدم المحض. فثبت أنّ كون الشّيء مخلوقاً من غيره محالٌ في العقول. وأمّا كلمة (من) في هذه الآية فهي تفيد ابتداء الغاية على معنى

أنّ ابتداء حدوث هذه الأشياء من تلك الأشياء، لا على وجه الحاجة والافتقار، بل على وجه الوقوع فقط...".

نفهم ممّا نقلناه عن الفخر الرّازي رحمه الله تعالى أنّه رحمه الله لا يُخالف ابن كثيرٍ في فهمه لهذه الفقرة الأولى من أوّل آية من سورة النّساء وهي قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. وإنّ كلّ ما فعله الفخر الرّازي هو أنّه أطلعنا على آراء غيره من علماء عصره، والتي لم تأتِ بشيءٍ جديدٍ على ما ذهب إليه ابن كثير أيضا رحمهم الله تعالى جميعهم.

ألا إنّ هذا الفهم لتلك الفقرة، والمستند أصلاً إلى ما بثّه اليهود والنّصارى في أذهان علماء المسلمين القدماء ومنقولاً عمّا أورده كاتب سفر التّكوين في (العهد القديم) إنّ هذا الفهم المنحرف عن التّاريخ الحقيقي للبشر، والمُنحرف عن معطيات هذه الفقرة الأولى من فقرات الآية الأولى من سورة النّساء، إنّ هذا الفهم غير العلميّ ألقى بآثاره السّيّئة على مجتمعات المسلمين حيثما كانوا في ذاك التّاريخ وإلى اليوم، وعاد المسلمون يفاجئهم في عصرنا ما يسمعونه من نداءات تتعلّق بضرورة المساواة ما بين الرّجل والمرأة، ولا يجد هؤلاء المسلمين بين أيديهم ما يُعينهم على التّصدّي لهذه الدّعوة الآتية من مجتمعاتٍ تؤمن بما يسمّونه (العهد القديم) على دعوةٍ وبلا أساسٍ من معطياته إلاّ محاولة التّظاهر بأفضليّة ما يزعمون على مجتمعات المسلمين المعاصرة.

فهذه حقيقةٌ يتلمّسها القارئ صباح مساء. فإن كان هذا القارئ مسلماً، فإنّه يتلوّى ألماً على حال أمتنا الإسلامية وقد كان ينبغي عليه أن يوافقني الرّأي في موضوع ضرورة إعادة النّظر فيما وصلنا من تراثٍ.

وأنّ من واجبنا أن نحاول فهم آيات هذا القرآن المجيد على ضوء ما وضّحته في مؤلف (منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره) ومؤلّف (خصائص القرآن المعجزة).

والآن لنتدبّر هذه الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة من سورة النّساء بمنهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره ولنتدبّر الفارق ما بين فهمنا لهذه الآية الكريمة وما بين الفهم السّلفي المذكور.

إنّ من الملاحظ بادئ ذي بدئ أنّ الله تعالى خاطب النّاس جميعاً ولم يخاطب المؤمنين وحدهم بدليل تعريف كلمة (النّاس) بأداة التّعريف التي أفادت هنا معنى الاستغراق لذا نقول بأنّ هذا الخطاب يشمل الذّكور والنّساء معاً. وقد خاطبهم الله تعالى وقال لهم ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾. ففعل ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ معناه أن احذروا ربّكم وخافوه (محيط المحيط) وانتقى تعالى هنا صفة (ربّكم) لدلالتها على معنى عملية التّطوير التي يقوم الله تعالى بها لتطوير هؤلاء النّاس. فكلمة (الرّب) في اللّغة العربيّة تعني الذّات الذي يطوّر الشّيء حالاً بعد حالٍ ليصل به مرتبة التّمام (أقرب الموارد). وعليه فإنّ هذا الخطاب الإلهي الشّامل للذّكور والنّساء معا وبهذه الصّيغة يكتسب أهميةً قصوى في هذا المقام.

ولقد أتى الله تعالى بعد ذلك بضمير الغائب (الذي) ومُشيراً به تعالى إلى نفسه وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ فهو تعالى أورد فعل (خلقكم) هنا بمعنى أبدع وجودكم يا معشر الذّكور والنّساء. كما أتى بحرف (من) التي تفيد التّفسير والبيان وليفسّر عن طريقها ما أبدعه من مخلوق فقال ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾.

والملاحظ هو أنّه تعالى أورد كلمة (نفسٍ) مُنوّنةً على آخرها. والتّنوين يؤتى به بلاغيّا لإبراز عظمة الشّيء المنوّن. فلو كان الله تعالى يشير من خلال كلمة (نفسٍ) هذه إلى أول مخلوقٍ وهو آدم الذي اعتقد اليهود والنّصارى والمسلمون القدماء بكونه أول مخلوقٍ. فلو صحّ فهمهم المذكور فما كانت هناك من حاجةٍ لتنوين كلمة (نفس) في هذا المقام بسبب أنّ جميع الخلق يشبهون آدم على زعمهم.

وهنا يسألني القارئ بعد إدراكه لهذه الحقيقة: وما هو المقصود بكلمة (نفسٍ) وهي منوّنة إذن في هذا المقام؟ فأقول: إذا عُدنا إلى معجم (مقاييس اللّغة) الذي تكلّم عن أصل كلمة نفس وعن حقيقة اشتقاقها. نُلاحظه وقد قال بأنّ أحرفها من أصلٍ واحدٍ دالٍّ على خروج النّسيم أي الهواء أيّ كان وكيف كان من ريح وغيرها، وإلى هذا الأصل ترجع فروع هذه الكلمة كالتّنفّس والمرأة النّفساء والولد المنفوس. فقوام النّفس ما نستنشقه من هواء ما بين شهيق وزفير. وقد وافقه في هذه المفاهيم معجم (محيط المحيط) وزاد عليه أنّ من معاني النّفس الرّوح. وقال أبو البقاء: الرّوح اسمٌ للنّفس واسمٌ للجزء الذي تحصل به الحياة وهما جهاز الدّم والتّنفس اللّذان يبقيان على حياة الإنسان.

وعليه أقول: ما دمنا قد اطّلعنا على حقيقة الفطرة البشرية من خلال (نظرية جذور الأخلاق) التي توصّلنا لمعرفتها بأسلوبٍ علميّ. وعلمنا بأنّ فطرة الإنسان هي عبارة عن مجموعة قوى متضادّةً ومتوازنةً وتشكّل أساس تحركات الإنسان النّابعة من الجهات السّتة التي تتحرك الذّرّة المادية في فضائها. فقد بتنا نفهم بأنّ الإنسان ما هو بجسدٍ ترابيّ المنشأ وحسب. بل وإنّ في إسار هذا الجسد روح سُمّيت من زاويةِ نظر

معينة روحٌ. كما سميت من زاوية نظر أخرى (نفس). كذلك سميت من زاوية نظر ثالثةٍ فطرةً بشرية.

واستناداً إلى ما ذكرناه آنفاً يعود معنى هذه الفقرة الأولى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أنّ الله تعالى يخاطب الجنسين الذّكور والنّساء ويقول: يا معشر الذّكور والنّساء في العالم أجمع اسمعوا وعوا واعلموا بأنّ ربّكم أبدعكم جميعكم من فطرة بشرية واحدة أو من روح أو نفسٍ واحدةٍ ذات قوى واحدة، لذلك فإنّ عليكم أن تحذروه وتخافوه إن أنتم حاولتم فهم هذه الحقيقة بخلاف ما أطلعكم الله ربّكم عليه منها.

وإن هذا المفهوم من المساواة بين الرّجل والمرأة من حيث تكوينهما الباطني والذي أفادتنا به هذه الفقرة الأولى، يفيدُنا أيضاً بأنه إن وُجد أيّ اختلاف بين الجنسين، فلن تتجاوز تلك الاختلافات حدود جسد كلّ فريقٍ منهما وتكوينه. أي أنّ للمرأة من القوى النّفسية ما للرّجل تماماً. وفطرة الاثنين واحدة. وحواس الاثنين واحدةٌ وأداة التّفكير عندهما واحدة، وإنّ ما يُفرزه جسديهما من ميولٍ ورغباتٍ وأهواءٍ وشهواتٍ واحدةٌ أيضاً. لذلك فقد أُنزلت لكلا الجنسين تعاليم واحدة في جميع مجالات الحياة. فما ينطبق على الذّكور من الأحكام ينطبق على النّساء أيضاً. وعلى هذه الصّورة يكون الله عز وجلّ قد وضع من خلال منطوق هذه الفقرة الأولى من فقرات الآية الأولى من سورة النّساء قد وضع اللّبنةَ الأساسية التي يقوم عليها نظام الزّواج في الإسلام الحنيف. وذلك من خلال هذه الفقرة الأولى التي لا يتجاوز عدد كلماتها ثماني

كلمات وهي التي تضمّنها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

ونتنقل الآن لنتدبر الفقرة الثّانية التي أخبرنا الله جلّ شأنه فيها وقال ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ فصيغة فعل خلقَ وردت بمعنى أبدعَ أيضاً. والجار والمجرور (منهما) ورد للتّفسير والبيان. ويؤكد ذلك قول الله عز وجلّ وهو يبيّن حقيقة معنى حرف (من) هذه وهي واردة في الآية 39 من سورة القيامة قال ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً.

وأما كلمة (زوجها) الواردة في هذه الفقرة الثّانية. فقد استعملت هنا خلاف كلمة (واحدة) الواردة في الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة. ولا يقصد هنا بكلمة (زوجها) بعلها. فالكلام يدور حول حقيقة الإبداع الإلهيّ لهذه النّفس البشرية التي تمثّل ما في النّطفة (الأمشاج) وتركيبها. فكلمة الزّوج في اللّغة العربية يطلق على النّمط وعلى الصّنف ونحوه، ويُجمع على أزواج. لذلك يُقال للإثنين أنّهما زوجان وهما زوجٌ أيضاً. فتقول على سبيل المثال: اشتريت من السّوق زوجَي حمام بمعنى أنّك اشتريت ذكر حمام وأنثى حمام ولم تشتر أربعة. وتقول عندي زوجا نعال أي نعلان. وكما ورد في سورة هود قوله تعالى (قُلنا احمل فيها من كلّ زوجين اثنين) (محيط المحيط).

ثم إنّ فعل (بثّ) يُستعمل على حدّ قول صاحب الكلّيات بمعنى خلق وأوجد أيضاً. وهو المعنى الذي أُخذ به في هذه الفقرة الثّانية للآية

دفعاً لتكرار فعل (خلق). وليصبح معنى قوله تعالى ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ أنّ الله عز وجلّ أبدع إبداعاً ثالثاً من خلال تركيبة نطفة هذه النّفس الواحدة وهو أنّه ولّدَ منها ﴿ رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾.

وما دام الكلام في قوله تعالى ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ ما يزال يدور حول معنى الإبداع في هذا الخلق للنّفس البشريّة الواحدة. يكون الله تعالى قد حثّنا من خلال ذلك على تدبّر أمرين وردا في هذه الفقرة وهما:

أولاً - أن نسأل عن حكمة تنوين كلمتي (رجالاً ونساءً).

ثانياً - وأن نتساءل أيضاً عن حكمة وصفه تعالى لكلمة (رجالاً) بصفة (كثيراً) على حين لم يصف كلمة (نساءً) بهذه الصّفة (كثيراً). ومن باب أنّ صياغة القرآن الكريم قد وردت صياغةً بلاغيةً وعليه فلا يخلو شيءٍ منها من المقاصد والحِكم الجليلة.

والذي ألهمني ربي وفهّمني إيّاه هو أنه جلّ شأنه على حين قد أبدع نطفة النّفس الواحدة على الشّكل الذي أشار إليه، فقد كان من نتيجة ذلك أن يظهر كثير من عظماء الرّجال وفي وقت لا يظهر فيه كثير من عظماء النّساء. ومن باب أنّ تنوين هاتين الكلمتين (رجالاً ونساءً) يفيد عظمة كل طرف منهما مذكور في هذه الفقرة. وأنّ تخصيص كلمة (رجالاً) بصفة (كثيراً) كان للدّلالة على ما ذكرناه.

وكأنّ الله عز وجلّ قد لفت أنظارنا هنا إلى أنّ الاختلاف الواقع في تركيبة جسد كلٍّ من الرّجل والمرأة، تكمن وراءه هذه الحقيقة المشار إليها في الفقرة المذكورة. فالمرأة تمرُّ عليها أيام حيضٍ، كما تمرُّ عليها أيام

حملٍ للجنين في بطنها، إلى جانب أنها تظلّ ترضع وليدها إلى عامين من حياتها، إلى جانب ما تقتضيها عاطفتها الزّائدة من اعتناء بالوليد لينمو ويكبر وليصبح راشداً. وبألفاظ أخرى فإنّ الله عز وجلّ يكون بهذا المعنى قد أكّد على أنّ الرّجل والمرأة متساويين ومن نفسٍ واحدة فإن هما تفرّغا على قدم المساواة يتساويان في عدد العظماء الذين يظهرون من الرّجال ومن النّساء. لكنّ عمليّة الزّواج تخلّ بهذه النّتيجة.

لكنّ ذلك لا يتحقق ما دام الله عز وجلّ قد فرض عليهما نظام الزّواج الشّرعي والذي جعله جلّ شأنه إن هما التزما بأصوله وقواعده وأحكامه التزاماً صحيحاً، قد جعله وسيلة ابتلاءٍ لكلٍّ منهما، ليتقرّبا عن طريقه إلى جذب محبة ربهما ولنيل قربه ورضوانه. وبعيداً عن الاندفاع وراء شهوة النّساء، التي تفرزها أجسادهم.

ألا إنّ هذا المعنى الذي أفادتنا به هذه الفقرة الثّانية يؤكد منطق التّاريخ مصداقيتها. فلو ألقى الباحث نظرةً متفحّصةً على تاريخ كلٍّ من الجنسين يعثر على ظهور كثيرٍ من الرّجال العظماء وعلى قليل من النّساء العظيمات. وللأسباب التي أشارت إليها الفقرة المذكورة. وإلاّ فإنّ الرّجال والنّساء متساوون في قواهما المختلفة وهم من نفسٍ واحدة أيضاً.

هذا وقد شاء الله الخالق المبدع لنظام الزّواج واستناداً إلى تلك الإبداعات الثّلاثة التي صرّحت بها الفقرتان السّابقتان، أقول شاء الله تعالى أن يعيد التّحذير والتّأكيد على ضرورة التزام النّاس بنظام الزّواج الذي شرّعه الله جلّ شأنه لذلك أتى تعالى بواو العطف وقال في الفقرة الثّالثة من هذه الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾. فما هو معناها الحقيقي؟

فالملاحظة الأولى التي نلاحظها هي أنّ الله عز وجلّ قد أتى في وعظه الأول ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ بصفة الرّبوبيّة الدّالة على معنى التّطوير كما بيّناه من قبل، فأتى بالصّفة المذكورة على سبيل التّرغيب. لكنّه تعالى وفي وعظه في هذه الفقرة قد قال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فأتى بلفظ الجلالة الحامل لجميع الأسماء الحسنى والدّال على القهر والهيبة والجلال بدل صفة الرّبوبيّة وعلى سبيل التّرهيب. وكأنّه جلّ شأنه قد نبّه أولاً إلى أنّه تعالى يطوّرك ويُحسن إليك فاحذر أيها الإنسان ذكوراً وإناثاً مخالفة ما يفرضه عليك ربّك من نظام. وكأنّه قد نبّه ثانياً إلى أنه تعالى مهيمن عليك وإليه تصير لذلك فاحذر بطشه وعقابه. وعلى اعتبار أنّ تقوى الله يتحقق بالتزام طاعة الله وباجتناب معصيته.

والملاحظة الثّانية التي نلاحظها هي صيغة ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ وتعني يسأل بعضكم بعضاً. فعن أيّ شيء يسأل بعضنا بعضاً؟ ألا إذا وُضع نظام الزّواج الذي ابتدعه الخالق موضع التّنفيذ يعود الرّجل يُطالب زوجته بما له عليها من حقوق. وتعود الزّوجة تطالب بَعلها بما لها عليه من حقوق. فهذه المطالباتُ عبّر الله تعالى عنها بقوله ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ وحاذفاً مضمون ما تتساءلون به عنه لداعٍ بلاغيٍّ وليشمل التّساؤل جميع ما للرّجال على النّساء من حقوق ولتشمل جميع ما للنّساء على الرّجال من حقوق. فهذا هو المعنى الذي يقتضيه تسلسل معاني هذه الآية الموضوعي.

وأما كلمة (الأرحام) فهي جمع مفردها رحم وهو بيت منبت الأولاد ووعائه الذي هو في بطن المرأة لذلك يُطلَق أيضاً على القرابة وعلى أصلها وأسبابها (محيط المحيط) أي أنّ الله عز وجلّ نبّه إلى أنّ

نظام الزّواج يتولّد عنه الأرحام من أولاد ينجبهم الزّوجان إلى ذي قربى لطرفي الزّواج. وإنّ على هذين الزّوجين أن يخشيا الله تعالى ويحذرا بطشه إن هما قصّرا في تأدية ما للأولاد من حقوق وما لذي القربى من حقوقٍ على الطّرفين أيضاً.

ويصبح بالتّالي معنى هذه الفقرة الثّالثة ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ﴾ أنّ الله تعالى نبّه أذهاننا إلى أنّ هذه الإبداعات الثّلاثة قد شكّلت الأساس الذي قام عليه فرض الزّواج الشّرعيّ الذي فرضه الله تعالى على الرّجال والنّساء. ويستتبع ذلك سنّ تشريعاتٍ تضمن حقوق الزّوج والزّوجة والأولاد والأرحام. فكما حذّر الله عز وجلّ من موضوع الإعراض عن الأخذ بنظام الزّواج. فهو جلّ شأنه أكّد على ضرورة الأخذ بجميع ما شرّعه الله تعالى للنّاس بما يتعلّق بنظام الزّواج وأحكامه والعمل عليه بكلّ خشيةٍ وحذرٍ من الوقوع في معصيته عز وجلّ.

وبما أنّ القارئ الذي يطّلع على مضمون هذه الفقرات الثّلاثة وبالمعاني التي توصّلنا إليها بعد تدبّر هذه الفقرات بمنهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره. بما أنه سيتساءل في حديث نفسه عن الرّقيب الذي سيُراقب تنفيذَ ما أمرت به مضامين هذه الفقرات. فقد أتى الله جلّ شأنه بحرف التّأكيد (إنّ) وقال في الفقرة الأخيرة﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾. فهو جلّ شأنه أورد صفة (الرّقيب) التي تعني الحارس والمنتظر التّطبيق. وكأنّه جلّ شأنه قد قال بألفاظٍ أخرى: وهل يُعقل أن يبتدع الله ربّكم هذه الإبداعات المدهشة وأن يفرض عليكم نظام الزّواج المذكور وما يلحقه من تشريعات ويدع الأمر يسير على هوى النّاس ولا يقوم تعالى نفسه

بحراسة ما أنجزه على الصّعيد المذكور؟ فإن لـم تستسغ عقولكـم حـدوث أيّ إهمال من جانبه تعالى بهذا الشّأن فاعلموا أني ما زلـت أحـرس تطبيـق هـذا النّظام وأراقـب مُجريـات أمـوره منـذ بعثـت أول نبـيٍّ لـي وهـو آدم لإحداث نقلةٍ نوعيّةٍ في تاريخ الإنسان وألزمتـه بـالعمل بـهذا النّظام المشـار إليه أيضاً. فإلى هذه الحقيقة التـي بينتـها آنفـا كـان الله تعـالى قـد أشـار مـن خلال إيراده فعل (كان) بصيغة الماضي وليس بصيغةٍ أخرى غيرها.

والآن أختصر مـا أفادتـه هـذه الآيـة الأولـى مـن سـورة النّسـاء مـن علوم والتي كان القصد من معطياتها تنظيم (شهوة النّساء) التـي تُفرزهـا هذه الأجسام. فـأقول: إنّ عظمـة هـذه الآيـة الأولـى مـن سـورة النّسـاء تتجلّى من خلال صياغتـها البلاغيـة المعجـزة التـي تبـادر بسـببها لأذهـان المفسرين القدماء رحمهم الله تعالى غير المضـامين المقصـود منـها. ويزيـد في هذه العظمة أنّ هذه الآية الكريمـة قـد صيغـت صياغـةً دسـتوريةً عامّـة الدّلالات وغير مخصصة. وقد وضع الله جلّ شأنه ضمن هذه الصّياغـة الدّستورية مفـاهيم وحقـائق علميّةٍ عديـدةٍ طالمـا تسـبب تجاهلـها وعـدم معرفتها من قِبل المسلمين وغير المسلمين عثراتٍ لا نهاية لها علـى صعيـد ما يتعلّق بالجنسين الذّكر والأنثى.

فالحقيقة العلمية الأولى التي كشفت عنها هـذه الآيـة الكريمـة هـو أنّ الرّجـل والمرأة يملكـان قـوى نفسيةً واحـدةً لكـون فطرتـهما واحـدة ولكـون أداة تفكيرهمـا واحـدة ولكـون مـا تفـرزه أجسـادهم مـن ميـولٍ وأهواءٍ ورغباتٍ وأهواءٍ وشهوات هـي واحـدة أيضـا واقتضـت معالجتـها بأحكام شرعيّة وتعاليم دينيّةٍ واحدة.

والحقيقة العلمية الثّانية التي كشفت عنها هذه الآية الكريمة هو أنّ الله عز وجلّ قد صاغ نُطفة الأمشاج التي يتخلّق منها الذّكر والأنثى صياغة تحمل مورثات تتسبب بظهور الجنسين الذّكر والأنثى وعلى الصّورة التي يشاء تصويرها الله عزّ وجلّ فاطرها.

والحقيقة العلمية الثّالثة التي كشفت عنها هذه الآية الكريمة هو أنّ الفروق العضوية التي لجسد الذّكر والأنثى تعمل وراء ظهور كثيرٍ من عظماء الرّجال ووراء ظهور قلّة من عظماء النّساء. فالمرأة تحيض وتحمل في بطنها جنيناً وتُرضع هذا المولود إلى سنتين من الزّمان. كما ترعى أولادها وتقوم بخدمة منزلها. فلولا هذه الفروق لتساوى عدد العظماء الذين يظهرون من كلا هذين الجنسين. وبما أنّ نظام الزّواج مرتبطٌ ارتباطاً عضوياً بفلسفة الابتلاء الدّنيوية فلا بدّ وأن يعوّض الخالق هذه الزّوجة الملتزمة عمّا فقدته من جرّاء كونها قد خُلقت أنثى وليس ذكرا.

والحقيقة الرّابعة التي نبّهت إليها هذه الآية الكريمة هو أنّ فريضة نظام الزّواج الشّرعي التي أتينا على ذكرها لا تستقيم بدون سنّ تشريعات وقوانين تحفظ لكلٍّ من الزّوجين حقوقهما، كما تحفظ للأولاد والأرحام حقوقهم أيضاً. لذلك سنعثر هنا وهناك على الآيات الكريمة التي عالجت الحفاظ على تلك الحقوق المشار إليها عند كلامنا عنها إن شاء الله العزيز.

وقد نبّهتنا هذه الآية الكريمة أيضاً إلى **حقيقةٍ تاريخيةٍ خامسةٍ** وهي أنّ ما نلاحظه في زماننا من انتشار نظام الزّواج الشّرعي في جميع أرجاء العالم يرجع إلى أنّ الله تعالى الذي سنّ وفرض هذا النّظام منذ

عهد آدم عليه السّلام وظلّ الله تعالى نفسه على النّاس (رقيباً) بمعنى حارساً لإدامة العمل على هذا النّظام على مرّ تاريخ هذا الإنسان للأهمية المتوخّاة منه علماً بأنّه قد شاب هذا النّظام كثيراً من الانحرافات التي تسبب بها جهل النّاس أنفسهم، وتحتاج منّا الآن المراجعة والتّجديد والإصلاح.

فهذه هي خلاصة ما فتحه ربي عليّ من مضامين هذه الآية الأولى من سورة النّساء وبمناسبة الكلام عن موضوع المساواة ما بين الرّجل والمرأة. وهي حقائق ينبغي على كلّ مؤمن فهمها والالتزام بمعطياتها المصاغة صياغةً دستوريةً.

وليس أن نلتزم بهذه المعطيات الدّستورية وحسب. بل وأن نقوم بتعميمها على النّاس كافةً ودعوتهم للالتزام بها هم أيضاً ومن باب أنّ الدِّين الإسلامي الحنيف ما هو مجرّد طقوسٍ وعباداتٍ، بل هو دين دعوةٍ أيضاً. فما هو دليلنا على ما ذكرناه؟

يُجاب على هذا السّؤال من زوايا مختلفة. وأنا سأجيب عليه هنا من معطيات مجريات مضامين الآيات الكريمة ابتداءً من سورة البقرة وحتى هذه الآية الكريمة من سورة النّساء. أ فلم يلاحظ القارئ كيف أنّ الله عز وجلّ ما إن لخّص في الآيات العشرين الأولى من سورة البقرة ما شاء تلخيصه بما يتعلّق بالأسس العقائدية التي قامت عليها تعاليم الدِّين الإسلامي الحنيف وما سيواجهه الإسلام في المستقبل بعد نزوله إلاّ ولاحظنا بأن الله جلّ شأنه قد توجّه في الآية (21) إلى مخاطبة النّاس كافةً يدعوهم للإيمان بربّهم وإلى التّعرف عليه قائلاً ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ فكانت هذه أول ظاهرةٍ يثبت فيها هذا الدِّين أنّه دين دعوةٍ عالمية وليس هو مجرد طقوس وتقاليد بسبب أنّ الخطاب في هذه الآية الكريمة ورد موجّها إلى النّاس كافّة.

ولنلاحظ كيف أنّه وبعد أن قدّم الله جلّ شأنه دليل مصداقية ما دعاهم إليه ومنبّهاً من خلال قصة آدم عليه السّلام إلى زمن ابتداء هذه المسيرة الرّوحية. وبعد أن ذكّر بني إسرائيل بماضيهم وناقشهم في عقائدهم وبأسلوبٍ علميٍّ. فقد توجّه الله جلّ شأنه وبعد أن فرغ من ذلك كلّه إلى مخاطبة النّاس جميعهم من جديدٍ ووضع لهم الأساس الدّستوريّ الذي يتعلّق بالحلال والحرام من المأكولات فقال في الآية (168) من نفس السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. وقد شكلت هذه الدّعوة الشّاملة ظاهرةً ثانيةً يثبت منها كون هذا الدِّين الحنيف دين دعوةٍ عالميةٍ وما هو مجرد طقوس وعبادات.

وبعد أن استمرّ الله تعالى يحاور أهل الكتاب من يهود ونصارى راح يخاطب النّاس كافّةً من جديدٍ ويحذّرهم مما تفرزه أجسادهم من شهواتٍ تدفعه إلى معصية ربهم، فقد راح جلّ شأنه يقول في الآية الرّابعة عشرة من سورة آل عمران ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ

حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾. وتكون هذه الآية قد شكّلت دعـوةً شـاملةً جديـدةً بالإضافة إلى الدّعوات العالميّة التي طرحتها الآيات السّـابقة وكشـفت في الوقت نفسه عن كون هذا الدِّين الإسلامي الحنيف هو ديـن دعـوةٍ عالميـةٍ وأنّه ليس هو مجرد طقوسٍ وعبادات.

وبما أنّ الله جلّ شأنه كان قد نبّه النّاس هـذا التّنبيـه سـالف الذّكـر. فقد خصص هذه الآية الأولى من سـورة النّسـاء التـي نصّت علـى نظـام الـزّواج الشّرعيّ الـذي نتكلّـم عنـه في هـذا الكتـاب ووضعـت الأسـاس العلميّ لمعالجة تلك الإفرازات الجسدية وأُطـر معالجتها وبشـكلٍ يضمـن للنّاس تحقيق مقاصد ساميةٍ تكلّمنا عنها في بداية هذا الكتاب وورد ذلـك كلّه موجّها كدعوة عالميّـة أيضـاً. وبذلـك تكـون هـذه الآيـة الكريمـة مـن سورة النّساء قد شكّلت من جديد ظاهرة كون الدِّيـن الإسـلامي الحنيـف هو في حقيقته دين دعوةٍ وليس هو مجرّد طقـوسٍ وتقـاليد. وعلـى هـذه الصّورة نكون قد أجبنا على السّؤال المذكور المطروح ونكون قـد أثبتنـا في الوقـت نفسـه أنّ تعـاليم الإسـلام الحنيـف ذات صفـةٍ عالميـةٍ وتُلـحُّ علـى المؤمنـين بـها دعـوة النّـاس كافـة لتقبلـها والتّعـرّف علـى خالقـهم وعلـى مـا حملـت تعـاليم هـذا الدِّيـن إليـهم مـن تعـاليم وأحكـام كـي لا تسـوء عاقبتهم في نهاية المطاف.

وأجيب على السّؤال المذكور من زاوية نظرٍ ثانيـةٍ ومـن خـلال هـذا الرّبط الموضوعيّ الذي ربط مضمون أول آيةٍ من سـورة النّسـاء بمضمـون آخر آية من سورة آل عمران والتي تأتي قبلها بترتيب تلاوة هاتين الآيتـين الكريمتين.

فليلاحظ القارئ الكريم كيف أنّ الله جلّ شأنه قد خاطب المؤمنين في آخر آيةٍ من آيات سورة آل عمران قائلاً ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. فكلمة الصّبر تستعمل أصلاً بمعنى الإمساك في حالة الضّيق وباقي المعاني متفرعةٌ عنها (محيط المحيط). وأما صيغة (صابروا) فتعني اثبتوا على الشّدّة والضّيق وغالبوا أعداء الله في ذلك. وأما كلمة (ورابطوا) فمن ربط فلانٌ جأشه معناه أنّ قلبه اشتدّ. ومن قولك رابط الأمر معناه واظب عليه. ومن رابط الحكيم معناه نزّه نفسه عن الدّنيا (محيط المحيط). والملاحظ هو أنّ هذه الأوامر أتت محذوفٌ منها الجارّ والمجرور فلم يوضّح الله تعالى على أيّ شيء نصبر ونصابر ونرابط. فهذه الأوامر الإلهيّة غير مخصّصة وقد أتى تعالى على آخرها بإشارة (وقف) ليدفعنا جلّ شأنه للتّفكير في معانيها وفيما يشير إليه حذوف الجار والمجرور منها. وقد أتبعها الله تعالى بقوله ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ومطالباً بذلك المؤمنين أن يحذروا ربّهم في ذلك كلّه وأن يخشوه. فلا يسيروا في ذلك على تفريطٍ فيما أمرهم ربّهم بشأنه من أوامر نصّت عليها آيات كتابه العزيز. وقد أنهى الله تعالى هذه الآية بقوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وحاذفاً هنا أيضاً مُضاف فعل (تفلحون).

ألا إنّ هذه الأوامر الإلهيّة وبترتيب تلاوة القرآن والتي أوردتها آخر آية من آيات سورة آل عمران تحمل وجهين من المعاني:

<u>فالوجه الأول</u> يتمثّل في أنّ المسلمين سيأتي عليهم زمانٌ لا يعودون تتجلّى في حياتهم اليومية معالم ما هو مطلوبٌ منهم، والذي هو أهم شيء في الإسلام وهو الدّعوة إلى سبيل الله عز وجلّ.

والوجه الثّاني يحمل لجماعة المؤمنين بشارةً بالفوز فيما يدعون النّاس إليه في نهاية المطاف إن هم عادوا فتمسّكوا بروح العمل على ما اعتقدوه وعلى الدّعوة إلى سبيل الله وبروحٍ من تقوى الله أيضاً. خصوصاً وأنها سُبقت هذه الأوامر قبل ثلاث آيات بقوله تعالى ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾. ففعل (تقلّب) اشتُقّ من تقلّب في الأمر معناه عاد يفعل ما يشاء وكيفما شاء وبعيداً عن تقوى الله عز وجلّ. وكأنّ الله تعالى قد صوّر لنا حال أهل الكتاب الذي نُلاحظه في زماننا وأمرنا بتلك الأوامر ليُحيي فينا روح العمل والدّعوة إلى سبيل الله تعالى. ومن جملة ما ينبغي أن نقوم بالدّعوة إليه والدّفاع عنه هو نظام الزّواج الإسلامي غير عابئين بما يريد أهل الكتاب المعاصرين الوصول إليه. فهم يستغلّون حالة المسلمين المزرية للطّعن بالإسلام وبمبادئه وبما أتى به من نظامٍ للزّواج الشّرعي.

ولذلك تلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى قد راح يسلّح المؤمنين بمعطياتٍ علميةٍ وبالأسس التي أسس جلّ شأنه عليها هذه الفريضة فريضة نظام الزّواج الشّرعي. وهي معطيات وأسسٌ كانت قد غابت عن أذهان المفسّرين القدماء، وعلينا أن نكون مندفعين في ذلك من خلال ما فهمناه من قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

فبهذه الصّياغة الدّستورية التي صيغت بها هذه الآية الكريمة تكون قد سلّحت المؤمنين الصّادقين بسلاح الدّعوة إلى سبيل الله تعالى ومن خلال معطياتها ومنطلقاتها يقيناً. وقد أوجبت على المؤمنين بإمام هذا الزّمان أن

يصحّحوا مفاهيمهم الموروثة عن الأقدمين في مجال عقد الزّوجية الشّرعي الذي عقدوه عند إقدامهم على تلبية صوت ربّهم الذي دعاهم لتبنّي نظام الزّوجية النّابع من كتاب الله العزيز. وأن يشرعوا بالتّعامل مع زوجاتهم على ضوء ما فهمناه من هذه الآية الكريمة كيلا يُحسبوا في نظر ربّهم مع الذين فرّطوا من قبل وشوّهوا سمعة هذا الدِّين الحنيف.

وإنّ مضمون هذه الآية الكريمة يدفعنا أيضاً لنضع شعاراً لنا وهو أن يسعى كلّ فريقٍ منّا إلى بذل كلّ تضحيةٍ من جانب الزّوج ومن جانب زوجه حفاظاً على عقد الزّوجيّة الذي فرضه خالقنا علينا منذ عهد أبونا آدم عليه السّلام. كما تدفعنا هذه الآية الكريمة أخيراً لإهمال جميع الأحاديث والأقوال والرّوايات التي تتنافى ومعطيات هذه الآية الأولى من سورة النّساء.

ثانياً: اختلاف الكيان الجنسي عضوياً:

وما دام الله عز وجلّ قد نبّه أذهاننا في الآية الأولى من سورة النّساء والمصاغة صياغة بلاغية دستورية بأن لا فرق بين الرّجل والمرأة من حيث تكوينهما النّفسي الفطري. فقد عاد من واجبنا البحث في التّركيب العضوي لكل من الرّجل والمرأة لنتبيّن نواحي الاتّفاق ونواحي الاختلاف بين الجنسين. وما دام هذا الكيان الجسدي من أصلٍ ماديّ وليس هو كالنّفس المؤلّفة من قوى لا تدرك إلاّ بآثارها. فقد عاد من السّهل علينا تفحّص نواحي الاختلاف ونواحي الاتّفاق ما بين الجنسين. ولكن وعلى ضوء معطيات العلم الحديث. وانصياعاً لقول الله عز وجلّ في الفقرة الأخيرة من الآية 59 من سورة الفرقان ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾.

وقد تبيّن لعلماء القرن العشرين وحتى الآن بأن لا فرق في تكوين جمجمة وأطراف وعضلات الرّجل والمرأة فالاثنان صنوان ويمشيان على قدمين ومنتصبين القامة أيضاً. كذلك تبيّن لهم بأن لا فرق بين قلبي الذّكر والأنثى في شيء من حيث تكوينه. وأضف إلى ذلك بأنّ جهازي تنفسهما وجهازهما العصبي واحد أيضاً. كذلك تبيّن بأنّ المرأة تسمع كما يسمع الرّجل وتشم كما يشم الرّجل وترى بعينيها كما يراه الرّجل وتلمس كما يلمسه الرّجل. وأنّ جهاز الهضم عند الرّجل والمرأة واحد. لذلك فإنّ علم الطّب أوجد من أنواع علاج مختلف الأمراض ما يناسب الرّجل والمرأة في وقتٍ واحدٍ لتشابههما فيما ذكرناه آنفاً. وبعد وجود هذا التّوافق بين الجنسين والحادث في كلّ شيءٍ يعود إلى تكوين جسديهما، نُعاود السّؤال: فما الفرق إذاً ما بين الرّجل والمرأة على وجه التّخصيص؟

أقول: لقد تبيّن بأنّ جميع ظواهر الاختلاف في شكل الرّجل وشكل المرأة يعود إلى اختلافهما في الأعضاء التّناسلية. ولا يعود إلى شيءٍ آخر سواها. فهذا الاختلاف هو الذي يفسّر قول الله عز وجلّ في الفقرة الثّانية من الآية الأولى من سورة النّساء قوله ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. أي أنّ إبداع الله تعالى للنّفس البشرية قد تبعه عملية هذا الإبداع الآخر المتعلّق بتكوين (النّطفة الأمشاج) وعلى صورةٍ أوجدت هذا الاختلاف في الأعضاء التّناسلية والذي قسّم البشر إلى رجال ونساء.

ونحن ما دمنا قد توصّلنا إلى هذه الحقيقة من خلال معطيات العلم والدِّين. فقد عاد من واجبنا القيام بدراسةٍ موضوعيةٍ تتعلّق

بالأعضاء التّناسلية لدى الجنسين، لتساعد المؤمن والمؤمنة على تنفيذ مشيئة ربّهما وعلى عقد نكاحٍ بينهما يعرفان بعده واجباتهما الجنسية بأسلوبٍ علميٍّ قائم على منجزات العلم وليس نابعا من تقليد السّابقين الذين لم يطّلعوا على هذه المنجزات العلميّة خصوصاً وأنّه قد ثبت أنّ جهل الزّوجين بهذه الثّقافة الجنسية يكمن وراء حدوث كثيرٍ من الأحداث التي عكّرت صفو بيت الزّوجية في كلّ مكان. وعليه فإنّ اطلاع الجنسين على هذه الثّقافة الجنسية يساعدهما على إنجاح عقد الزّوجية الذي ألّف بين قلبيهما وإرضاءً لخالقهما الذي ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾.

ألا إنّ كل من زار المدن الأوروبية لابدّ وأن لاحظ كيف أنّهم وضعوا مخططاتٍ بين الأيدي تدل الزّائر على الطّرق التي تشتمل عليها كلّ مدينة وعلى صورةٍ تساعد الزّائر على الوصول إلى المكان الذي يريد الوصول إليه. وإنّ الثّقافة الجنسية القائمة على أصولٍ علميّةٍ هي بمثابة تلك الخرائط التي تساعد الزّوجين على التّصرّف في دار الزّوجيّة بعد عقد النّكاح. علما بأنّ الذي يصل إلى مدينةٍ وهو محروم من مخطط شوارعها وأزقتها، فسيواجه عقباتٍ متلفةٍ لأوقاته وأمواله دون مبرر بسبب فقدان هذه المخططات وهذا هو نفس حال الزّوجين اللّذين يعقدان نكاحهما ويقفان على عتبة الحياة الزّوجية ولا يملكان هذه الثّقافة الجنسية التي تُسهّل عليهما الخطوات المؤدية لتحقيق الأهداف المرجوة من هذا النّكاح.

وعليه فإنّ هذه الأهمية التي تحتلها هذه الثّقافة الجنسية في حياة الزّوجين تدفعني لأتساءل في حديث نفسي عن النّقطة التي أبدأ منها هذه المسيرة الثّقافية. وبما أنّي كنت قررت الرّجوع في كلّ شيءٍ إلى معطيات

آيات هـذا القـرآن العظيـم الـذي فـرض الله عـز وجـلّ فيـه علـى الرّجـال والنّساء الالتزام بأحكام نظـام الـزّواج ووفـق مـا بيّنـه تعـالى مـن قواعـده وأحكامه وأغراضـه المرجوة منه . فقـد راجعـت هـذه الآيـة الأولـى مـن سورة النّساء ونظرتُ إلـى معطياتـها مـن هـذا المنظـار الـذي ذكرتـه آنفـاً . فتبيّن لي أنّ الله عز وجلّ قد هدانا من خـلال ترتيـب فقراتـها إلـى الخطـة الموضوعية التي ينبغـي أن اختطّـها في هـذا المؤلَّـف لتحقيـق مـا أنـا بسـبيل بحثه وبيانه . فما هي معالم هذه الخطة الموضوعية المشار إليها . ؟

. معالم الخطة الموضوعيّة في موضوع الثّقافة الجنسيّة:

إنّ هذه الإبداعات العلمية التي أبدعـها خالقنـا عـز وجـلّ بمـا يتعلّـق بخلق هذا الإنسـان من نفسٍ واحدةٍ ، وكونـه قـد خلـق زوجـها منـها وبـثّ منهما كثيراً من الرّجـال والنّسـاء ، قـد رسـمت لنا خطـة بحـثٍ موضوعـيّ بهذا الشّأن بنفس ترتيب فقرات هذه الآية الأولى من سورة النّساء وهو :

أولاً : البحـث وعلـى ضـوء الحقـائق العلميـة ، في موضـوع تكويـن فطرة الإنسان التي فطره خالقه عليها وشكّلت كيانه النّفسي غير المادّي . هذه الفطرة البشرية التـي تتسـاوى بميّزاتـها مـا بـين الرّجـل والمرأة في كـلّ مكان في العالم .

وبما أني كنت قد ألّفت كتاباً في هذا الموضوع باسـم (نظريـة جـذور الأخـلاق) فمـا عـادت بـي مـن حاجـةٍ للبحـث في هـذا الموضـوع في هـذا الكتاب بالذّات ، وبإمكان القارئ الرّجوع إلى المؤلف المذكـور . إلـى ذاك المؤلّف الذي يتبادر من عنوانه أني بحثت فيه النّظريات الأخلاقية مع أني كنـت قـد قصـدت بكلمـة الأخـلاق الـتّركيب النّفسـي للإنسـان وليـس أخلاقه . ومن باب أنّ العرب استعملوا كلمـة (الخُلُـق) وجمعـها أخـلاق

فأطلقوها على التّركيب النّفسي لقوى الإنسان الباطنة. واستعملوا الكلمة الثّانية (الخَلْق) وقَصدوا بها التّعبير عن الكيان العضوي المادي للإنسان أي للتّعبير بها عن جسده. فالنّفس البشرية والتي شاع تسميتها بالفطرة البشرية تشكّل في حقيقتها إحدى ظواهر إبداع الله في خلقه لهذا الإنسان المؤلف من الرّجال والنّساء.

ثانياً: وإنّ خطة البحث الثّانية وجهنا إليها الله عز وجلّ من خلال الفقرة الثّانية التي قال تعالى فيها ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هذه الفقرة التي دلّتنا على حقيقة إبداعٍ ثانية كامنةٍ معالمها في تكوين نطفة الإنسان الأمشاج. وبذلك يكون الله جلّ شأنه قد دفعنا لنستقي معلومات هذه الحقيقة من معطيات العلم الحديث أيضاً. ولنصل إلى إدراك كيفية تولّد الذّكر والأنثى من نفسٍ واحدة.

هذا وإنّ هذه الخطة الثّانية اقتضت منّي أن أبحث حقيقة النّطفة الأمشاج ودلالتها اللّغوية وتكوينها وتحولاتها والدّور الذي تلعبه في مجال ظهور الرّجال والنّساء من خلال عمل أجهزة الأعضاء التّناسلية التي للمرأة اختلافها عمّا لدى الرّجل من أعضاء تناسلية.

هذا وإنّ تثقيف الزّوجين بحقائق هذا البحث العلميّ هو من أشد ما يحتاجان لمعرفته والاطّلاع على دقائقه وخفاياه. وليساعدانهما ذلك على بدء حياةٍ زوجيةٍ بعيدةٍ عن ارتكاب الأخطاء التي لا تُحمد عقباها في هذا المجال. ولتقوم علاقات هذين الزّوجين على بصيرةٍ مما يُقدمان عليه.

ثالثاً: وقد وجّهنا الله عز وجلّ إلى الخطوة الثّالثة التي ينبغي أن نخطوها بعد أن نحيط علماً بحقيقة الإبداع الثّانية التي تسببت بظهورها

أجهزة التّناسل التي فرّقت هذه النّفس الواحدة إلى ذكرٍ وأنثى. وهذه الخطوة الثّالثة نبّهت إليها الفقرة الثّالثة من آية النّساء المذكورة وهي قوله تعالى هناك ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾. هذا وإنّ هذه الفقرة تقتضي منّا فتحَ ملفٍّ تاريخيّ لنثبت من خلال معطياته مصداقية الحقيقة التي تضمّنتها هذه الفقرة الثّالثة المذكورة، ولنشرح بالتّالي لكلا الجنسين البركات المترتبة على الالتزام بالقيام بموضوع التّكاثر ولكن ضمن الشّروط والأحكام القرآنية وليس على هوى هذين الجنسين. إلى جانب توضيح ذلك وربطه بفلسفة الابتلاء الدّنيوية المحدودة بأعمال الإنسان. وأن نُثبت نواحي الخطأ الكائنة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

رابعاً: وما دام الله جلّ شأنه قد قال في الفقرة الرّابعة من آية النّساء مخاطباً النّاس: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾. فيكون تعالى قد حثّنا على الخطوة الرّابعة والتي هي أن نجمع الأحكام الشّرعية التي تحدد حقوق الزّوج وحقوق الزّوجة وتبيّن حقوق الوالدين على الأولاد وحقوق الأولاد على والديهم. إلى جانب الأحكام المتعلّقة بالأرحام. أي أن نخصص باباً مستقلا لهذه التّشريعات ليتفقه الأطراف المذكورون بها، وليعرف كلّ جانب ما له من حقوقٍ وما عليه من واجباتٍ ووفق ما شرّعه لهم ربّهم الذي فرض عليهم هذه الفريضة فريضة الزّواج الشّرعيّ. على أن يأت ذلك كلّه نابعاً من معطيات آيات هذا الكتاب العزيز والسّنّة النّبويّة، وليس استناداً لفقهٍ قام على قيلٍ وقال. فالأمة هي بحاجةٍ إلى فقهٍ إسلاميٍّ جديد أساسه القرآن والسّنّة وحدهما، ومراعٍ للمتغيرات الحاصلة في العالم والتي سكت القرآن الكريم عن الخوض فيها أصلاً لهذه الغاية. فالقرآن الكريم صالح لكلّ زمان ومكان بهذا المفهوم الذي ذكرناه.

خامساً: هذا وإنّ الفقرة الخامسة الأخيرة التي قال جلّ شأنه فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ فقد اقتضت هذه الفقرة أن نقدّم للزّوجين المواعظ القرآنية في هذا المجال كخطوة خامسة أخيرة لتنبيه وإيقاظ هذين الزّوجين من كلّ غفلة محتملة الوقوع من جانبهما وتشكّل تفريطاً من جانبهما في حراسة نظام الزّواج القرآني. إلى جانب القيام بالمقارنة ما بين ما فرضه كتاب الله العزيز من نظام زواج وما بين ما هو سائدٌ من أنظمة انحرفت على مرّ الأيام عن الوجه الحقيقي التي وجّههم إليها أنبياء الله الكرام. مع إثبات أفضلية ما فهمناه من كتاب الله القرآن على سائر تلك الأنظمة المشوهة والتي انقلبت مع الأيام إلى مجرّد طقوس وتقاليد وأعراف ما أنزل الله تعالى بها من سلطان. وأن نوضّح ذلك كلّه على صورة تساعد هذين الزّوجين ليدعوان النّاس جميعا إلى ما شرحناه لهم رجالا ونساء في كل مكان من هذا العالم.

فهذه هي يا عزيزي القارئ خطّة البحث التي وجّهتنا إليها الآية الأولى من سورة النّساء لنختطّها في بحثنا الذي خصّصنا له هذا المؤلف وباسم (نظام الزّواج: نشوؤه وتطوره وأحكامه). فإن وفّقني ربي عز وجلّ في موضوع الالتزام بهذه الخطّة في بحث هذا الموضوع. فمعنى ذلك أن أقسّم هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب. فأبحث في الباب الأول موضوع جوانب الاتّفاق والاختلاف ما بين كيان الرّجل والمرأة وما بين ما يستلزمه من بحث مواضيع متعلّقة بذاك الاختلاف وأن أبحث في الباب الثّاني أحكام وتشريعات نظام الزّواج ومُلحقاته. وأن أخصص الباب الثّالث منه للمقارنة ولتقديم المواعظ اللازمة ولتسليح الزّوجين بمقومات الدّعوة إلى هذا النّظام.

الفصل الثّاني:

تخلّق الذكر والأنثى من النّطفة

ونتناول الكلام في خطّة البحث الثّانية التي وجّهتنا إليها الفقرة الثّانية من آية سورة النّساء وهي قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. وكنت نبّهت في حينه إلى أنّ الله عز وجلّ وضّح مضمون هذه الفقرة في الآية (39) من سورة القيامة والتي قال تعالى فيها ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾.

فقد نبّه الله جلّ شأنه من خلال هذه الآيات الكريمة إلى أنّه تعالى خلق من النّفس زوجها من خلال تكوين نطفة الإنسان التي تُمنى وتصبح علقةً، والتي إمّا أن تتشكلّ ذكراً وإما أن تتشكّل بعد الجماع أنثى. فمن خلال هذه الحقيقة التي أطلعتنا عليها هذه الآيات الكريمة يكون الله تعالى قد وجّهنا لنطّلع على حقيقة تكوين نطفة الإنسان وعلى ضوء معطيات الحقائق العلمية المكتشفة. لذلك كان من واجبنا تثقيف الذّكور والنّساء بما يتعلّق بحقيقة نطفة كلٍّ منهما والتي سيبثّ الله تعالى منهما رجالاً كثيراً ونساءً. وعليه فسأبيّن كلّ ما ينبغي بيانه في هذا المجال:

أوّلاً . مفهوم كلمة نُطفة:

فنسأل أوّلاً: ماذا تعني كلمة نطفة لغوياً؟ هذه الكلمة التي أتت من قولك نطفَ ماءُ الحوض ومعناه سال الماء منه قليلاً. أمّا إذا قلت نطفتُ الماءَ فتعني أنّك صَببته. أمّا إذا سمعت فلاناً ينطُف شخصاً آخر فمعنى ذلك أنّه يقذفه بالفجور أو يلطّخه بعيب، وهو معنى مجازي. والنّاطف اسم فاعل والنّطف مصدر. كذلك تطلق كلمة النّطفة على الماء الصّافي الذي يتبقّى في دلوٍ أو قُربه. وتجمع كلمة (نطفة) على نُطف ونِطاف. وتُطلق بالتّالي على ماء الرّجل والمرأة لقلّته عند نزوله.

ثانياً. استعمالات القرآن لكلمة نُطفة؟

لقد وردت كلمة نطفة في كتاب الله العزيز حوالي (12) مرة. حيث أورد الله جلّ شأنه كلمة نُطفة تعبيراً عن الدّور الثّاني الذي مرّ من خلاله خلق وإبداع هذا الإنسان ففي سورة المؤمنين قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ 12 / 13.

ففي الآية الأولى نبّه الله جلّ شأنه إلى الدّور الأول لخلق الإنسان فعبّر عن ذلك بقوله ﴿ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ هذا وإنّ كلمة (سلالة) أتت من سلّ الشّيء معناه انتزعه وأخرجه في رفق لذا فالسّلالة هي ما استُلّ من الشّيء وخلاصته لأنّها تستلُّ من الكدر. وإنّ حرف (من) تفسيريّ (محيط المحيط). وقد أشار قوله تعالى هذا إلى ما فسّره به في سورة نوحٍ وقال هناك ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾. فهذا كلّه ما يتعلّق بالدّور الأول لنشوء الإنسان.

أما في الآية الثّانية فقد استهلّها الله جلّ شأنه بحرف (ثم) الذي يفيد التّرتيب الزّمني وأورد فعل (جعلناه) بمعنى صيّرناه. وأورد كلمة (نُطفة) إشارة إلى جهازي التّكاثر لدى الرّجل والمرأة وإفرازهما هذا الماء القليل الذي إذا ما تلاقى يتولّد عنه الجنين. وقد أشار جلّ شأنه من خلال قوله ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ إلى أنّ خصية الرّجل ومبيض المرأة اللّذان تفرزان النّطفة والتي تخرج من بين الصّلب والتّرائب تصل إلى الرّحم وسآتي على شرح ذلك كلّه في المقام المناسب له.

وقد عاتبَ الخالق الإنسان الكافر به في الآية (37) من سورة الكهف وبنفس المفهوم وقال ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ وبنفس هذا المفهوم أيضاً ورد في الآية الخامسة من سورة الحجّ. وأكّد الله جلّ شأنه ما أفادت به آية سورة المؤمنين وذلك في الآية (11) من سورة فاطر. وأيضاً في الآية (77) من سورة يس. كذلك في الآية (67) من سورة غافر. وقد أتى الله تعالى بذلك كلّه متوافقاً مع ما يتعلّق بتسلسل آيات السّور المذكورة الموضوعيّ.

ثالثاً. حقيقة النّطفة الأمشاج:

ثم إنّ كلمة نطفة لا تحمل إلاّ الدّلالة على ماءٍ يسيل. لكنّها لا تُفصح عن تكوين ما تدلّ عليه. ولذلك فقد سمّى الله جلّ شأنه نطفة الإنسان ﴿ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ دلالة على حقيقة تكوينها، وليس دلالة على امتزاج ماء الرّجل بماء المرأة وعلى ما فهمه منها المفسرون القدماء. وعليه كان من واجبنا تقديم الدّليل على صحّة ما ذكرناه وطرحناه؟

ألا إنّ العلاّمة الفخر الرّازي رحمه الله تعالى أورد يقول :

" فالأكثرون على أنّه اختلاط نطفة الرّجل بنطفة المرأة " . كما أورد يقول " أنّ قوماً قالوا إنّ الله جعل في النّطفة أخلاطاً من الطّبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة والرّطوبة واليُبوسة والتّقدير من نطفةٍ أمشاجٍ فحذف تعالى المضاف " . فهذه هي خلاصة ما أورده الرّازي في تفسيره الكبير .

أمّا وقد وردت أقوال الفخر الرّازي رحمه الله في أزمنةٍ خلت من الأبحاث العلمية التي تكشف عن تكوين النّطفة الأمشاج . وفي أزمنةٍ ما كان يُعرف من العناصر المادية إلاّ تلك العناصر الأربعة المتمثلة في الحرارة والبرودة والرّطوبة واليبوسة . فإنّ ما أورده العلماء القدماء لا يُعتمد عليه لندرة معطيات أزمنتهم العلميّة . لكنّ العلم الحديث أطلعنا على كثيرٍ ممّا تحمله نطفة الإنسان من مواد . وإن كانت وسائلهم عاجزةً عن اكتشاف ما تحمله النّطفة من قوىً لا تعرّف إلاّ بآثارها وهي أشبه بالمغناطيس لا تُعرف قوّته إلاّ حين تقوم قواه بجذب برادة الحديد .

وأنا أقدّم الدّليل على صحة ما ذكرته أعلاه من أنّ ﴿ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ وردت كذلك إشارةً إلى حقيقة تكوينها وليس دلالة على امتزاج ماء الرّجل بماء المرأة . فأقول : إنّ العلماء القدماء أعادوا كلمة أمشاج إلى قولك مشجهُ مشجاً بمعنى خلطه . فالشّيء المشيج هو المختلط ويُجمع على أمشاج . لذلك فهموا من قوله تعالى ﴿ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ دلالتها على اختلاط ماء الرّجل بماء المرأة .

أمّا الحقيقة فهي أنّ الله عز وجلّ لم يستعمل كلمة (أمشاج) في هذا المقام من الآية مـن سـورة الدّهـر جمعاً بـل أورده بصيغـة المفـرد، وعلـى شاكلة قولك ثوبٌ أخلاقٌ أو برمة أعشـار أو أرض سباسـب وعلـى حـدّ فهم الزّمخشـري. فكلمـة أمشـاج وردت صفـةً لكلمـة (نطفـة) وبصيغـة المفرد أيضـاً. فتتسـاءل يـا عزيـزي القـارئ: وكيـف توصّلنـا إلـى معرفـة ذلك؟ أقول: توصّلنا إليـه بسـبب الدّلالـة التـي حملتـها كلمـة (أمشـاج) وضمن الآية التي وردت فيها والتّابعة لسورة الدّهر.

ذلـك أنّ القـارئ الـذي طـالع الصّفحـات (116 ـ 125) مـن كتاب(نشوء الإنسان وتطوّره) يكون قد تمكّن من الاطّلاع علـى الإجابـة اللازمة. ومع ذلك فاختصر تلك البيّنات وأقـول: لدينـا الآيـات الثّلاثـة الأولى من سورة الدّهر فقد أخبرتنا الآيـة الأولـى منـها عـن قِدم وجـود الإنسان على وجه البسيطة وأنّ الله تعالى قد خلق هـذا الإنسـان مسـتقلا عن غيره من الكائنات الحيّة وقد طوّره ربّه طوال ملايين الأعـوام إلـى أن اكتمل عقله وحواسه وأصبح سميعاً بصيراً. وقدّم الله جلّ شـانه الدّليـل على مصداقية ذلك من خلال اختلاف تكويـن نطفـة الإنسـان عـن نطفـة سواه من الكائنات الحية. وبحيـث حملـت نطفـة الإنسـان الأمشـاج مـن القوى ما جعله كائناً عاقلاً صاحب إرادة وتقرير مصير. وذلـك بخـلاف تكوين نطفة بقية الكائنات الحية التي جعلها الله تعالى غريزيةً في سـلوكها كما هو معروف. فهذا هو ما عبّر الله جلّ شـأنه عنـه في الآيـة الثّانيـة من سورة الإنسان حين قال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾، ثم وضّح الله تعالى حيثيّة هذا الإبداع ومن خـلال مـا أضافه وقـال (نبتيلـه)

أي أنّه تعالى منح هذا الإنسان العقل والإرادة وحرية التّعبير ليخضعه لفلسفة الحياة الدّنيوية القائمة على امتحان هذا الإنسان على صعيد أعماله وسلوكه اليوميّ هذا وقد نبّهت الآية الثّالثة إلى أنّ سلسلة أنبياء الله الكرام وما أتوا به من تعاليم سماوية قد شكّلت وسيلة هذا الابتلاء. وعبّر الله تعالى عن ذلك بقوله في الآية الثّالثة ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

وهكذا فإن نحن أخذنا بأقوال العلماء القدماء بما يتعلق بكلمة (أمشاج) يختلّ تسلسل هذه الآيات الموضوعي من سورة الإنسان، ويفقد الدّليل الذي قدّمه الخالق فيها على مصداقيّة ما ادّعاه حيويّته وعظمته.

وبألفاظ أخرى فإنّ المعنى الذي بيّنته شرحاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾. قد ورد فيه الرّد العلميّ على ما ورد في النّظرية الدّاروينيّة من أنّ وجودَ الإنسان تأتّى عن طفرةٍ حدثت في كيان كائنٍ حيويٍّ قبله.

وكأنّ الله عز وجلّ قد نبّه في الآية الثّانية من سورة الدّهر وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ قد نبّه إلى وجود علاقةٍ جدليّةٍ كائنةٍ ما بين تكوين النّطفة الأمشاج وما بين تأسيس هذا الكون المادي على فلسفة الابتلاء في مجال أعمال الإنسان. فلولا أن كان الخالق جلّ شأنه قد كوّن نُطفة الإنسان ﴿ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ وتولّد عنها كائن عاقل وحرّ الإرادة والتّفكير، فما كانت لِتوجد هناك من رابطةٍ جدليّةٍ ما بين هذه الفلسفة الحياتيّة وما بين

الكائنات الحيّة الغريزية التي لا يُبتلى ولا يُمتحن أهلها لحرمانهم من العقل والإرادة وحرية التّفكير والتّقرير.

والمهم من كلّ ما ذكرناه هو التّنبيه إلى أنّ الله عز وجلّ قد استعمل كلمة أمشاجٍ كصفةٍ مفردةٍ لكلمة (نطفة) المفردة ولم يستعملها جمعاً. وقد وصف الله تعالى نطفة الإنسان من خلال كلمة أمشاج بأنّها خلائط قوى نفسية وموروثات. وبما أنّ القوى النّفسية لا تخضع للتّجربة بل تُعرف بآثارها. فإنّ نشوء الإنسان بقوى فطرية معروفة دلّ على وجود أصل هذه القوى النّفسية في نُطفة الإنسان. أمّا المورّثات وغيرها المادية الكيان فسأتكلم عنها فيما بعد.

رابعاً. النّطفة الأمشاج تسمّى (منيّ) عند الدّفق:

ألا فاعلم يا عزيزي القارئ بأنّ (نطفة الأمشاج) تظلّ تسمّى بهذه التّسمية مادامت موجودة في كيسها الطّبيعي الذي يسمونه الخصيتين، وتظلّ تسمّى نطفة. أمّا حين تصل الشّهوة الجنسية ذروتها عند الرّجل، فإنّ هذه النّطفة تدفق من مكانها إلى خارج القضيب وتسمّى حينئذ (المني) هذه الكلمة المشتقّة من أمنى الرّجل بمعنى أنزل النّطفة خارجاً وأراقها. فكلمة (المني) على وزن فعيل وبمعنى مفعول. وعليه فهذا هو السّبب في أنّ الله عز وجلّ قد قال في سورة القيامة ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾. فقد أطلق الله جلّ شأنه هنا على النّطفة قوله ﴿ مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾. وقد أراد تعالى من قوله

هذا أنّ الحيوانات المنويّة التي في النّطفة تسبح في سائلٍ منويٍّ وتُقذف بواسطة القضيب خارجه.

وعليه فإنّ نطفة الأمشاج عندما تغادر مكانها تغادره ضمن سائلٍ منويٍّ. وقد تكرر اصطلاح ﴿ مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ ثلاث مرات في كتاب الله العزيز.

خامساً. مكونات النّطفة الأمشاج:

ألا إنّ نطفة الإنسان الأمشاج، تلك التي يدفُق القليل منها عند اجتماع الزّوجين ومن خلال ملامستهما بعضهما بعضا بغاية الإنجاب. إنّ تلك النّطفة القليلة كمّاً ووزناً تعجّ بأنواع كثيرة من المكونات ولم يستكمل العلم الحديث الكشف عنها جميعها بشكلٍ قاطعٍ ونهائي. وإنّ كلّ ما اكتشفه العلم الحديث من تلك المكوّنات حتى الآن يتلخّص فيما يلي:

1ً- وجود كائناتٍ منويّة تسبح في سائل ذو طبيعة قلويّة، ووجود بويضات تسبح هي الأخرى في سائل ذي طبيعةٍ حمضيّة. وإنّ هذه الكائنات المنويّة وتلك البويضات من الصّغر بحيث لا تراها إلاّ أعظم المكبرات.

2ً- والذي اكتُشف هو وجود (46) زوجاً من الخيوط الملتفّة ومناصفة ما بين هذا وذاك، وتشكّل هذه شيفرة معقّدة تحمل موروثات الجنس البشري. فإذا جُمعت جميع هذه الشّيفرات في مكانٍ واحدٍ، فلا يصل حجمها إلى أكبر من حجم رأس دبوس.

3ً- وإنّ خليّة النّطفة هذه مؤلفة من مواد معدنية لا مجال لتعدادها في هذا المقام.

4ً ـ وأنّ ما ذكرناه من كائنات منويّة وبويضات فهي تسبح كما قلت في سائل ذي طبيعتين ويؤدي أكثر من مهمة واحدة.

5ً ـ وإنّ كلّ ما وجّهنا القرآن الكريم إليه في كتابه العزيز، فقد وجّهنا إلى وجود أساس وجذور ما يحمله الإنسان من قوىً نفسية شكّلت فطرة هذا الإنسان البشريّة، وأنّها من ماهيّة يستعصي اكتشافها بالوسائل المعروفة وهي تُكتشف بآثارها فقط. وهذه الفطرة هي الأساس الذي يولد عليها هذا المخلوق البشر العاقل وصاحب الإرادة والحرّ التّفكير وصاحب الاختيار في تصرّفاته اليوميّة.

وأنا حين استعملت كلمة (القليل) من النّطفة عند الجماع. فقد أورد الله جلّ شأنه بدلاً عن هذه الكلمة قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾. وقد قصد تعالى بكلمة (مهين) معنى القليل، ولم يقصد من قوله هذا معنى (حقير وضعيف) وهو المعنى الذي ذهبت إليه أذهان المفسرين القدماء. فقد ورد في (محيط المحيط) كلمة مهين أنّها تعني الحقير والضّعيف كما تعني القليل. ولا يناسب قوله تعالى ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ إلاّ معنى القليل. وهو المعنى الذي لا يتبادر مباشرةً إلى ذهن الإنسان. لذلك أرى من المناسب أن أتوسع قليلاً في شرح ما ذكرته من مكوّنات النّطفة الأمشاج، وليشكّل ذلك ثقافةً جنسيةً لكلا الجنسين الذّكر والأنثى الذين يسعيان للعمل على فريضة الزّواج الشّرعيّ.

1 ـ ما يتعلّق بالحيوان المنوي فقد تبيّن لعلماء العالم الحديث أنّ قطره يبلغ خمسة ميكرونات علماً بأنّ الميكرون يساوي جزءً من مليون جزء من

المتر. لكنّ بويضة الأنثى هي أكبر من الحيوان المنويّ الذّكريّ بأربعين ضعفاً أي أنّ قطرها يساوي (200) ميكرون. والحكمة من هذا التّفاوت في الحجم، هو أنّ للبويضة مهمةً مستقلّةً وهي قيامها بتغذية اللّقاح الذي يقوم به الحيوان المنويّ داخلها وممّا تحمله من غذاءٍ مناسبٍ له، وذلك لمدة أسبوع حتى تتمكّن النّطفة الملقّحة من التّعلّق بالرّحم ولتصبح علقة. وهذا يعني أن كيانَ المرأة العضويّ له مهمتان أساسيتان: فالمهمة الأولى تؤديها بويضتها بعد عملية التّلقيح فتغذّي النّطفة الملقّحة مدّة أسبوع. والمهمة الثّانية تؤديها هذه الأنثى بعد الولادة فترضع هذا المولود لمدة سنتين من ثدييها وعلى حسب ما بيّنه القرآن الكريم. فهذه حقيقةٌ تدخل في باب التّكوين العضويّ للأنثى وبشكل فطريّ وبواسطته تختلف الأنثى عن الذّكر من حيث تكوين كيانهما العضويّ.

ثم إنّ هذا القليل الذي تدفقه نطفة الذّكر لا يحوي حيواناً منوياً واحداً، بل تسبح فيه حوالي مئتا مليون من الحيوانات المنوية. وإنّ نصف هذه الأعداد الهائلة يهلك قبل الوصول إلى البويضة. هذا وإنّ واحداً منها يتمكّن من بلوغ البويضة ويقدر على تلقيحها. وأمّا بقية الأعداد من الحيوانات المنويّة فتموت هناك حولها.

أضف إلى ذلك يا عزيزي القارئ أنّ الأنثى الطّفلة وهي في بطن أمها تحمل ستة ملايين بويضة أولية. ويهلك أكثر هذه البويضات قبل أن تولد هذه الطّفلة الأنثى وتعرف نور الحياة. حتى إذا ما بلغت هذه الطّفلة سنّ البلوغ والمحيض، فلا يبق من تلك البويضات أكثر من ثلاثين ألف بويضة لديها. ولقد دلّت التّجارب والإحصائيات على أنّ ما ينمو من

هذه البويضات وإلى آخر عمر الأنثى وما يصل إلى الرّحم لا يزيد عن أربعمائة بويضة.

2 ـ وأمّا ما يتعلّق بشيفرة المورّثات المعقّدة والتي إذا جمعت جميع شيفرات الجنس البشري فلن يتجاوز حجمها حجم رأس دبوس. فإنّ إبداع الله تعالى إيّاها هو أشبه ما دلّت عليه نظرية (الانفجار العظيم) القائلة بأنّ هذا العالم المادي كان مضغوطاً في خليّةٍ لا يتجاوز حجمها حجم رأس دبوس. وقد فجّرها خالقها ومُبدعها قبل (12 ـ 20) مليار عام وتشكّل منها هذا الكون العظيم. فهذه المورّثات المضغوطة بحجم الدّبّوس تفعل ما تعلمون ألا إنّ جسم الإنسان مؤلف أصلاً من خلايا حيّة. وإنّ كلّ خليّةٍ من جملة ملايين تلك الخلايا تحتوي على شيفرةٍ تتعلّق بالعضو المؤلّف منها ولا تشاركه في ذلك بقية الخلايا. فلو أننا أخذنا تكوين عين الإنسان على سبيل المثال فإنّ خلية القرنية الشّفافة تختلف شيفرتها الوراثية عن شيفرة بقية الطّبقات التي تتألف منها هذه العين من حيث الوظيفة والشّكل وغيرها من الأمور. وقيسوا على ذلك خلايا البنكرياس والكبد والعضلات وغيرها من أعضاء جسم الإنسان. هذا وإنّ أسرار هذه الشّيفرة العجيبة تحمل من الأسرار ما تتناقلها الأجيال على مرّ الزّمان. إلى جانب أنّ كلّ خليّةٍ من خلايا جسم الإنسان تحمل (46) جُسيماً صبغياً ملوناً تتكوّن منه شيفرة تلك الخلية. باستثناء خلية الحيوان المنوي عند الرّجل فهي تحمل نصف العدد المذكور أيضاً. وحكمة ذلك أنّ هذين الكائنين الحيوان المنويّ وبويضة الأنثى إذا تلاقحا يشكّلان خليّةً جديدة مؤلّفة من مجموع ما فيهما من شيفرات

معقدة يتكوّن منهما الذّكر والأنثى ويحملان مورّثـاتٍ مـن كـلا الجنسين ووفق قوانين قدريّة لم يُحط العلـم بـها جميعـها وهـي قوانـين تحـدد نـوع المولود أهو ذكر أم هو أنثى، كما تحدد ما يحمله كلٌّ منهما من مورثات.

هذا وإنّ علماء الغرب الذين اكتشفوا وجود هذه الشّيفرات المورّثة أطلقوا عليها اسـم (كروموسـومات) وتبيّـن لـهم أنّ كـل صبـغٍ مـن هـذه الصّبغيـات التـي تحويـها هـذه الشّـيفرة المعقـدة الـتّركيب والبالغـة الدّقّـة، يتكوّن من سلاسل حلزونية ملتفّة حول نفسـها علـى هيئـة سـلالم. وإنّ كلّ درجـة مـن هـذه السّـلالم تربـط بـين قـاعدتين أمنيّتـين (Nilrogeno Bases) وتمتد إلى عدّة أمتار طولاً. وإنّ هذه السّلالم ملتفّة حول نفسها وبحيث لا يشكّل حجمها الميكرون أي جزء واحـدٌ مـن مليـون جـزء مـن المتر القياسي المعروف. وبذلك تشكّل كلّ صبغيّةٍ من تلك الصّبغيات آية مـن آيـات هـذا الإبـداع في الخلـق ومعجـزةً مـن معجزاتـه تعـالى تتجـاوز حدود الخيال.

هذا وإنّ المؤمن ذكراً كـان أو أنثـى واطّلـع علـى هـذه الحقيقـة التـي شرحتها له آنفاً. يعود يدرك حكمة وعظمة قول الله عز وجلّ في الآيـات (17 ـ 22) من سورة عبس: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾.

3 ـ وأمّا ما يتعلّـق بـالمواد المعدنيـة الدّاخلـة في نطفـة الإنسـان. فقـد سبق لي أن ذكرت بأنّ جسم الإنسان مؤلف من خلايا حية. وأنّ النّطفـة

والبويضة هما خليتان مستقلتان من جملة خلايا هذا الجسم الذي جُعلت النّفس البشرية في إساره، والذي يتجاوز عدد خلاياه وفق تقديرات العلم الحديث ستين مليون مليون خليّة.

فمن خلال هذه المعلومة يدرك القارئ بأنّ النّطفة فيها من المعادن ما تشتمل عليه كلّ خليّةٍ من خلايا جسم الإنسان من حديدٍ وأملاحٍ وغيرها من المواد وبإمكان القارئ مراجعة ذلك في كتب التّشريح ولا أرى من حاجةٍ هنا لتعداد تلك المواد.

4 - وأمّا ما يتعلّق بالسّائل التي تسبح فيه الحيوانات المنوية والبويضات وطبيعته. فإنّ هذا السّائل الذي تسبح فيه الحيوانات المنوية فيختلف تركيبه عن السّائل الذي تسبح فيه بويضات الأنثى. فطبيعة سائل الذّكورة قلويّ التّأثير على حين أنّ طبيعة سائل الأنوثة حمضيّ التّأثير. وإنّ هذا الاختلاف المذكور ارتكز إلى حكمة إلهية كبيرة. ذلك أنّ الجماع الذي يفرز حيوانات الذّكر المنويّة، هو بحاجةٍ للمحافظة عليه وحمايته من تأثير إفرازات المهبل الحامضيّة التّركيب والطّبيعة وليساعده ذلك إلى الوصول إلى عنق رحم المرأة والذي هو قلوي الإفراز ومن طبيعته. أمّا لماذا كوّن الله تعالى سائل المهبل حامضيّ الطّبيعة. فالعلم أثبت أنّ لهذا الإفراز الحمضيّ الطّبيعة مهمّةٌ يؤديها وهي حماية مهبل الأنثى من الميكروبات الضّارّة التي يقتلها هذا الإفراز الحمضيّ. ويشكّل ذلك كلّه آيةً أخرى معجزة أيضاً تشهد على عظمة المبدع الأعظم وهو الله الخلاّق عز وجلّ.

5ـ وأمّا ما يتعلّق بجذور قوى النّفس البشرية والتي هي من ماهيةٍ تعجز الوسائل المادية عن اكتشافها. فإن فهم هذه الحقيقة يقتضي من القارئ مراجعة مؤلّفي (نظرية جذور الأخلاق) للإحاطة بموضوع الجذور المادية التي تكونت منها الفطرة أو النّفس البشريّة، والتي اختلف الإنسان بسببها عن بقية الكائنات الحية الغريزية.

سادساً. مكان نشوء حويصلات المنيّ والبويضات:

المعلوم من الآيات (5/ 6/ 7) من سورة الطّارق والتي قال تعالى فيها ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ فالمعلوم من هذه الآيات الكريمة هو أنّ الله عز وجلّ قد نبّه أذهاننا إلى المكان الذي نشأت منه حويصلة المنيّ وحويصلة البويضات. فما مدى تطابق هذه المعلومة مع ما كشف عنه العلم الحديث؟

أقول: لقد ثبت علمياً أنّ خصية جنين الإنسان تنشأ أول ما تنشأ بالقرب من موضع الكليتين أي ما بين العمود الفقري جهة صُلب الإنسان، وما بين أضلاع هذا الإنسان وهو ما سمّاه القرآن الكريم (التّرائب). وثبت أيضاً أنّ هاتين الخصيتين تنزلان من موضعهما بصورةٍ تدريجية أثناء الحمل بحيث تبلغان حوض هذا الجنين في الشّهر الثّالث من عمره ومن ثم تخرج بعد ذلك خارج بدنه في الشّهر التّاسع من عمر هذا الجنين.

الفصل الثّالث:

كيف يحدث تلقيح البويضة وعظات ذلك؟

وينبغي التّحدّث في هذا الفصل الثّالث عن كيفية قيام الكائن المنوي بتلقيح بويضة الأنثى. وعمّا وراء ذلك من عظات ينبغي اتّعاظ الزّوجين بها بصورة عمليّة. ولتوضيح ذلك وباختصار ينبغي أن نتذكر أولاً بأن الكائنات المنوية منها ما يحمل شارة الذّكورة ومنها ما يحمل شارة الأنوثة. وأنّ سُرعة سير الكائنات المنوية الذّكورية تبلغ ضعف سرعة البويضة التي تحمل شارة الأنوثة. وما أن تحدث دفقة المنيّ إلاّ ويبدأ هناك سباقٌ لبلوغ جانب البويضة ما بين جميع الكائنات المنوية الدّافقة وبمختلف إشاراتها المذكورة أعلاه. وفي الوقت نفسه تفرز الأنثى بويضةً من خلال تلافيف قناة الرّحم. وتدفعها هذه التّلافيف باتّجاه الحيوانات المنويّة القادمة نحوها. ونتيجة لهذا السّباق، فإنّ الحيوان المنويّ الأسرع والمحظوظ فإنّه يصل إلى تاج محيط البويضة المشعّ ويلامسها. فيفرز مادةً تساعده على إذابة جزء من تاج هذه البويضة المشعّ. وإنّ البويضة نفسها تقابل إفرازه بإفرازٍ لزج القوام يسهّل على الحيوان المنوي مهمة دخوله وتعلّقه والتصاقه بسطحها. فمن هو الذي سلّح الحيوان المنويّ بالمادة التي يفرزها لثقب تاج البويضة؟ ومن هو

الذي سلّح البويضة بالمادة اللّزجة التي تفرزها لمساعدته على الالتصاق بها؟ وكم هو حجم الغدة من هذا وذاك؟ وكيف تواجد الحيوان المنويّ والبويضة في حجمين لا يزيدان عن واحد من المليون من المتر؟ فهذه كلها تدخل يا عزيزي القارئ في موضوع أعاجيب قدرات الله الذي أبدع هذا الإنسان من نطفةٍ من ماءٍ مهين.

وبعد أن يلقّح الحيوان المنويّ هذه البويضة تأخذ في الانقسام من نفسها إلى قسمين متناظرين ويشكلان خليتين شبيهتين بها، ومن ثم تبدأ كلّ خليّةٍ من هاتين بالانقسام بنفس الطّريقة، إلى أن تزداد الخلايا وتصبح على شكل توتة وتتغذّى جميعها ممّا في البويضة الأم من مغذيات ضرورية لها. ويدوم ذلك إلى حين تعْلق هذه التّوتة بجدار الرّحم وتلتصق به وليتحقق قول ربنا عز وجلّ (فجعلناه في قرارٍ مكين). وتتراوح الفترة ما بين بدء التّلقيح إلى حالة الالتصاق بالرّحم مدة أسبوع كامل وعلى حساب المواد التي كانت مخزّنةً في هذه البويضة التي كان يزيد حجمها عن حجم الحيوان المنوي أربعين ضعفاً.

وبعد أن تنتهي هذه المرحلة من الخلق يبدأ الجنين تظهر ملامحه من هذه التّوتة العجيبة وبفعل هذه الشّيفرات المعقدة والمخزّنة في خلايا هذه التّوتة العجيبة. ويستمر حدوث ذلك إلى أن يكتمل الجنين بجميع ملامحه وأعضائه في الأشهر الأخيرة من الحمل. فهذه الأحداث الأسطورية إن دلّت على شيءٍ فإنّما تدل على عظمة قدُرات خالقنا وعلى واسع علمه. هذا الإله الذي فرض علينا فريضة الزّواج الشّرعيّة لتتحقق الغاية القصوى من هذا الإبداع الدّال على الله العليم الحكيم والخبير.

وعلى هذه الصّورة أكون قد أعطيت الذّكر والأنثى المؤمنين فكرةً شرحت الفقرة الثّانية من النّصّ الدّستوري الذي نصّت عليه الآية الأولى من سورة النّساء. أقول: شرحت الفقرة الثّانية منها والتي قال تعالى فيها ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾. وبذلك أكون قد أكملت الخطة الثّانية التي وجهتنا إليها هذه الفقرة الثّانية وضمن الباب الأول من هذا الكتاب. وقبل أن أنتقل إلى فصلٍ جديدٍ، أرى أن أقوم بعملية استنتاجٍ علميّةٍ من خلال جميع المعلومات والحقائق التي ذكرناها والتي كشف عنها العلم الحديث. ومن باب أنّ العلم يقوم على الملاحظة والتّجربة والاستنتاج. فكما أنّ تعاليم القرآن الكريم قد أنزلها ربنا عز وجلّ موافقةً لفطرة هذا الإنسان النّفسية وقواها. فقد أنزل أحكام نظام الزّواج الشّرعيّ موافقةً للتّكوين العضوي لهذين الجنسين الذّكر والأنثى يقيناً.

. دروس وعظات تعظنا بها الفطرة البشريّة:

ألا إنّ المؤمن والمؤمنة اللّذين يُطالعان آيات سورة الرّوم ابتداءً من الآية (20) يلاحظان بأنّ ربّهما جلّ شأنه يعدّد لهما إبداعاته هناك التي أبدعها والتي تنزّهه عن كلّ نقصٍ في علمه وفي قدراته. حيث استهلّ تلك الآيات بقوله تعالى ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ۝ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. وبعد أن أكمل الله تعالى ما أبدع من إبداعاتٍ في مجالات أخرى، توجّه جلّ شأنه ليخاطب هذا المؤمن والمؤمنة وقال ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم

مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

فإن طالع كلّ مؤمنٍ ومؤمنة ما شرحته له في مؤلفاتي حول مضامين هذه الآيات الكريمة، يكون قد أدرك بأنّ الله عز وجلّ قد أنزل تعاليم كتابه العزيز وفق معطيات تكوين الفطرة البشريّة التي فطر الله تعالى الإنسان عليها.

وما دام قد ثبت أيضاً بأنّ هذا الإنسان قد أبدعه الله تعالى من نفسٍ وجسدٍ، وهي الحقيقة التي أثبتّها علميّاً في مؤلفاتي أيضاً. فمعنى ذلك أنّ تعاليم الإسلام لم تنزل موافقة للقوى النّفسية لهذا الإنسان وحسب. بل ويكون الله جلّ شأنه قد أنزلها وفق التّكوين العضوي لجسد الذّكر وجسد الأنثى أيضاً. وإنّ هذه الحقيقة الإيمانية تفرض على المؤمن وعلى المؤمنة بكتاب الله العزيز أن يتّعظا من عظمة هذا الإبداع الإلهيّ الذي تجلّى في تكوين نطفة الإنسان والذي أتيت على بيانه في هذا الفصل الثّاني من هذا الباب الأوّل من هذه الكتاب، فهذه الحقائق تفرض على المؤمن وعلى المؤمنة استجلاء الدّروس والعبر والعظات من معطيات هذا التّكوين العضوي. لذلك رأيت أن أستخلص لهذا المؤمن والمؤمنة هنا ما استطعت استخلاصه من تلك العبر والعظات.

العظة الأولى: مساواة في تحصيل العلم:

ألا لقد لاحظنا كيف أنّ الله جلّ شأنه قد نبّهنا من خلال قوله تعالى في الفقرة الأولى من آية سورة النّساء إلى كون التّكوين النّفسي الفطري للرّجل والمرأة هو واحدٌ وأنهما متساويان في ذلك. وعليه فإنّ المفكر المتدبّر لهذه الحقيقة يستخلص درساً وعبرةً وهو أنّ باب تحصيل العلم مفتوحٌ للجنسين وعلى قدم المساواة. وأنّ الذين يحرمون الأنثى من تحصيل العلم وبنفس القدر الذي يفتحونه أمام الولد الذّكر يعصون ربهم يقيناً، ويخلّون بمعادلة المساواة ما بين الرّجل والمرأة التي أفادتنا بها هذه الفقرة الأولى المشار إليها.

العظة الثّانية: ضرورة الالتزام بأحكام الزّواج الشّرعي:

هذا وإنّ الله عز وجلّ حين أبدع من هذه النّفس الواحدة الذّكر والأنثى وفرض نظام الزّواج منذ عهد آدم عليه السّلام. فقد فعل ذلك من أجل تحقيق هدفٍ هامٍّ وهو تهيئة وسيلةٍ لتكاثر هذه النّفس البشرية ذكورا وإناثا وللإبقاء على ما أبدعه المبدع الأعظم من إبداع. ومن أجل تحقيق المقصد من خلق الله تعالى هذا الإنسان أيضاً ولتحقيق ملاءمته مع فلسفة الابتلاء الحياتية ولامتحان هذا الإنسان ضمن نطاق ما يقوم به من أعمال.

فهذه الحقيقة تدفعنا لاستخلاص العبر والدّروس كما قلت وذلك من خلال ما أطلعنا الله جلّ شأنه عليه من خلايا تكوين النّطفة وأسرارها، وقبل اليوم بأربعة عشر قرنٍ من الزّمان. يوم لم يكن العلم قد اكتشف تلك الحقائق الخفية بشكل من الأشكال، والتي جاءت معطيات العلم الحديث مؤكدةً مصداقيتها.

فيُستخلص من ذلك أنّ من واجب المؤمنين والمؤمنات الصّادقين في إيمانهم أن يلتزموا بأحكام نظام الزّواج القرآني التزاماً كاملاً ونابعاً من يقينهم بأنّ كلّ من يشذّ في ناحيةٍ من نواحيه، يكون قد شذّ عن طريق الهُدى، ويؤول أمره أخيراً إلى حصد ما يترتب على ذلك من نتائج سلبية في حياته الدّنيا وما يلحقها في الآخرة من عقاب خصوصاً وأنّ نظام الزّواج الإسلامي هذا يُعدُّ أحد وسائل ابتلاء المؤمنين والمؤمنات في هذا المجال.

والعظة الثّالثة: كيان الأنثى العضوي مصمَّمٌ وهادف

وإنّ القارئ الذي تابع هذه المعلومات التي أوردتها له من قبل، فلابدّ أن لاحظ بأنّ تكوين الأنثى ابتداءً من كونها بويضةً، وانتهاء بصيرورتها جنيناً بعد عملية التّلقيح التي يقوم بها الحيوان المنوي. إنّ هذا التّكوين قد أبدعه الخالق لأداء مهمّاتٍ من نوع واحد. ذلك أنّ البويضة كُوّنت أوّلا بحجمٍ أكبر من حجم الحيوان المنويّ بأربعين مرة. وقد مُلئت هذه البويضة بغذاء يكفي لمساعدة وتغذية النّطفة الملقّحة لمدة أسبوع من الزّمان. وذلك حدث لتمكينها من بلوغ جدار الرّحم والالتصاق به.

هذا وإنّ رحم الأنثى قد صمم ثانياً ليساعدَ هذه النّطفة الملقحة على النّمو داخله ولتتكوّن جنيناً في رعايته. وقد أبدع الله تعالى أثداء الأنثى لترضع هذا الجنين بعد ولادته لمدة عامين من حليبها الذي أثبت العلم الحديث كون حليب الأم أصلح ما يكون لهذا المولود الذي تحمله في رحمها.

ومن جهةٍ ثالثة فقد أبدع الله جلّ شأنه هذا المولود على صورة يحتاج معها إلى رعاية أمه سنوات عديدةٍ ليبلغ سنّ الرّشد. ولم يبدعه خالقه غريزياً يقلّد حركات والديه بعد الولادة بساعات أو بأيام معدودات. بل يظلّ بحاجة إلى رعاية والديه سنوات كثيرة.

فمن خلال هذه الملاحظات الثّلاثة التي ذكرناها نستخلص من معطياتها موعظةً هامةً وهي أنّ الله عز وجلّ قد صمم كيان الأنثى العضوي ليصلح للقيام بأداء دور الحاضنة المربية بشكلٍ رئيسي. وأنّه لم يصممهُ ويبدعه لأداء ما أوكله من مهام للذّكور. فهذا التّكوين يُعدُّ في نظر الباحث المفكّر مؤشّراً ودلالةً هامةً على وجود تقسيم للمهام الموكلة لكل من الرّجل والمرأة. والذي أراه هو أنّ هذه الحقائق وهذا الفهم هو الذي دفع سيّد المرسلين ﷺ ليخاطب الأبناء قائلاً [الجنة تحت أقدام الأمهات].

وعليه فإنّ المؤمنة التي تعي ما ذكرته لها وما استخلصته لها من عظاتٍ وحكمٍ من خلال تكوينها العضويّ الذي هو عليه. كان من واجب هذه المؤمنة أن تعي مهمتها الأساسية في هذه الحياة الدّنيا، وأن تندفع لتحقيق هذه المهمة الشّاقة التي يرتبط بها تقدّم الأمة وسيادتها في العالم أجمع، وأن تندفع في ذلك وهي واعيةً لفلسفة الابتلاء الحياتية ولكي يرضى الله عز وجلّ عنها ويرعاها ويفتح لها أبواب قربه مادامت واعيةً لهذه الأمانة وتؤديها حقّ أدائها وغير عابئةٍ بما يترتب عليها في سبيل ذلك من متاعب ومشاق وتضحيات. ومن منطلق أنّ باب جنّةٍ مفتوح أمام المرأة على مصراعيه ما دامت قد واظبت على واجباتها بغير كللٍ ولا مللٍ. وإلاّ تفقد بركات ذلك عند كلّ خطوةٍ تخطوها وهي مخالفة لهذه المعطيات.

العظة الرّابعة: ضرورة إخلاص الزّوجة لزوجها

واعلم يا عزيزي القارئ بأنّ البحث العلميّ دلّ على أنّ بويضة الأنثى، ما إن يسبق حيوانٌ منويٌّ إلى ملامسة تاجها المشعّ. إلاّ وتتراجع بقية الحيوانات المنوية عنها وتأخذ بالهلاك هناك. وأنّ تلك البويضة تستقبل ذاك الحيوان المنويّ السّعيد، ولا تعود تستقبل سواه. وتُخلص له هذه البويضة بعد النّكاح إلى آخر مدى. بمعنى أنّ في هذا الإبداع وهذا التّكوين الفطريّ موعظةً موجهةً إلى هذه الفتاة التي تعمل على فريضة الزّواج الشّرعيّ وعلى عقد نكاحها على من ترضى به، أن تسلُك نفس السّلوك الفطريّ المغروس في تكوينها الفطريّ وهو أن تُخلص لزوجها مدى الحياة فلا تبدر عنها أيةُ بادرةِ خيانةٍ زوجية وهي معتقدةٌ بأنّ سلوكها هذا يوافق مقتضيات فطرتها ومن باب أنّ تعاليم الإسلام وردت موافقةً لمعطيات هذه الفطرة البشريّة التي فطر الله جلّ شأنه النّاس كافّة عليها. وأمّا الفتاة التي لا تلتزم بمعطيات هذه الفطرة وتخون زوجها في الخفاء، فلتعلم بأنّ ربّها لا يخفى عليه سلوكها هذا، ولابدّ أن تجني نتائج معصيتها لخالقها وبارئها يقينا. ومن باب أنّه تعالى كان قد حذّر وقال بأنّه كان علينا رقيبا.

العظة الخامسة: ضرورة إخلاص الزّوج لزوجته

وبالإضافة إلى ذلك كلّه فإنّ الحيوانات المنوية الباقية مادامت لم تعد تحاول ملامسة البويضة، فإنّ هذه الحقيقة تعطي الذّكور هم أيضاً درساً وموعظة فطريةً وهو أنّ من واجب كل واحدٍ منهم ألا يحاول

التّحرّش بهذه الفتاة التي عقد نكاحها على واحد منهم بعد النّكاح أبداً وإلاّ يخالفون معطيات فطرتهم العضوية من جهة ويعصون أوامر ربهم من جهة أخرى.

العظة السّادسة: حرّية اختيار الزّوج أو الزّوجة

وإنّ أهمّ موعظةٍ تعظنا بها عملية التّلقيح التي شرحناها، هو أنّ الله الخالق منح الفتاة حريّة رفض أو قبول من يتقدّم لخطبتها. فلو لم تفرز بويضة الأنثى السّائل اللّزج لتساعد الحيوان المنوي الذي أقبل لتلقيحها، فما كانت لتنجح عملية دخوله فيها ولا أن تنجح باقي الخطوات التي أتينا على ذكرها.

وبألفاظ أخرى أقول: إنّ الزّواج النّاجح في خطواته الأولى يعتمد على موافقة طرفي عقد النّكاح. وأنّ كلّ إكراهٍ للفتاة أو للفتى على قبول من لا يرضيانه يخالف معطيات الفطرة العضوية البشريّة ويخالف في حقيقة أمره مشيئة الله عز وجلّ، وبالتّالي فلن يُكتب له النّجاح المطلوب. وإنّ الأطراف التي تُكره هذين الطّرفين على ذلك يرتكبان هما أيضاً معصية الله ومخالفة تعاليم دينه الحنيف.

وبتقديم هذه الموعظة والعبرة السّادسة الأخيرة أكون قد انتهيت من الفصل الثّاني الذي خصصته لتثقيف الجنسين ثقافةً جنسيةً بما يتعلّق بنطفة الإنسان.

الفصل الرّابع:

تخلّق الجنين في بطن أمه

هذا وإنّ خطّة الفقرة الثّانية ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ تقتضي هي أيضاً أن نشرح لهذه الأنثى التي عقد نكاحها وعادت زوجةً شرعيّة، أن نشرح لها ماذا يجري في رحمها بعد عملية النّكاح وملامسة زوجها إيّاها. ولتكون على بيّنةٍ من أمرها فلا تتصرف بما يُلحق الضّرر بجنينها. شرط أن نورد شرحنا المذكور بأسلوبٍ علميٍّ مستند إلى معطيات العلم الحديث. وقد خصصت هذا الفصل الثّالث من الباب الأول ليحوي هذه المعلومات.

فاعلم يا عزيزي القارئ المؤمن بالقرآن المجيد وانطلاقاً من خصائصه المعجزة التي تميّز بها على الكتب المعروفة، فإنّ الله عز وجلّ قد خصص الآيات (12 ـ 14) من سورة (المؤمنون) ليدلّنا من خلال مضامينها على تلك المراحل التي تمرُّ منها النّطفة الأمشاج الملقّحة كما أتى القرآن في العديد من آيات سورة الحجّ وغيرها من السّور على شرح ما أورده من معارف مجملة في الآيات من سورة (المؤمنون) والتي قال الله تعالى فيها وهو يُجمل مدارج تكوّن تلك النّطفة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً

فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾.

هذا وإننا إذا ألقينا نظرة عابرةً على هذه الآيات الكريمة نلاحظ بأنّ الله تعالى قد أورد خلالها الحرف (ثم) ثلاث مرات. ومن ثم أورد حرف (الفاء) ثلاث مرّات أيضاً، ومن ثم عاد فأورد حرف (ثم) للمرة الرّابعة والأخيرة. فماذا يخفي ذلك من دلالات؟

فمعطيات العلم الحديث تفيدنا بما يتعلّق بمضامين هذه الآيات الكريمة هو أنّ الله تعالى استعمل أحرف (ثم) الثّلاثة الأولى بمعنى العطف والتّرتيب. لكنّه جلّ شانه استعمل حرف (ثم) الأخيرة ليفيد معنى التّرقّي وهي الحقيقة التي سآتي على بيانها فيما بعد واستناداً إلى معطيات العلم الحديث. أمّا ما يتعلق بالفاءات الثّلاثة، فقد أوردها جلّ شأنه عاطفاتٍ ولإفادة ترتيب تلك الإبداعات التي تضمّنتها تلك الآيات.

فهذه ملاحظة عابرة كان لابدّ من بيانها قبل شرح كلمات (علقة، مضغة، وقرارٍ مكين). هذه الكلمات الدّالة على ما يجري في رحم المرأة من تطوراتٍ تطرأ على البيضة الملقحة. لذلك أبدأ بشرح دلالة كلمة (رحم) بادئ ذي بدء لعلاقته بهذه التّطورات المشار إليها.

. مفهوم الرّحم ومكوناته:

ألا إنّ كلمة (رحم) اشتُقّت من قولك رحم فلان فلانا ومعناه أنّه رقّ له وغفر وتعطّف. وبناء عليه فإنّ الله عز وجلّ يكون قد أورد هذه الكلمة (الرّحم) بهذه الدّلالات التي تُجلّي كون الله رحيماً. ومن باب

أنّ الله تعالى قد أبدع الرّحم ليؤوي إليه البويضة الملقّحة. فالله تعالى قد جبل هذا العضو على ما لم يجبل على غيره من أعضاء الجسد هذا القدر من صفة الله (الرّحيم).

فالمعلوم في علم الطّبّ هو أن جسم الإنسان وكل عضو من أعضائه يعسر عليه أن يتقبّل شيئاً غريباً عنه. فالذين يزرعون لشخص كليةً على سبيل المثال، كثيراً ما يرفضها جهاز البول عند هذا الشّخص. أمّا (الرّحم) فلا يعامل البويضة الملقّحة بالرّفض، بل يستقبلها بالتّرحاب ويؤويها ويمدّها بكل ما تحتاج إليه من رعاية وغذاء إلى أن تستكمل نموّها وتصبح جنيناً. ومن ثم فإنّ هذا الرّحم يساعد هذا الجنين على مغادرة مأواه. وعليه فبإمكاننا أن نقول بأنّ الرّحم والحال هذه قد رقّ لحال البويضة وغفر لها اختراقها حرمته وتعطّف عليها بشكلٍ أشبه بما يفعله الله عز وجلّ مع المؤمنين به حين يقول ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. التّوبة 128.

وقد عرض الله عز وجلّ هذه المهمّة العظيمة التي يقوم بها الرّحم عرض هذه المهمّة في مجال إثباته تعالى لوجود يوم البعث الأكبر من بعد الموت. وذلك في الآية الخامسة من سورة الحجّ التي يخاطب الله تعالى فيها النّاس قاطبةً ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ

بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

أي أنّ الله جلّ شأنه يقدّم للنّاس هذه الإبداعات التي يعجز عن أدائها سواه والتي عددتها هذه الآيات الكريمة كدليلٍ متعدد العناصر ليثبت وجود يوم البعث. والذي يهمنا هنا منها قوله تعالى ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

ففعل (نُقرُّ) اشتقّه تعالى من قولك أقرّه في المكان بمعنى ثبّته وسكّنه فيه (محيط المحيط) وليُفيد من قوله هذا بأنّه جلّ شأنه أبدع رحم المرأة ليكون مأوى للبويضة الملقّحة ومكاناً تثبّت فيه وتتغذّى منه إلى أجلٍ مسمى ثم ليُخرج الله تعالى اٍيّاها بعد نموّها طفلاً.

وإنّ الذي قد تبيّن لعلماء الت ريح من تشريح الرّحم أنه عضوٌ يقع وسط حوض المرأة وعضليٌّ ولا يزيد تجويفه عند الفتاة العانس عن جزئين من أجزاء اللّيتر الواحد. مّا بعد الحمل فإنّ هذا الفراغ يزداد ليبلغ سبعة آلاف مليّلتر واحد أي يتضاعف ثلاثة آلاف مرّة بالنّسبة لحجمه الأصلي. بسبب كونه مكوناً من طبقات ثلاثة: فالطّبقة الخارجية على شكل غطاء. والطّبقة الوسطى عضليّة وذات أشكال عضلية متعددة. وأمّا الطّبقة الثّالثة الدّاخلية فهي مخاطيّة التّكوين وأشبه بفراشٍ وثيرٍ تستلقي عليه البويضة الملقّحة.

مفهوم كلمة علقة:

هذا وإنّ كلمة (علقة) التي أوردتها الآيات الكريمة المذكورة تحمل أكثر من معنى. فإن نحن اشتققناها من قولنا علق فلان بفلانة فالمعنى

هويها وأحبها. وتطلق العلقة على الدّم الجامد كما تطلق على دويبةٍ صغيرةٍ تمتصّ الدّم (محيط المحيط).

وقال صاحب (معجم المقاييس) أنّها أصل كبير صحيح ومعناها أن يُناط الشّيء بالشّيء العالي. تقول علّقت الشّيء وعلق به إذا لزمه.. والعلق معناه الهوى. ومن باب الاستعارة أن تقول: علِق دم فلان بثياب فلان إذا كان هذا قاتله. والعلاقة هي الحب اللازم للقلب فالعلوق يظهر من النّساء المحبّات لأزواجهن.

هذا وإنّ المفسرين القدماء رحمهم الله مالوا إلى أنّ المراد من كلمة علقة التي أوردتها هذه الآيات الكريمة هو الدّم الجامد. وهو معنى لا يتّفق مع ما كشف عنه العلم الحديث الذي وضّح بأنّ البويضة الملقحة تدخل رحم المرأة وتعلق بجداره الخلفيّ وتلزمه أيضاً الأمر الذي يعني أنّ الله عز وجلّ قد استعمل كلمة العلقة كنايةً عن هواية النّطفة الملقّحة بلوغ الطّبقة المخاطية للرّحم وللتّعلق بها ولترضع ما تُفرزه من أجلها تلك الطّبقة من دمٍ وغذاءٍ ضروريٍّ لنموها.

مفهوم كلمة مضغة:

إنّ هذه الكلمة متداولة على ألسنة النّاس. فأنت تقول مضغت اللّقمة جيداً بمعنى أنّك لُكتها بأسنانك إلى أن فتّتها إرباً إرباً. وقد كنّى القرآن المجيد بكلمة علقة عن تلك البويضة الملقحة التي ظلّت تنقسم من نفسها ليتضاعف عددها طوال أسبوع قضته وهي في طريقها للتّعلّق بجدار الرّحم وبحيث أصبحت كالتّوتة وقد بدت لُقمةٍ من اللّحم

مضوغـة . وإنّ هـذه العلقـة تـأخذ بـالنّمو فتظـهر عليـها كتـلٌ بدنيّـة (omites) مـا بين اليـوم العشـرين وتكتمـل نمـواً مـا بـين اليـوم الثّلاثـين والخامس والثّلاثين من عمرها، فلا تعود يومئذٍ تبدو كمضغة الطّعام بـل يبدو منها قسمها الأمامي الأنسي **Ventro Medial** والذي يشـكّل فيـها بعـد النّسيج العظمـي . كمـا يبـدو قسـمها الخلفـي الوحشـيّ ومؤلفـاً هـو بدوره من طبقتين أيضاً **Dorsolatoral** طبقة هي أساس الجلـد ومـا تحته من نسيج . وطبقة ثانية هي الأساس الذي تتشكّل منه مختلف عضـلات هيكل جسم الإنسان وهي التـي تكسـو العظـام فيمـا بعـد . ففـي التّاريخ المذكور تبدو هذه المضغة من اللّحم : قسمٌ منها مخلّقـة وقسـمٌ منـها غير مخلّقة وكما وصفها كتاب الله العزيز في الآيات من سورة الحجّ .

مفهوم في قرار مكين:

تقول مكُن الرّجل عند السّلطان بمعنـى عظُـم منزلـةً عنـده وارتفـع مكانةً، وصار ذا منزلة فهو مكين عنده . أما إذا قلت مكُن الشّيء فمعنـاه قوي ومتن ورسخ واطمأنّ فهو ماكن (محيط المحيط) . وإنّ صيغة (مكـين) على وزن فعيل هذا الوزن الـذي يـدلّ علـى التّكـرار وعلـى السّلوك وفـق الاستحقاق . وقـد أشـار حـرف (في) إلـى المكـان المخصـص لنمـو النّطفـة الملقحة وهي عضو رحم المرأة الذي كان الله عـز وجـلّ قـد أبدعـه أصـلاً لهذه الغايـة . بمعنـى أنّ البويضـة لا تنمـو ولا تعظـم ولا تتطـوّر وحسـبما خُطّط لها واستحقّته إلاّ بعد استقرارها في الرّحـم . وهـذه حقيقـةٌ علميـةٌ أثبتـت مصداقيّـتها اكتشـافات العلـم الحديـث الـذي كشـف عـن عظمـة دلالات قول ربنا عز وجلّ ﴿ فَجَعَلۡنَـٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴾ . وقـد فسّـر قـول

الله تعالى في سورة الحجّ ﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هذه الحقيقة سالفة الذّكر. وعلى هذه الصّورة فالرّحم يُعدُّ آية أخرى من آيات إبداع ربّ العالمين.

مراحل تطوّر النّطفة:

والآن وبعد أن أحطنا علماً بدلالات ألفاظ الآيات من سورة (المؤمنون) التي كُنّا قد أوردناها من قبل، وعلى ضوء معطيات العلم الحديث. فإنّي أتوجه إلى الفتاة من جديدٍ لأطلعها عمّا يجري في رحمها بعد ملامسة زوجها إيّاها وتلقيحه لبويضتها التي بلغت جدار الرّحم الخلفي بعد أسبوع من هذه العملية وقد أصبحت هناك على شكل توتةٍ، والدّماء المتخثرة الجامدة تحيط بها من كلّ جانبٍ، ولا يتجاوز حجمها ثلاثة أجزاء من مليون من اللّيتر أي أنّها لا تُرى إلاّ بواسطة أعظم المكبرات.

فهذه العلقة تبدأ تتغذّى بما يفرزه الرّحم من أجلها من غذاء، فتزداد نمواً شيئاً فشيئاً وتبدأ ينشأ منها الحبل السّرّي الذي يسمّونه عند الولادة (حبل الخلاص) فينغرسُ هذا الحبل السّرّي في الغشاء المبطّن للرّحم ولتتم تغذية هذه العلقة عن طريقه بالأغذية المناسبة وبالأكسجين اللازم وبالمواد التي تعطيها المناعة ضدّ الأمراض. وليعين هذا الحبل السّرّي العلقة على توريد أوكسيد الفحم الذي ينتج عن تفاعلاتها إلى الأم. وعلى هذه الصّورة تنقلب هذه العلقة إلى مضغةٍ في الأسبوع الرّابع من تاريخ تلقيحها وهنا تبدأ كتل الجنين البدنيّة تظهر وعلى حسب ما أسلفت بيانه وشرحه عند الكلام عن مفهوم كلمة المضغة فتبدو المضغة حينئذٍ مخلّقةً وغير مخلّقة. وبألفاظٍ أخرى فإنّ هذا الانتقال من

علقة إلى مضغة مخلّقةٍ وغير مخلّقة تعتبر آية إبداعٍ إلهيـةٍ جديـدة وعلـى شـاكلة الـذّرّة المضغوطـة التـي انفجـرت وراح يتشـكّل منـها هـذا الكـون الفسيح وحسب معطيات نظرية الانفجار العظيم.

وفي الأسبوع الخامس والسّادس تتحـول هـذه الكتـل البدنيّـة إلـى قطاعـات، فينقلـب قطاع منها إلـى قطـاعٍ عظمـيٍّ وقسمٌ منـها إلى قطـاع عضليّ. فتبدأ في الأسبوع السّادس والسّابع تكسي العضلات ما ظـهر مـن عظام. أي لا ينتصف الشّهر الثّاني إلاّ وتبدأ ملامح تكوّن جنينٍ في الرّحـم تظـهر وليصـدق بذلـك قـول ربنـا عـز وجـلّ ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾. يحـدث هـذا كلّـه في النّطفـة الملقحـة والتـي لـم يتجـاوز طولـها سـنتيمتران بعـد. علمـاً بـأني أجمـل وأختصـر مـا يحـدث ضمـن المدة المذكـورة إلـى أبعـد الحـدود. وإلاّ فـإنّ الإنسـان الـذي يُراجـع المراجع الطّبية في هذا الخصوص تتملّكه الدّهشة والعجب مـن عظمـة هـذا التّكوين الإلهيّ الذي أبدع كلّ ذلك، وبهذا الحجم المتناهي في الصّغر.

وكنت قد ذكرت في حينه بـأنّ الحيـوان المنويّ، منه حيـوان منـويّ يحمل شارة الذّكورة، ومنه حيوان منـوي يحمـل شـارة الأنوثـة. فتلـك الحقيقة تعني أنّ هذه النّطفة التي انقلبت إلى مضغة. ومن ثم إلـى عظـام يكسوها اللّحم، تكون في حقيقة أمرها ذكراً إن كان الملقح يحمـل شـارة الذّكورة أو أن تكون أنثى إن كان الملقح يحمل شارة الأنوثة. ولكن متى تنمو الأعضـاء التّناسـلية لـهذا الكـائن الجديـد؟ فـهذا يحـدث ابتـداءً مـن الشّهر الرّابع من الحمل. وتحتاج الأعضاء التّناسـلية لاكتمـال نموّهـا إلـى

المدّة المذكورة ولا تستطيع الأجهزة الطّبية المتوفرة الجزم بأنّ الجنين هو ذكر أم أنثى إلاّ في الأشهر الأخيرة من الحمل.

والذي يتبيّن أيضاً هو أنّ وجه الجنين لا يتكوّن إلاّ ما بين الأسبوع الرّابع وما بين الأسبوع الثّامن من الحمل. أي ما بين الشّهر الأول والثّاني ويتدرّج هذا التّكوين على مراحل تُدهش المتتبّعين. وحتى في الأسبوع الثّامن فإنّ ملامح هذا الجنين لا تكون واضحة بعد تمام الوضوح. ولا تكتمل معالم وجه الجنين إلاّ في الشّهر الثّالث من الحمل. وتبدأ بعد الشّهر الرّابع تتضّح ملامح جهاز الأذنين وغيرها من أجهزة جسم الجنين مما لا حاجة بنا للتّفصيل به في هذا المقام.

فإلى هنا أكون قد أعطيت هذه الفتاة لمحةً خاطفةً ومجملةً عمّا يحدث في رحمها بعد لقاء زوجها. وهذه المعلومات تفيدها في فهم دلالات قول ربنا عز وجلّ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ فالفاءات في هذه الفقرات أوتي بها للعطف ودلالة على ترتيب نمو هذا الجنين. لكنّ الله جلّ شأنه عاد بعد ذلك فأورد حرف (ثم) من جديد وقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. فحرف (ثم) هذا لم يستعمل هنا للعطف والتّرتيب وإنما استعمل لمجرّد التّرقي لقوله تعالى بعده ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بمعنى أنّ النّطفة الأمشاج تختلف عن نطفة بقيّة الكائنات الحيّة، وإن تشابهت الحيوانات مع الإنسان في تكوين أجنتها من نطفةٍ ماديةٍ تتطور في رحم أمهاتها بنفس ترتيب تطور جنين الجنس البشري. فإلى هذا المعنى قد أشار

الله عز وجلّ وذلك في الآية الثّانية من سورة الإنسان التي قال تعالى فيها:
﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.

هذا وإنّ القارئ الذي يطالع مؤلفاتي يعلم بأنّ للنّفس البشرية جذورٌ ماديّة. تكمن أصلاً في تكوين النّطفة الأمشاج. وإنّ الله عز وجلّ قد نبّه إلى حقيقة اكتمال تكوين النّفس البشرية بعد اكتمال تكوّن أعضاء الجنين واتّخاذها شكلها النّهائي ذكراً كان أم أنثى في رحم المرأة. فإثر عملية اكتمال الخلق المذكورة، يكتمل خلق قوى النّفس البشرية لكون جذور نشوء هذه القوى كامن في التّكوين المادي للجنين. وهذه الحقيقة هي التي عبّر الله عز وجلّ عنها بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾. هذا وإنّ الله جلّ شأنه قد أورد هنا فعل (أنشأناه) ومشتقٌّ من أنشأ الشّيء أحدثه فعملية الإنشاء هي في حقيقتها عمليّة إيجاد شيءٍ يكون مسبوقاً بمادّة ومدّة. ففي الكليّات: الإنشاء إخراج ما في الشّيء الموجود بالقوة إلى حيّز الفعل. (محيط المحيط).

فنطفة الإنسان الأمشاج مكوّنة من خليط من القوى ما إن اكتمل نموّها بعد تلقيحها وتطوّرها من نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلّقة وغير مخلّقة إلى عظامٍ يكسوها اللّحم وما إن يكتمل نموّ ذلك كلّه ويتّخذ الجنين شكله النّهائي ويتميّز ما بين ذكرٍ أو أنثى. فإنّ هذا الخليط من القوى الكامنة في النّطفة الأمشاج تبدأ بالنّشوء والخروج من بين حيّز القوة إلى حيّز الفعل وحينئذٍ فقط يتميّز هذا الجنين عن جنين بقيّة الكائنات الحية وينتقل من حالة الغريزية إلى حالة الكائن العاقل ذو الإرادة وحرية التّصرّف وحريّة التّفكير. فإلى هذه الحقيقة أشار الله جلّ شأنه من خلال قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾. وإلاّ فإنّ

المفسرين القدماء رحمهم الله لم يقدّموا لنا تفسيراً شافياً ووافياً لهذه الفقرة المذكورة من الآية من سورة (المؤمنون).

فالرّازي رحمه الله كتب يقول:

" قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَـٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ أي خلقاً مبايناً للخلق الأول مباينةً ما أبعدها حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم وبصيراً وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره بل كلّ عضوٍ من أعضاءه وكلّ جزءٍ من أجزائه عجائب فطرةٍ وغرائب حكمةٍ لا يحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشّارحين. ".

فالملاحظ هو أنّ الرّازي رحمه الله لم يعط حرف (ثم) الذي استُهلّت به هذه الفقرة حقّه. فلا فهمه بدلالة التّرتيب ولا فهمه بمعنى التّرقّي. فلو صحّ رأي الرّازي فيما قاله لكان ينبغي أن يُستعاض عن حرف (ثم) هنا بحرفٍ يفيد معنى الابتلاء. على حين أنّ المعنى الذي أوردته آنفاً يعطي حرف (ثم) حقّه وليفيد معنى التّرقي بمعنى أنّ اكتمال تكوين الجنين النّاشئ عن النّطفة الأمشاج يساعده على تجاوز مرحلة الغريزية والتّرقي إلى مرتبة حيوانٍ ناطقٍ ذو عقلٍ وإرادةٍ وحرية اختيار. هذه المزايا التي لا تتّصف بها الحيوانات النّاشئة عن نطفةٍ غير ذات أمشاج.

والذي يؤكد مصداقية هذا المعنى الذي ذهبت إليه هو قوله تعالى في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَـٰلِقِينَ﴾. فما هي دلالة هذه الفقرة الأخيرة؟

إنّ الملاحظ هو أنّ الله عز وجلّ استهلّ هذه الفقرة بفاء الاستئناف ليستأنف بيان الاستنتاجات المُستخلصة من عملية التّلقيح وتطوراتها

وآليات عمل هذا التّطور وأعضاءه اللازمة له والكاملة التّصميم. وقد لخّص تعالى هذه الاستنتاجات بقوله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ ومعنى تبارك الله تعالى أي أنّ الذي حقق هذه الإبداعات التي أتت هذه الآيات الكريمة على ذكرها تقدّس وتنزّه. أي استحقّ التّقديس والعبادة والطّاعة له، وتنزّه عن كلّ نقصٍ فيما يحمله من أسماء حسنى وصفات. فهذا هو معنى (تبارك الله). ولم يكتف الله جلّ شأنه بهذا الاستنتاج العلميّ المنطقيّ بل أضاف وقال ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾. فأتى بصيغة التّفضيل (أحسن) المشتقّة من قولك حسن الغلام بمعنى بدا جماله. كما أتى بكلمة الجمع (الخالقين) ومفردها خالق اسم فاعل والدّال على المبدع للشّيء والمبتكر إيّاه على غير مثالٍ سابق (محيط المحيط). وليصبح معنى ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾: أي أحسن المقدّرين وأحسن الصّانعين وأحسن المبدعين وعلى غير مثال سابق. وإنّ إقدام الله تعالى على حذف مفعول (الخالقين) أفاد لتعميم معناه على جميع أشياء هذا الكون من جمادٍ ونباتات وحيوانات وإنسان. فهذه هي دلالات هذه الفقرة التي اختتم الله جلّ شأنه بها هذه الآيات التي أوردناها من سورة (المؤمنون) والتي لخّصت للمفكرين والعلماء الباحثين جميع عناصر خلق هذا الإنسان.

وقد شاء الله عز وجلّ أن يزيد في عظمة بيان هذه الآيات الكريمة والحقائق العلمية التي استترت وراءها. فشاء تقديمها كدليلٍ قاطع على وجود يوم البعث الأكبر وذلك في سورة الحجّ فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ

أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ .

فهذا دليلٌ متعدد العناصر قدّمه الله عز وجلّ لإثبات وجود يوم البعث الأكبر. وإنّ أهم عنصرٍ من هذه العناصر هو في خلق الإنسان من تراب ومن ثم من نطفة ومن ثمّ من علقة مخلّقة وغير مخلقة. ولذلك أنهى جلّ شأنه هذا الدّليل بقوله ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أي لنوضّح لكم ما يملكه ربّكم من علمٍ وقدراتٍ تؤهله ليعيد صياغة خلقكم ويبعثكم من بعد موتكم يوم الحشر. وقد نبّه الله جلّ شأنه في أحد هذه العناصر الأقل أهمية إلى وجود رحم المرأة وإلى تكوينه على صورةٍ تؤدي مهمة تطوير هذه النّطفة فقال: ﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾. هذا الرّحم الذي يستقبل شيئاً غريباً عنه خلافاً عن بقية أعضاء جسم الإنسان. وتتجلّى أهمّية ذلك من خلال ما يؤديه من وظائف تُجلّي للباحث صفه الله الرّحيم.

وعلى هذه الصّورة أكون قد أعطيت الفتاة المؤمنة فكرةً مجملةً عمّا يجري في بطنها بعد الزّواج وألخّص لها ما يجري فيه بترتيب الشّهور: ففي الشّهور الأربعة الأولى يتمّ ما ذكرته من قبل من تفاصيل. وفي الشّهر الخامس تبدأ الحامل تشعر بحركة الجنين الذي ظهرت منابت الزّغب والشّعر عليه. ومن الشّهر السّادس ينمو الجنين أكثر من أيّة فترة مضت ويبلغ طوله 35 سم ووزنه ما يقارب الكيلو غرام. وفي الشّهر السّابع تكتمل أجزاء الجهازين العصبي والهضمي من حيث نموّها وتمتلئ طبقة الدّهون تحت جلده. أما في الشّهر الثّامن فتتّخذ

سُرّة الجنين مكانها الطّبيعيّ في جسمه ويزول الزّغب ويبرز شعر فروة رأسه. وتظهر الأظفار في نهايات أطرافه. وأمّا في الشّهر التّاسع فتبرُز أجهزة الجسم التّناسلية لذلك تستطيع الأجهزة الطّبية اكتشاف أكان هذا الجنين ذكراً أم أنثى. ويمتلئ الجسم وتنفتح جفناه بعد ذلك.

أمّا كيف تصل البويضة الملقحة إلى الرّحم. فقد ثبت من خلال التّحقيقات العلميّة وجود قناتين للرّحم وعلى كلّ جانب منه وتنتهي هذه القناة بانتفاخٍ يُعرف طبياً باسم البوق وهذا البوق يحيط بمبيض المرأة ومنتهياً بمجموعةٍ من الأهداب. فإذا أفرز المبيض البويضة تتلقّفها أهداب البوق وتوصلها إلى الثّلث الأخير منه وهناك تنتظر هذه البويضة بهدوء الحيوان المنوي ليلقحها. وبعد التّلقيح تُكمل مسيرتها إلى داخل الرّحم ويحدث ما ذكرناه.

. نصائح أهديها إلى الفتاة المؤمنة:

ألا إنّ الحقائق التي أوردتها لهذه الفتاة المؤمنة والتي كشف عنها العلم الحديث وتأييداً لمصداقية ما أورده القرآن الكريم قبل اليوم بأربعة عشر قرنٍ من الزّمان. وانطلاقاً من قول الله تعالى ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ الفرقان 59. وعلى ضوء معطيات العلم التي اختصرتها لها إلى أبعد الحدود من قبل، فأرى من واجبي أن أقدّم لها النّصائح التّالية:

أولاً - ينبغي على الذّكر والأنثى القيام بفحص دمهما في المخبر للتّأكد من عدم وجود تضادٍّ أو وجود مورّثاتٍ تحمل مالا يُحمد عقباه. وهذه العملية عادت سهلةً ولا يخشى منها بل هي في صالح الطّرفين الرّاغبين بالزّواج.

ثانياً ـ ضرورة مراجعة الطّبيب أو الطّبيبة المختصين في جميع ما يشعران به من أعراض خلال أشهر الحمل، لتوفّر الأجهزة والعلوم والأدوية في هذا المجال وخوفاً على صدور تقصيرٍ من جانب الحامل يؤذي في النّهاية هذا الجنين ويتسبب له بعاهات.

ثالثاً ـ اختلف الفقهاء القدماء في موضوع الإجهاض والفترة الزّمنية التي إن تجاوزتها الفتاة ترتكب جريمة قتل لجنينها. فبغضّ النّظر عن الكلام عن الدّواعي التي تستدعي الإجهاض. فإنّي أرى وعلى ضوء ما فهمناه من الآيات التي ذكرناها من سورة (المؤمنون) وخاصةً منها قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾. فإنّ معطيات هذا الكلام الإلهي وعلى حسب ما فهمناه بمنهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره. فإنّه يستدلّ منه على أن المدة المسموح بها للقيام بعملية الإجهاض ينبغي ألاّ تتجاوز الشّهر السّابع من الحمل وليس كما قدّره الأقدمون. فالجنين يظلّ غريزيّاً ضمن هذه المدة كباقي أجنّة الكائنات الحية. أما بعد هذا التّاريخ فيكتمل نمو جميع أعضائه وبالتّالي يُخلق خلقاً آخر مغايراً ويعود عاقلاً وذو إرادة وحرية تصرّف وتعبير. وتعود عمليّة إجهاضه عملية قتلٍ لمخلوق بشر.

رابعاً ـ وما دامت هذه الفتاة المؤمنة قد أحاطت علماً بمنزلة الرّحم من بين أعضاء جسدها، وأنّ الله تعالى يقرُّ في رحمها ما شاء إقراره فلتحافظ هذه الفتاة على كرامة خالقها، فلا تعصيه ولا تزني فإنّ نطفة الزّنا تخالف هذه المشيئة الإلهية خصوصاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾. صدق الله العظيم.

الفصل الخامس:

أيهما أفضل الذكر أم الأنثى؟

لقد تبيّن للقارئ العزيز من خلال بيّنات الفصول الثّلاثة الماضية أنّ الذّكر والأنثى متساويان نفسياً ومختلفان في أعضائهما التّناسلية وتوابعها. كما تبيّن بأنّ تكوين القوى النّفسية هي الأساس في الشّخصيّة وأنّ نفس الإنسان وتطويرها هي المقصود من بعث الأنبياء والمرسلين وإنزال تعاليم الأديان. كذلك تبيّن بأنّ الغاية من هذا الاختلاف العضويّ لدى الطّرفين هو للمساعدة على التّزاوج وللإبقاء على النّسل البشري.

فهذه الحقيقة تعني بألفاظ أخرى بأنّ المؤمن بالله وباليوم الآخر لا يفرّق ما بين أن يرزقه ربه ذكراً أو أن يرزقه أنثى. بمعنى أنّ هذه التّعاليم الإسلامية التي تضمنتها الآية الأولى من سورة النّساء قد قلبت مفاهيم الجاهليين الذين كانوا يفضّلون الذّكر على لأنثى حتى عادت إحدى عشائرهم تئد المولودة الأنثى وهي حيّة خشية العار.

هذا وإنّ هذه الحقيقة المشار إليها تُطالب الزّوجين ألاّ تنصبّ أدعيتهم على طلب الذّكر من دون الأنثى. بل أن يلتزم الزّوج والزّوجة بالتّأدّب بما أدّبهم به كتاب الله العزيز خصوصاً وأنّ الله عز وجلّ قال

منبّهاً إيّاهما في الآية (46) من سورة الكهف ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ فإن دعوا ربّهما، فليدعوا ربّهما ليرزقهما ذرّية صالحة لتكون لهما من الباقيات الصّالحات.

وعليه كان من واجبي أن ألفت نظر كل مؤمن وكل مؤمنة يسعيان للإقدام على فريضة الزّواج الشّرعي أن يحيطوا علما بما نبّههم إليه كتاب الله العزيز من آداب الزّوجيّة ومحاولة التّأدّب بها في موضوع الدّعاء بشأن كلّ مولود يدعوان من أجله ليلة اللّقاء الأولى وقبل أن أؤدّي هذه المهمة كان لابدّ من طرح أسئلةٍ والإجابة عليها إجابات عقلانيّة وموثّقةٍ بنصوصٍ قرآنيةٍ ومُقنعة.

. أسئلة حول المولود وأجوبتها:

وإنّ أول سؤال يواجهنا في هذا المجال هو أننا قدّمنا ما قدّمناه على ضوء ما كشف عنه العلم الحديث ولم نقدّم ما قدّمناه بعقلٍ تقليديٍّ وبتقليد للقدماء الذين كانوا محرومين من هذه المعطيات العلمية من جهة وكانوا لا يدرون ما هي منهجية القرآن الكريم ولا ما هي أصول تفسيره من جهةٍ أخرى. ومن المعلوم أنّ كلّ شيءٍ في هذا الكون قد استند في وجوده إلى قوانين مسنونةٍ تنظمه. وعليه فإنّ موضوع تلقيح النّطفة وموضوع تطورها ليس هو بمستثنى من هذه الحقيقة. فإن نحن دعونا ربّنا عز وجلّ أن يرزقنا أولاداً. فهل نكون قد وقعنا في تضاد مع أنفسنا؟ وفي وقت نلاحظ فيه بأنّ الله تعالى قد قال ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ ومن

باب أنّ القوانين النّاظمة لتحولات النّطفة هي التي تحدد كون المولـود ذكـراً أو أنثى؟ أم أنّ مكتشفات العلم الحديث وضّحت لنا وجـود ثُغـرةٍ لتتدخّل عن طريقها يد الغيب لتحدد ظهور الذّكر أو ظهور الأنثى؟ .

وفي الإجابة على هذا السّؤال أقول: إنّ العلم الحديث كشـف عـن وجود شيفرة معقدة مطوية ومبرمجة داخل النّطفة. فإذا استقرّت النّطفـة الأمشاج في الرّحم بدأت هذه الشّيفرة تُفـك أسـرارها المغلقـة شـيئاً فشيئاً وحسب برنامجٍ معدٍّ لتلك المرحلة. علماً بـأنّ مـن الحيوانـات المنويـة مـن يحمل إشارة الذّكـورة. ومنـها مـن يحمـل إشـارة الأنوثـة. وعليـه فـأمر تعيين هل ستحمل هذه الفتاة التي تزوجت ذكـراً أم تحمـل أنثـى فـهو أمـر تابع للقوانين النّاظمة لما ذكرناه. وهذه الحقيقة تعني بألفـاظٍ أخـرى عـدم وجود أية ثغرة لتتدخل يد الغيب عن طريقها لتحديد وفرض حمـل ذكـرٍ أو حمل أنثى. فهذا هو حال معطيات العلـم الحديـث. فـهل نتضـادّ مـع أنفسنا إذا دعونا ربّنا جلّ شأنه ليرزقنا ذكراً أو أن يرزقنا أنثـى أو إن نحـن دعوناه أمثـال هـذا الدّعـاء؟ فـهذا سـؤال وجيـهٌ وبحاجـةٍ أن نجيـب عليـه بإجابةٍ مقنعةٍ بعيدةٍ عـن العقـل التّقليـدي القـائل بـأنّ الله قـادرٌ علـى كـلّ شيءٍ ومن دون تقديـم تحليـلٍ منطقـيٍّ ومُثبـتٍ بـالنّصوص. وهـل يوجـد مؤمن بالله يشـك في واسـع قدراتـه؟ لكـنّ القـدرة شـيء وأسـلوب تنفيـذ مشيئة الله تعالى شيء آخر.

وللإجابة على السّؤال سالف الذّكر كان مـن واجبنـا أن نسـتعرض مـا أورده القـرآن المجيـد مـن أدعيـةٍ تمـت إلـى هـذا السّـؤال بصلـةٍ مـن الصّلات. ومـن ثـم نقـوم بـالتّحليل والإجابـة بإجابـةٍ علميّـةٍ نابعـةٍ مـن

معطيات أحداث هذا الكون ومعطيات هذا القرآن الكريم. فنلاحظ بأنّ الله جلّ شأنه قد ضرب لنا في هذا الصّدد مثالاً من سورة آل عمران وذلك ابتداءً من الآية (35) فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

فإن نحن تدبّرنا مضمون هذا المثال الذي اشتملت عليه هذه الآيات الكريمة، نصل إلى أنّ الله عز وجلّ قد أدّب الزّوجة المؤمنة:

أولاً: أن تعتاد على أن تنذر لله ما في بطنها لتحرره لخدمة الدِّين الحنيف.

ثانياً: وليس من الضّروري أن تتلقّى بشارةً من جانب ربها لتبشرها بقوله تعالى بأنّ ما نذرته لوجهه الكريم سيحصل بصورة عمليّة.

ثالثاً: وأن توقن هذه الدّاعية وهي تنذر ما في بطنها بأنّ ربها (سميعٌ عليم).

رابعاً: وأن تسمّي مولودها ذكراً كان أم أنثى، باسمٍ تفاؤليٍّ، تتفاءلُ من خلاله بأنّها رُزقت هذا المولود باستجابةٍ من ربها عز وجلّ.

خامساً: وأن تثابر على الدّعاء لمولودها ليعيذه ربّه وليحفظه من همزات الشّياطين.

فهذا مثال عامٌّ وشاملٌ استقيناه من آيات سورة آل عمران نُلفت من خلاله نظر كلّ مؤمنةٍ عملت على فريضة الزّواج الشّرعي أن تنهج هذا النّهج الذي اشتملت عليه هذه العناصر الخمسة سالفة الذّكر في موضوع الدّعاء لمولود. فإن هي انتهجت هذه الزّوجة هذا النّهج الذي علّمتها وأدّبتها به الآيات سالفة الذّكر، فإنّها ستحصد ثماره يقيناً. بدليل أنّ الله جلّ شأنه قد أتى بعد تلك الآيات المذكورة وليس ضمنها، أتى بفاء الاستئناف وقال ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ فأنت تقول تقبّل الله دعائي بمعنى أنّه تعالى استجاب لي هذا الدّعاء (محيط المحيط) وتقول نبتت لنا نابتة وعلى سبيل الاستعارة والمعنى أنّه وهبنا الله تعالى أولاداً صغاراً. وقد وصف الله تعالى هذا الإنبات بكونه (حسناً) لتدلّ هذه الصّيغة على معنى ثبوت استجابة الدّعاء في حقيقة الأمر.

وعليه فإنّ الله تعالى ومن خلال قوله ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يكون قد نبّه أذهاننا إلى أنه تعالى وإن كان لم يبشّر زوجة عمران باستجابته لدعائها، إلاّ أنه أثبت من حيث الواقع أنه تعالى استجاب دعاءها ورزقها ابنةً وليس إبناً على حسب ما دعت ربّها من أجله. وقد جعل الله تعالى تلك الإبنة أعظم عطاءً من جانب ربّها من الذّكر الذي دعته من أجل أن يعطيها إيّاه فهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي وليس الذّكر الذي دعت ربّها من أجل أن

يعطيها إيّاه ونذرته لخدمة بيت الله كهذه الأنثى التي أعطاها إياها وألهمها أن تسمّيها (مريم) هذه الكلمة التي تعني فتاة ذات مقام سامي. وبالفعل فقد اتّصفت مريم بالدّأب على تقوى الله وعلى عبادته منذ نعومة أظفارها وبلغت في النّهاية مقام الصّدّيقة.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بهذا المثال الذي ذكره بحقّ دعاء زوجة عمران. بل وأتى بواو الإضافة وأضاف يقول ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. بمعنى أنّ من جملة ما منّ الله تعالى على زوجة عمران التي نذرت له ما في بطنها أنه ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ فأنت تقول كفّلت فلاناً بفلان ومعناه أنك وظّفته لإعالته وللإنفاق عليه وللقيام بمستلزماته (محيط المحيط) ويصبح المعنى أنّ الله جلّ شأنه لم يكتف بأن استجاب أدعية التي نذرت له ما في بطنها ورزقها ابنةً عابدةً وحسب بل ودفع نبيّه زكريّا ليُشرف على تربية هذه المولودة لإعالتها وللإنفاق عليها وأداء جميع احتياجاتها. بل وجعل الله عز وجلّ هذه الابنة العابدة آيةً من آيات الله تعالى الدّالة على الذي بعث زكريا نبيّا وتأويل ذلك أنّ زكريا عليه السّلام كلّما زار مريم العابدة وتفقّد أحوالها ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ فالرّزق هو كلّ ما يُنتفع به من مال أو طعام أو لباس. أي أنّ زكريّا كان يدهش لذلك الأمر فسألها ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أي من هذا الذي يُنافسني على تكفّلي إيّاك؟ فأجابته: بأنّ الله ربه هو الذي يُلهم هذا وذاك ليأتوا لها بتلك الأشياء. وأتت بحرف التّأكيد (إنّ) وأضافت تقول بيقينٍ كاملٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾ وكأنها قالت بألفاظٍ أخرى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

وبعد أن قدّم الله عز وجلّ هذا المثال الأول الذي أتينا على ذكره لهذه الفتاة المؤمنة التي أتمّت فريضة الزّواج الشّرعيّ. فقد راح يقدّم لها مثالاً ثانياً ومن نوع آخر. وذلك بعد هذه الآيات مباشرةً. حيث أتى بكلمة (هنالك) هذه الكلمة التي تفيد معنى عندئذ وقال جلّ شأنه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾. أي أنّ حال مريم عليها السّلام من تقوى الله واليقين بوجوده وبقدراته كان مؤثراً في نفس النّبي زكريّا إلى درجةٍ دفعته ليدعو ربه عز وجلّ من أجل أن يرزقه (ذريّةً طيّبةً) وبيقينٍ كاملٍ مدعّمٍ بحرف التّوكيد (إنّ) قال زكريّا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي ها أنّ زوجة عمران تضرّعت بين يديك لترزقها ولداً نذرته من أجلك يا ربّي فاستجبت لها دعاءها بصورة عملية شهدت على مصداقيّة ذلك هذه الأنثى العابدة الزّاهدة المتبتلة التي رزقتها إيّاها. وإنّي بدوري عدت متيقّناً بصورةٍ لا يتطرّق إليها الشّكّ بأنّك إذا قضيت أمراً فأنت فعّالٌ لما تريد لذلك أدعوك ربّي أن هب لي من لدنك ذريّةً طيّبة أي ذريّةً حلالاً أعيذها بك من الشّيطان الرّجيم كيلا تكون ذريّةً خبيثة. وهكذا كان مضمون دعاء زكريّا هو نفس مضمون دعاء زوجة عمران تقريباً.

وقد شاء الله عز وجلّ أن ينبهنا من خلال هذا المثال الثّاني إلى الفارق ما بين دعاء الإنسان العاديّ وما بين دعاء الإنسان المقرّب من الله عز وجلّ من حيث الاستجابة أو عدم الاستجابة للدّعاء. فليس

بضروريٍّ أن يتلقّى المؤمن العاديّ جواب دعائه على حين أنّ الله عز وجلّ يجيب المقرّبين منه بطرق الكلام الإلهي المعهودة. لذلك نلاحظ كيف أنّ الله تعالى أتى بعد الآية التي أوردناها بفاء الاستئناف وقال بحقّ نبيه زكريّا: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾.

فإن نحن تدبّرنا هذا المثال الثّاني تتبيّن لنا من خلاله الأمور التّالية:

أولاً - أنّ زكريّا عليه السّلام دعا ربّه أن يهبه ذريّةً طيّبةً متحليةً بفضائل الأخلاق وبعيدةً عن الرّذائل وقبائح الأعمال. وبذلك يكون الله عز وجلّ قد دلّنا ومن خلال هذا المثال الثّاني على نوعية الأبناء التي ينبغي أن ندعوه سبحانه وتعالى من أجل أن يرزقنا إيّاها. وهي موعظة وردت موجّهةً إلى الفتاة المؤمنة الزّوجة خاصّةً وعلى شاكلة الموعظة الأولى.

ثانياً - وأنّ الله عز وجلّ قد أشار على نبيّه زكريّا باسم المولود الذّكر الذي سيرزقه إيّاه وليسمّيه باسم يحيى. وبذلك يكون الله تعالى قد نبّه أذهاننا إلى أنّ اسم المولود قد يرد إلهاميّاً أيضاً ويحمل مفهوم ما قُدّر له في حياته. وأنّ الاستجابة تأتي وفق المشيئة الإلهيّة العامّة التي تسيّر هذا

الكون اللانهائي. ومنها أنّ يحيى عليه السّلام قد جعله ربّه إرهاصاً لبعثة المسيح ابن مريم عليهما السّلام.

ثالثاً ـ والذي يُستدلُّ من هذه الآيات الكريمة هو أنّ زكريا عليه السّلام قد دعا ربه ليرزقه ذريّةً طيبة. ولم يخصّص دعاءه هذا بزوجته العاقر التي لم تنجب له أولاداً. أي أنّ زكريّا تأدّب مع ربهّ عز وجلّ ولم يخصّص دعاءه بجهة معيّنة وخلافاً لمشيئة ربّه عز وجلّ. وقد حظي تأدّبه المذكور عند ربّه بالقبول الحسن ونتيجةً لذلك التّأدّب المشار إليه. وهنا استغلّ زكريّا بشارة ربّه التي بشّرته بها ملائكة الله عز وجلّ بيحيى. فعاد وتأدّب مرّة ثانية وبأسلوب التّوريّة ناجى ربّه وقال ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ فورد دعاؤه على سبيل الاستفسار والتّأدّب أيضاً وليس بطلب أن تلد زوجته العاقر ولداً. فلاقى هذا التّأدّب الجديد الذي يتحلّى به جميع أنبياء الله تعالى بالقبول والرّضى وليثبت تعالى لنبيّه أنّ ربه فعّالٌ لما يريد أجابه وقال ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي وكما أنّي بشّرتك بيحيى واستجبت دعاءك، فأنا سأرزقك من هذه العاقر ولداً وليس من زوجة جديدة لتعلم وتوقن بأنّ ربّك يفعل ما يشاء في مملكته الأرضية ويفعل ما يشاء في الأرحام ويفعل ما يشاء في كلّ شيءٍ من الأشياء وفي جميع المجالات. وعليه فهذه الدّلالات جميعها أشار إليها حذف مضاف ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

رابعاً ـ وإنّ زكريّا عليه السّلام عندما قال بعد ذلك ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ فلم يُطالب زكريّا ربه جلّ شأنه بعلامةٍ دالّةٍ على

ما بشّره به ربّه عز وجلّ. ذلك أنّ لكلمة الآية أكثر من معنى فهي تعني العلامة كما تعني العبرة وتعني الأمارة أيضاً وبهذا المعنى الأخير ورد طلب زكريّا عليه السّلام. فزكريّا فهم أنّ توجّه الله تعالى نحو أي عبدٍ من عباده يحدث بسبب ملازمة هذا العبد لتقوى الله تعالى وعبادته بإخلاصٍ تام. وإنّ هذا الإنعام الذي بشّره به ربه يستلزم منه الإكثار من تقواه وعبادته. فتضرّع إلى ربه عز وجلّ أن يُلهمه ما هو واجب عليه في تلك الأيام استعجالاً لتلقّي ما بشّره به ربه عز وجلّ.

فلم يقف زكريّا موقف الذي يتلقّى بشارةً من ربّه فيفرح بها ويتفاخر وينسى ما يستلزمه تحقق تلك البشارات من واجبات ومن باب أنّ الله عز وجلّ هو غنيٌّ عن العالمين وقد لاقى موقف زكريّا هذا الدّال على مدى معرفته لله عز وجلّ، أقول لاقى القبول فأجابه ربّه وقال ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾. والذي يتبيّن للمتدبّر أنّ في هذه الآية الكريمة طلبات ثلاثة:

الطّلب الأول أن يقلل زكريا من الكلام مع سواه، فلا يتكلّم إلاّ بالإشارة أو بالإماء بيده أو برأسه أو بشفتيه. وهو معنى كلمة رمزاً (محيط المحيط).

والطّلب الثّاني هو أنّ الله عز وجلّ قد حثّ نبيّه زكريا ليغتنم قلّة الكلام هذه ليذكر الله ربه كثيراً. ومن باب أنّ كثرة الذّكر الإلهي يجذب

الله تعالى نحو عبده فيعجّل بما بشّره به ووفق قوله تعالى في كتابه العزيز ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾.

والطّلب الثّالث يتبيّن من خلال ما أشار الله عز وجلّ به على نبيه زكريّا أن يُسبّحه ﴿ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ بمعنى أنّ أوقات الزّوال تقتضي من العبد العابد الإكثار فيه من ذكر الله الدّال على تنزيهه ربّه عز وجلّ. أي أنّ يكرر أسماء الله تعالى الدّالة على تنزيهه جلّ شأنه. وعلى هذه الصّورة يكون تعالى قد أنهى الحقائق التي تضمّنها هذا المثال الثّاني الذي أتينا على ذكره.

. الآداب الضّرورية عند الدّعاء:

وعليه ومن خلال هذه الآيات الكريمة التي تضمّنت هذا المثال الثّاني، يكون الله عز وجلّ قد أدّب الزّوج والزّوجة معاً بآداب أخرى إضافة إلى الآداب التي تضمّنا المثال الأول، وهذه الآداب الجديدة اختصرها للمؤمن وللمؤمنة فيما يلي:

أولاً: وجّهنا ربنا عز وجلّ من خلال هذا المثال الثّاني إلى أنّ من واجب المؤمن والمؤمنة حين يتوجّها للدّعاء لأمر من الأمور، أن يعمّموه وليشمل جميع المؤمنين وليس أن يخصّصوه بالنّاحية التي يدعون من أجلها. فزكريّا عليه السّلام دعا وقال ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ ولم يدع ربه ليهبه ذكراً أو أنثى. فدعاؤه يتّصف بالشّمولية. ولم يخصص هذه الذّريّة بطلب ذكر أو أنثى وأن تكون من صلب زوجته العاقر. فهذا تأدبٌ مع الله عز وجلّ ينبغي مراعاته عند الدّعاء.

ثانياً: كذلك إذا دعا المؤمن أو المؤمنة ربّهما ليرزقهما أولاداً، فليكن دعاؤهما أن يقرنوا هذه المطالبة بالصّفة التي حثّت تعاليم القرآن المجيد على الاتّصاف بها وهي أن يبتعد هذا الإنسان عن الرّذائل وأن يتخلّق بالأخلاق الفاضلة. وهي الموعظة التي تضمّنها دعاء ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾.

ثالثاً: والموعظة الثّالثة التي أدّبنا بها دعاء زوجة عمران هو أنّ المؤمنين الذين يرزقهم ربّهم أولاداً بعد دعاءٍ طويلٍ ومن دون أن يتلقّوا بشارةً من جانب ربّهم بشأنهم. ينبغي عليهم أن يضعوا من جانبهم إسماً لهذا المولود وأن يحمل هذا الاسم معنىً متفائلاً. فزوجة عمران سمّت مولودتها (مريم) وتعني ذات المقام السّامي ومتفائلةً أن تبلغ مقاما عليّا.

رابعاً: أمّا إذا بشّر الله عز وجلّ هذا العبد المؤمن باسم المولود الذي سيرزقه إيّاه. فإنّ هذا الاسم يحمل معنىً معيّناً، ومن واجب الوالدين أن يدأبا على تربية هذا المولود بما يساعد على تحقيق المعنى الذي يحمله الاسم المشار إليه. فزكريّا بشّره ربّه بيحيى. وإنّ هذا الاسم في الوقت الذي يحمل بشارةً بأنّ هذا المولود سيتجاوز في بقاءه سنّ الرّشد. إلاّ أنه يحمل إشارةً أخرى تشير إلى ما حدث للنّبي يحيى في حياته من أنّه قُتل فيما بعد وذلك بعد أن أعلن عن أنّ الله ربّه قد جعله إرهاصاً لظهور المسيح النّاصري عليه السّلام. وإشارةً إلى أنه وبعد الاستشهاد سيظلّ حياً ومن المقرّبين. لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾. لذلك وإن

تآمر اليـهود علـى يحيـى عليـه السّلام وقتلـوه، فمـا حمـل عملـهم ذاك علامة على كذبه في نبوّته لكونه كان مجرّد إرهـاص لظـهور المسيـح ابـن مريم عليه السّلام.

خامساً: هذا وإنّ الله عز وجلّ حين ردّ على طلب نبيّه زكريّا الذي دعا به وقـال ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، فقـد ردّ الله عـز وجـلّ عليـه وقـال ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾. فإنّ في طلب زكريّا وما أجاب به ربّه عليه موعظة وهي حثّ المؤمنين الذين يتلقّون بشارةً من البشارات مـن جـانب ربّهـم ألاّ يفرحوا بتلك البشاراة وألاّ يعتقدوا بأنّه قدرٌ محتوم. بل إنّ مـن واجبهم الدّأب بعدها على الإكثار من الدّعـاء ليحقّقـها ربّـهم لـهم. أمـا إذا ظنّوا وكأنّها قدرٌ لابدّ أن يقـع لمجـرّد تلقّـي هـذه البشـارات مـن جـانب ربّهم عز وجلّ. فـهم يُخطئـون خطـأً فاحشـاً. فكثيـراً مـا يبشّـر الله جـلّ شأنه ببشارةٍ ويكون قصده حثّ هذا العبد على العمل بنفس اتّجاه دلالـة تلك البشارة، وإلاّ يبطل مفعول تلك البشـارة. فـهذه الحقيقـة نابعـةٌ مـن كون العبد محتاجاً إلى ربه عز وجلّ على حين أنّ الله جلّ شأنه هو غنـيٌّ عن العالمين. فإلى هذه الحقيقة أشار طلب زكريّا من ربه ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾. وإنّ هذا التّأدّب قد نبّه إليه أيضاً دعاء إبراهيم عليه السّلام حـين دعا ربّه وقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ سورة إبراهيم الآية 39.

فإلى هنا أكون قد قدّمت للمؤمنين مثالين تضمّنتهما آيات هذا القرآن المجيد. وتعلّمنا من خلال هذين المثالين أنّ هناك إمكانيّة أن ندعو ربنا عز وجلّ وإمكانية أن يستجيب لنا أدعيتنا بشأن أن يرزقنا ما يشاء من أولاد. وتعلّمنا طرق التّأدّب مع الله عز وجلّ حين نقوم بالدّعاء.

أقول: فما دام القرآن الكريم قد فتح هذا الباب على مصراعيه وفي وقتٍ لاحظنا فيه بأنّ العلم قد سدّ هذا الباب. نعود إلى السّؤال الذي طرحناه في بداية هذا الفصل وهو هل أننا نتناقض بذلك مع أنفسنا، ولا نكون أصحاب عقلٍ علميٍّ إن نحن دعونا ربّنا ليرزقنا أولاداً؟ وأنّ القضيّة قضيّة إنجاب الأولاد مرتبطة أصلا بحال الرّجل والمرأة من الوجهة الصّحيّة وحسب؟؟ وأنّ العلاج الطّبّي هو وحده الأداة التي تفصل في هذا الموضوع؟.

فمن حيث المنطلق فإن الآي من سورة لقمان والتي أنهى جلّ شأنه سورة لقمان بها وقال تعالى هناك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡأَرۡحَامِ وَمَا تَدۡرِى نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدًا وَمَا تَدۡرِى نَفۡسُۢ بِأَىِّ أَرۡضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾.

فمن حيث المنطلق فإنّ الله عز وجلّ حين أنهى هذه الآية الكريمة بقوله المؤكّد بحرف التّأكيد (إنّ) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ يكون الله جلّ شأنه قد أوجب علينا نحن المؤمنون بالله وبقدراته أن ننطلق في أدعيتنا المشار إليها من منطلق أنّ الله الذي آمنّا به ونقوم بعبادته هو (عليم) هذه الصّفة الواردة بصيغة الاستغراق وهو (خبيرٌ) أيضاً. لذلك كان علينا أن

نوقن كذلك بمصداقية قوله تعالى ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾. بل وأن نوقن بمصداقية قول ربنا عز وجلّ في الآيات الأوائل من سورة آل عمران وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهذا هو منطلقنا الإيمانيّ. أمّا كيف نرفع هذا التّناقض الظّاهريّ ما بين معطيات العلم وما بين معطيات تعاليم هذا الدِّين الحنيف، فالأمر مرتبطٌ بعقيدة وموضوع القضاء والقدر الذي وضّحته في مؤلّف (القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة) وإنّ كلّ مؤمن ومؤمنةٍ طالعت المؤلّف المذكور فقد عاد بإمكانهما الإجابة على السّؤال الذي طرحناه آنفاً.

ألا إنّ لكلّ إنسان ينظر إلى هذا الكون على أنّه مادّة وحسب وأنه تسيّره قوانين طبيعيّة. وأنّ كلّ ما يحدث فيه إنّما يدور في هذا الإطار. فإنّ هذا الإنسان يعيش بعقليّة علماء القرن التّاسع عشر الذين طرحوا هذا الطّرح وعلى قدر ما أوتوه من علم. فأولئك لم يعتقدوا بوجود خالقٍ لهذا الكون ولا اعتقدوا بأنّ هذا الكون مخلوق. وها أني كنت وضّحت للأخوة المؤمنين في مؤلّفي (النّظرية القرآنية الكونية حول خلق العالم) كيف أنّ أصحاب نظرية (الانفجار العظيم) الغربيين قد اعترفوا من خلال نظريّتهم هذه بأنّ العالم مخلوق. وأنّ خلق الله تعالى هذا العالم قد حدث قبل (12 ـ 20) مليار من الأعوام تقريباً وأنّ خلق هذا العالم قد حدث بأسلوبٍ مدهشٍ للغاية ومن خلال ذرّة ماديّة مشكّلةٍ ومضغوطةٍ على صورة انفجرت معها وشكّلت جميع ما في هذا الكون من سيارات وكواكب ومخلوقات. وهذه الحقيقة تشبه ما اكتشفه العلم

بشأن نطفة الإنسان الأمشاج التي تشمل على حيوانات منوية هي من الصّغر بنفس صغر الذّرّة التي كانت مضغوطة وفجّرها خالقها وشكّل منها هذا الكون الفسيح. وإنّ هذه الحقائق العلمية أثبتت من حيث تريد أو لا تريد، أثبتت وجود هذا الإله الذي آمنّا بوجوده وعلى أنّ له الأسماء الحسنى التي أتى على ذكرها القرآن المجيد. لذلك فنحن كمؤمنين لا نستغرب ما أوردنا من أقوال ربنا عز وجلّ وهو أنه تعالى ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ من جهة وأنه ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ من جهة أخرى. بمعنى أنّ مُنطلقنا الإيماني هذا هو الذي يلعب دوره الأساسيّ فيحلّ هذا السّؤال المطروح. فلسنا أصحاب عقلية فكر ماديّ محض لننآى بأنفسنا عن وسيلة الدّعاء التي أطلعنا القرآن المجيد على مثالين متعلقين بها وأتيت على ذكرهما ويشهدان على مصداقية استجابة الله تعالى الأدعية إن هي صدرت عن المؤمنين الأتقياء والصّادقين لابدّ وأن تُستجاب إمّا ببشارات وإمّا بصورة عمليّة.

. الدّعاء لإنجاب الأولاد وعلاقته بالأقدار الخاصة

فنحن يا عزيزي القارئ ننطلق إذن في عمليّة رفع موضوع هذا التّناقض الظّاهري الحادث ما بين معطيات تعاليم الدِّين الإسلامي وما بين معطيات العلم الحديث، أقول ننطلق من منطق إيمانيٍّ أشرنا إليه. وإنّ هذه الحقيقة تتطلّب منّي إلقاء المزيد من الضّوء في هذا المجال. ومن باب أنّ الذين يبحثون في الأشياء المادية وحدها وبمعادلة مادّية وحسب يختلفون عنّا نحن المؤمنون الذين نفكّر بمعادلة روحيّة لا نُسقط وجود الله تعالى منها خصوصا وقد أطلعنا الله عز وجلّ على حقائق روحية

أنّى لعلماء المادّة الذين لا يضعـون في معـادلات تفكـيرهم عقيـدة وجـود الله تعالى أن يصلوا إلى المستوى الفكريّ الذي وصلنا إليه فـهم في نظرنـا يُعتبرون مـن العلمـاء المتخلّفـين عـن هـذا الرّكـب الإيمـاني وعـن حقائقـه الثّابتة.

فنحن بتنا مُطلعين على نظرية (الانفجار العظيم) هذه النّظريّة التي باتت تتـأكّد مصداقيتـها كـلّ فجر يـوم جديـد يـأتي علـى علمـاء أوروبـة أنفسهم. هذه النّظرية التي خالفوا من خـلال معطياتـها أفكـار أسـلافهم من علماء القرن التّاسع عشر وأمسوا موقنين بـأنّ هـذا العـالم المـاديّ هـو عالم مخلوق. ولا يفكّرون أنّه ما دام هذا الكون المادّي مخلوق، فلابـدّ وأنّ له خالق يملك مـن القـدرات مـا مكنتـه مـن خلـق هـذا العـالم. فلـمَ يكتفي علماء الغرب بقطع شوطٍ أوصلهم إلى معرفـة وجـود خـالق هـذا الكون. ولم يحاولوا قطع شوطٍ آخر للتّأكد من مصداقيّة ما أطلعنا عليه كتاب الله العزيـز بشـأن الحقـائق المتعلقـة بالمملكـة السّماوية التـي يملكـها ويحكمها هذا الإله الذي خلق هذا الكون الماديّ وخلق الإنسان ليصبـح في يومٍ من الأيام لهذا الخـالق مـن العـابدين؟ و أ وليـس مـن العجيـب أن توصلهم نظريتّهم العلميّـة الجديـدة المشـار إليـها والمتعلّقـة بـأصل الكـون وأصل بنيته وجمالـه الأخّـاذ، أن توصلـهم هـذه النّظريـة إلـى وجـود الله تعالى ومع ذلك يظلّون يرزحون بعد ذلك تحـت وطـأة معطيـات النّظريـة الدّاروينية، ولا يبدؤون بقطع شوطٍ جديد ليوصلهم إلـى التّعـرّف علـى هذا الخالق وعلى ما له من أسماء حُسنى وعلى ما يملكه من قُدُرات؟؟

فنحن الذين آمنّا بوجود الله عز وجلّ وبوجود مملكته السّماوية وبأسمائه الحسنى وبقضائه وقدره المهيمن على هذا العالم المادي وبوسيلة الحجة والبرهان. ومن خلال معطيات ومضامين آيات هذا القرآن العظيم الذي أنزله ربنا عز وجلّ لهداية النّاس جميعاً قبل اليوم بأربعة عشر قرنٍ من الزّمان. فقد عاد من واجبنا النّظر إلى موضوع الدّعاء لإنجاب أولادٍ طيبين وصلحا من منظار ما أتانا به هذا الكتاب العزيز الذي تجاوزت حقائقه، حقائق ما كشف عنه العلم الحديث هذا الذي لا يبحث إلاّ في مجال المادة والأشياء الماديات.

لذلك أقول وباختصارٍ شديد حول موضوع القضاء والقدر وتأثير الأقدار الخاصة في موضوع الدّعاء الذي تطرّقنا لبحثه في هذا المقام:

أولاً: من المعلوم أنّ الإنسان يملك هذه الحواس الخمس المعروفة. وإنّ هذه الحواس الخمس لا تعمل إلاّ على صعيد الأشياء الماديّة. فالإنسان الذي يراقب الماء والنّار وغيرها من الأشياء المادية. تساعده حواسّه على حصر ما لكلّ شيءٍ من هذه الأشياء من خواصّ فيزيائية. فإنّ تمكّن هذا الإنسان من تحليل كلّ شيء إلى عناصره الأولية، كالماء مركبٌ من أوكسجين وهيدروجين. وبالتّجارب ينتقل لمعرفة الخواص الكيميائية لكلّ عنصر بمفرده فالقدماء من النّاس كانوا لا يملكون من العلم والوسائل ما يمكّنهم من تحليل الأشياء إلى عناصرها الأساسية لذلك كانوا ينظرون إلى ظاهر الأشياء فيذهب تفكيرهم إلى وجود أربعة عناصر فقط. أما وسائل العلوم الحديثة فقد مكّنت العلماء من اكتشاف أكثر من مائة عنصرٍ حتى الآن. فلمّا تمكنّ العلماء من تحطيم الذّرّة

الماديّة، دخلوا في عصرٍ جديدٍ يتعلّق بتكوين هذه الذّرّة الماديّة، دخلوا في عصرٍ جديدٍ يتعلّق بتكوين هذه الذّرّة الماديّة نفسها. فواجههم وجود عالمٍ جديدٍ لا يُدرك إلاّ بآثاره وبعيداً عن معرفة كُنهه وحقيقته. وإنّ هذه الحقيقة التي تبيّناها تعني بألفاظٍ أخرى وجودُ عوالمَ لا ندري ما هو عددها وتكمن في خفاءٍ لا يدري العلم مقداره حتى الآن. فكلّما أمكن إيجاد مكبّرات أضخم من سابقاتها كلّما اتّضح شكل الأشياء الأكثر خفاءً. وإلى أين ستنتهي عندها حلقات هذه السّلسلة؟ فهذا الأمر ما يزال في طور المجهول في نظر العلماء المعاصرين ومن مختلف الاختصاصات.

ثانياً: وأمّا على صعيد الذّرّات التي تشكّلت منها الكائنات الحية والمؤلّفة من الذّرة الحيّة. فالذي يبدو من ملاحظة سلوك كلّ كائنٍ حيٍّ هو أنه مبرمجٌ ليتحرّك بصورةٍ غريزيّةٍ غير عاقلةٍ إلاّ من خلال التّجارب التي تتراكم عند هذا الكائن الحيّ. وإنّ جميع هذه الكائنات الحيّة لا تملك عقلاً يُمكّنها من تغيير سلوكها، ولا تملك إرادةً بل تحيى حياة ردودِ أفعال.

ولا تملك قوة لتحلل وتناقش وتبدي رأيها الشّخصي. باستثناء هذا الإنسان الذي هو في حقيقته كائنٌ حيٌّ. لكنّه يختلف عن بقيّة ما في عالمنا من كائناتٍ حيّةٍ من حيث أنه يملك عقلاً وإرادةً وحرية وتفكيرٍ واختيار وإنّ هذه الحقيقة الماثلة تجاه أعين العلماء لم تمكّنهم من اكتشاف هل حدث هذا نتيجة تطورٍ عبر الزّمان، أم أنه ظاهرة خلقٍ مستقلٍ وتابعٍ لوجود خالقٍ خلاّق؟

ثالثاً: هذا وإنّ الشّيء الوحيد الذي أجمع عليه العلم والعلماء هو وجود سلسلةٍ من الأسباب والمسببات في كلّ شيءٍ موجود في عالمنا الدّنيويّ. وإنّ هذه الأسباب تشكّل في حقيقة أمرها حلقات سلسلةٍ أخرى غير سلسلة العوالم التي تكلّمنا عنها. وإنّ حلقات سلسلة الأسباب هذه تبدأ من المعلوم وتنتهي عند مجهولٍ وكلّما كشف العلم عن هذا المجهول اتّضحت بعده حلقاتٌ مجهولةٌ جديدةٌ ومن الدّقة والتّعقيد إلى درجةٍ يعود الكشف عن الحلقة الجديدة التي بعدها أصعب وأعسر من سابقاتها. فإلى أين ستنتهي حلقات سلسلة الأسباب هذه ومسبباتها فهذه حقيقةٌ ما تزال خافيةً عن علم العلماء المعاصرين.

رابعاً: ثم إنّ خواص الأشياء المادية ليست بخواص ذاتيّة في الأصل، بل هي خواصّ أعطاها الله الخالق إياها على سبيل التعويض على شاكلة ما يفوّض القاضي بعض صلاحياته إلى شرطة المرور على سبيل المثال، ولتوقيع عقوباتٍ بسائقي السّيارات المخالفين لأنظمة المرور. فالشّرطيّ حين ينظّم مخالفة ويوقع بالسّائق غرامة، لا يفعل ذلك من باب كونه قاضياً أصدر الحكم المشار إليه، بل ينظّم المخالفة لكون القاضي قد فوّضه بتلك المهمة. وعليه فلا يكون الشّرطيّ أصيلاً في تلك الخاصيّة، وبالإمكان الاعتراض عليه والرّجوع إلى القاضي الذي فوّضه هذا التّفويض لإعادة النّظر فيما قام به الشّرطيّ. وبنفس هذه الصّورة تعمل خواصّ الأشياء المادية في عالمنا. فالماء عندما يروي ظمأ العطشان أو يساعد على إطفاء النّار فهذه خواصٌ مفوّضةٌ إلى الماء

من جـانب الله مُبـدع هـذا الماء، وإنّ الله قـادرٌ علـى أن يسلـب هـذا الماء خواصه كلّها.

خامساً: فمـن خـلال هـذه الحقـائق التـي أتيـت علـى ذكرهـا وهـي وجود عوالم من الدّقّة بمكانٍ تشكّل حلقات سلسـلةٍ عُرفـت منـها بعـض حلقاتها وظلّت الحلقات الأخرى مجهولة حتى الآن. وأنّ البشر بالرّغم من رقيّهم العلميّ الحديـث الـذي بلغـوه في عصرنـا ويتفـاخروا بـه، فلـم يتمكّنوا حتى يومنا هذا من الجزم بأنّ كلّ كائنٍ حيٍّ قد أُبدع مـن اللّحظـة الأولـى مـن وجـوده مستقلّ الشّكل والصّفـات، ولا أنّ هـذه الكائنـات الحيّة أصبحت كذلك عبر تطوّر طويل وخلال ملايـين الأعـوام. كذلـك اعترف العلماء بوجود سلاسل من الأسباب والمسببات تمكّنوا من معرفـة وكشـف بعـض حلقاتـها، ولا يـدرون بالنّهاية التـي تنتـهي عندهـا تلـك الأسباب وبالإضافة إلى كون خـواص الأشـياء الماديّة مفوّضـة إليـها مـن جانب خالقها، وبإمكان هذا الخالق أن يسلبها إيّاها متى شاء.

إنّ هذه الحقائق التـي ذكرناهـا تُعطـي المؤمنـة والمؤمـن تصـوراً عـن حقيقة عقيدة وحدانية الله تعالى التي اعتنقها بعد أن تقبّل الإسلام دينـاً. فعقيدة التّوحيد تقتضي منّا تصوّر وجود نظام كوني روحيٍ عالميٍ مُهيمن على هذا النّظام الكوني الماديّ العالميّ. وتبـدو هـذه الهيمنـة المشـار إليـها من خلال معطيـات الحقـائق التـي أتينـا علـى ذكرهـا. فخيـوط الأسـباب والمسـببات كائنـة في قبضـة الله عـز وجـلّ يحرّكـها وفـق خطـةٍ مرسـومةٍ وقوانين تنظم كلّ شيء في هذا الوجود.

وهكذا فإن لاحظت الفتاة أو الفتى بأنّ القرآن المجيد قد أتى على ذكر مثالين من أمثلة الدّعاء لإنجاب أولادٍ صالحين، وأنّ الله عز وجلّ قد استجاب تلك الأدعية ورزق من دعاه بذاك الدّعاء. فلا ينبغي للفتى المؤمن والفتاة المؤمنة أن يفكّروا حين يؤدّيا فريضة الزّواج، ويرغبان بإنجاب أولاد صالحين فلا ينبغي أن تغيب عن أذهانهما هذه الحقائق ولا تلك الأمثلة التي قدّمتها لهم الآيات القرآنية. بل إنّ عليهما أن ينطلقا للدّعاء بين يدي خالقهما ليرزقهما أولاداً صلحا وبيقينٍ تامٍّ من أنهما لا يفعلان ذلك بشكلٍ مخالفٍ لمعطيات العلم الحديث. بل يفعلانه من باب أنّ العلم ما يزال ابتدائياً جداً على هذا الصّعيد من المعرفة التي تفضّل الخالق على المؤمنين بكشف الغطاء عنها عن طريق ما أنزله تعالى من معارف وعلومٍ في كتابه العزيز. هذا وإنّي على يقينٍ تامٍّ بما أقول ليس بناءً على ما علّمنا إيّاه كتاب الله العزيز وحسب، بل وبناءً على تجاربي الخاصّة وتجارب المؤمنين أيضاً. وهو بابٌ واسعٌ وهو بحاجةٍ إلى تخصيص مؤلّف مستقل لإحصاء تلك التّجارب التي مرّ منها أسلافنا الصّالحون ولإحصاء تجاربي الخاصّة أيضاً. فطبقة علماء الغرب لا يفكّرون إلاّ بأسلوب تفكيرٍ ماديٍّ بعيد عن معطيات الحقائق الرّوحيّة التي يكسبها الإنسان المؤمن عن طريق إيمانه بهذا الكتاب. وعلماء الغرب لا يبحثون إلاّ في الأشياء الماديّة المحسوسة. ومن منطلق أنّ عالمنا الماديّ وقوانينه الطّبيعية هي كلّ شيءٍ في هذا الوجود.

أمّا فئات المؤمنين على اختلاف أزمنتهم والذين استجابوا لصوت السّماء الذي أتاهم عن طريق أنبياء الله ورسله الكرام. إنّ هذه الفئات من

المؤمنين وإن بدت من حيث الظّاهر خاضعةً لهذه الأقدار الكونيّة العامّة المتمثّلة في الأشياء المادية وخواصّها وقوانينها الطّبيعية. إلاّ أنّها في حقيقة الأمر بإمكانها الاستفادة من التّقادير الخاصّة التي تستثنيها من سلطان المادة وملحقاتها، والدّعاء للأولاد يدخل في باب هذه الاستثناءات.

هذا وإنّي كنت قد قدّمت للقرّاء أكثر من مثالٍ في مؤلّفي (القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة) وأثبتّ من خلالها وجود الأقدار الخاصّة. وأنقل هنا على سبيل المثال القدر الخاص التي نصّت عليه الآية (51) من سورة غافر والتي قال الله جلّ شأنه فيها ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

فليلاحظ المؤمن والمؤمنة كيف أنّ الله جلّ شأنه لم يقل هنا (سننصرُ رسلنا) وحسب بل أتى تعالى بضمير الجمع (إنّا)، وليس بضمير المفرد (أنا)، وهو تعالى لا يقوم بهذا الاستبدال إلاّ في حال اتّخاذه تعالى قراراً قدريّاً والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب الله عز وجلّ. ويلاحظ أيضاً أنّه جلّ شأنه أدخل اللام على الفعل المضارع (ننصُرُ) وهي لام الابتداء التي تسمّى باللام المزحلقة التي كانت في الأصل داخلةً على حرف التّأكيد (إنّ) من قوله تعالى (إنّا) فتزحلقت إلى خبر إنّ وهو جملة (ننصرُ رسلنا) لئلاّ يجتمع مؤكّدان معاً. كما يلاحظ إيراد فعل (ننصر) بمعنى نُعيّن رسلنا وننجّيهم مما يكيد لهم أعداؤهم ونقوّيهم على أعدائهم أيضاً. ففعل ننصرُ هو أخصّ من فعل نُعين، لاختصاصه بدفع الضّرّ (محيط المحيط). وإنّ هذه الملاحظات التي أوردناها بما يتعلّق بقوله

تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قد شكّلت معنى القدر الخاصّ المتّخذ من جانب الله عز وجلّ لصالح رسله الكرام وجماعات المؤمنين. وهو يعني بألفاظٍ أخرى بأنّ الله تعالى يقوم باتّخاذ الأسباب التي تؤثّر في مجريات الأحداث ولصالح هؤلاء الرّسل ولصالح أتباعهم من المؤمنين المخلصين الحقيقيّين.

والآن فإن ألقى الإنسان نظرةً تاريخيّةً على الأحداث التي وقعت عند بعثة كلّ نبيٍ من أنبياء الله الكرام، يتبيّن له مصداقيّة هذا التّقدير الخاصّ المذكور. ففي الآية (137) من سورة آل عمران نقل لنا ربنا عز وجلّ هذه الصّورة وقال ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. هذا وإنّ مجريات أمور الدّعوة الإسلاميّة في صدر الإسلام تقف شاهداً حيّاً على وجود هذا القانون القدريّ الخاصّ. خصوصاً وأنّ الله عز وجلّ كان قد وعد رسوله محمد ﷺ وقال له ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقد عصمه من النّاس بشكل معجز ومثير للدّهشة والإعجاب. هذا وإنّ الله جلّ شأنه حين ردّ على قول نبيّه زكريّا ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ فحين أجاب تعالى عليه فقد قال له ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾. فقد أشار الله تعالى من خلال قوله هذا إلى حقيقة وجود الأقدار الكونيّة الخاصّة التي وضّحناها والتي أثبتنا مصداقيّتها بالدّلائل القاطعة من منطق تاريخ الأديان السّماويّة. وإلى نفس هذه الحقيقة فقد أشار الله تعالى في الآية السّادسة من سورة آل عمران وقال ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وعلى هذه الصّورة فقد عاد ينبغي على المؤمن والمؤمنة إذا ما عملوا على فريضة الزّواج الشّرعي أن يتوجّهوا بعد ذلك للدّعاء بين يدي ربّهم ليرزقهم أولاداً وذريّةً طيبة وموقنين بأنّ أدعيتهم هذه لن تذهب هباءً، شرط أن يتقيّدوا بالآداب التي تقيّدت بها زوجة عمران وزكريّا عليهما السّلام.

ثمّ إني سبق لي أن وضّحت بأنّ كل شيء يجري في هذا الكون، مرتبطٌ جدلياً بالأسباب والمسببات. وإنّ سلسلة الأسباب هذه منها ما كشف عنه العلم الحديث ومنها الكثير ما يزال مجهولاً. وقد دفعتنا تعاليم الإسلام إلى الاعتقاد بأنّ الله عز وجلّ هو المسبب الحقيقي للأسباب وحسبما نبّهت إليه تعاليم القضاء و القدر. وقد تبيّن للعلماء المعاصرين أنّ من الحيوانات المنويّة ما يحمل إشارة الذّكورة ومنها ما يحمل إشارة الأنوثة. وبذلك عاد من السّهل جداً على خالق ومُبدع النّطفة الأمشاج أن يخلق من الأسباب ما يساعد على تلقيح بويضة الأنثى عن طريق حيوانٍ منويٍّ يحمل أفضل الصّفات الموروثة في جيناته والتي ورثها عن آبائه الأولين. وهل يوجد من العلماء من يستطيع الكشف عن تلك الأسباب التي سيحدثها الله تعالى لإنجاب ذكر أو لإنجاب أنثى وفي وقت تكون هذه الحيوانات المنوية تعدّ بالملايين من جهة عددها، ومن الدّقة بمكانٍ بحيث لا تقاسُ معها إلاّ بأجزاء البليون جزء من أجزاء المتر المعروف؟

وعليه أقول: إنّ الفروق العقائديّة الكائنة ما بيننا كمؤمنين بتعاليم هذا الدِّين الحنيف وما بين فئات علماء الغرب الذين ما توصّلت

معرفتهم بعد إلى وجود النّظام الكوني الرّوحيّ العام المهيمن على عالمنا المادي. إنّ هذه الفروق العقائديّة من نتائجها ظنّ علماء الغرب أنّ الدّعاء لا تأثير له في موضوع إنجاب الذّريّة على حين أنّ من نتائجها عندنا أنّ الدّعاء يلعب دوراً أساسياً في موضوع إنجاب الأولاد وهي الحقيقة التي صدّقتها مختلف الوقائع والأحداث والأمثلة التي وجّهنا القرآن الكريم إليها والمعروفة تاريخيّا. هذا وإنّ المؤمنة والمؤمن اللّذان يعتمدان على الأدوية وحدها التي هي من جملة الأسباب المتوفّرة في عصرنا ولا يتوجّهان إلى الدّعاء وبآدابه التي لقّننا إيّاها كتاب الله العزيز. فإنّ هذين الزّوجين يُثبتان بصورةٍ عمليّةٍ ضعف يقينهما بوجود الله القادر على استجابة الدّعاء.

ثمّ إنّه ما دام العلم الحديث يستند إلى الملاحظة والتّجربة والاستنتاج، فماذا يمنع هذين الزّوجين من الاعتماد على الدّعاء إلى جانب الأخذ بالأسباب؟ فلربما إذا قاموا بالدّعاء واستجيب لهم دعاؤهم، تعود عليهم هذه التّجربة الإيمانية بزيادة الإيمان والتّعلّق بربهّم عز وجلّ. لذلك فإنّي ومن خلال علمي وتجاربي الخاصة أحثّ هذين الزّوجين المؤمنين أن يُبادرا إلى الدّعاء بين يدي ربهّم أن يرزقهم ذريّةً طيبةً بعد أن يعملا على فريضة نظام الزّواج الشّرعي.

الفصل السادس:

موضوع تحديد النسل وتاريخه

والآن وبعد أن رفعنا التّناقض الظّاهري ما بين معطيات العلم الحديث وما بين تعاليم الإسلام التي حثّت على الدّعاء لإنجاب ذريّة طيبة. يُواجه هذين الزّوجين سؤالٌ يطرحه بعض علماء الغرب بشأن موضوع تحديد نسل الإنسان خشية أن يبلغ تعداد البشر حدّاً يوقعهم في مشكلة عدم إمكانيّة تأمين الغذاء اللازم للإنسان في المستقبل. وينبغي أن نأخذ هذا السّؤال بجديّة تامة، ولنجيب عليه بإجابات مُدعّمة بالنّصوص القرآنية وليس بالقيل والقال. ومادام القرآن المجيد قد أنزله الله جلّ شأنه قبل اليوم بأربعة عشر قرن من الزّمان يوم لم يكن هذا السّؤال مطروحاً على السّاحة فقد كان من الأهمية بمكان أن يقوم المتدبّر بتدبّر آيات هذا القرآن العزيز الكريمة من هذا المنظار خصوصاً وأننا نعتقد بأنّ هذا القرآن العظيم موعودين بالمحافظة عليه من جانب الله تعالى ويصلح لكلّ زمانٍ ومكان.

وقبل الدّخول في بحث هذا الموضوع ومراجعة النّصوص القرآنية بشأنه كان من الضّروري لنا جميعاً أن نستعرض تاريخ نشوء موضوع ضرورة تحديد النّسل ومراحل تطوره والحلول التي يقدّمونها لهذا الغرض والأهداف التي يسعون لتحقيقها. وإننّا نعلم من خلال

منشورات هذا الموضوع أن فكرة تحديد النّسل نشأت أصلاً في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر في المجتمعات الأوروبية. مما تسبّب عن ذلك نشوء صراع ما بين أصحاب هذه الفكرة وما بين رجالات الكنائس هناك. وكان كلّما ضعف سلطان الكنائس في تلك الدّول كان كلّما قوي ساعد دعاة تحديد النّسل وتنظيمه.

والذي حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الثّانية وتشكيل هيئة الأمم أنّ هذه الهيئة الدّولية قامت بتأسيس مؤسسات عديدة لتحقيق أهداف قيامها. وكان من جملة تلك المؤسسات منظّمة الصّحة العالمية واليونسيف. وقد انصرفت هاتان المؤسستان إلى تأسيس مراكز لها في الدّول النّامية خاصّة كالهند والباكستان وغيرها من الدّول الآسيوية، وفي بعض الدّول العربية كتونس والجزائر والمغرب والعراق والأردن والكويت وسورية وجمهورية مصر العربية. والمعروف أن هذه المؤسسات حدّدت لنفسها أهدافاً ثلاثة هي:

أولاً - مساعدة الأزواج على تحديد الفاصل الزّمني ما بين كل ولادة وولادة وحسبما تتطلّبها صحّتهم ورغباتهم الجنسية وإمكانيّاتهم المادّية.

ثانياً - ومساعدة الأزواج العقيمين للسّيطرة على العقم لديهم ومساعدتهم على إنجاب أطفال طبيعيين وأصحّاء.

ثالثاً - ومساعدة الأزواج على تقوية روابط الزّوجية بينهم ولتقوم علاقاتهم الزّوجية على أساسٍ من المعرفة والتّفاهم بينهم وبأسلوبٍ علميّ.

فمن خلال ما بيّناه يتّضح بأنّ المراكز التّابعة للمنظّمتين المذكورتين تقدّم مختلف الخدمات الصّحيّة من جهة وتوجّه الأزواج لاستخدام مختلف وسائل منع الحمل المصنّعة حتى الآن للمساعدة على تحقيق الأهداف سالفة الذّكر. إلى جانب توعية النّاس حول ما ينتج عن المعاشرة الجنسية وغيرها من أمراض فتّاكة. هذا وإنّ الذي يحثّ الباحثين والمفكّرين في هذا الموضوع على الدّأب على البحث وتقديم الحلول، هو أنه وإن ابتدأ موضوع تحديد النّسل والتّوعية الجنسية بداعي أسباب معيّنة موضوعيّةٍ في أوروبة. إلاّ أنّ الظّواهر الحاليّة أكّدت أهمية هذا الموضوع بسبب ازدياد نمو عدد سكان الكرة الأرضية بشكل خطيرٍ، وبسبب هذا التّفجّر السّكّاني الذي لاحت ملامحه في الدّول الآسوية خاصّة.

فهذه هي خلاصة ما يتعلّق بموضوع تحديد النّسل الذي تتعالى أصوات الدّاعين إليه في كلّ مكانٍ في هذه الأيام. والمؤسف هو أنّ رجال الدِّين الإسلامي يقفون نفس مواقف الكنائس التي وقفوها في بداية طرح هذا الموضوع في أوروبة. ولم أطّلع حتى الآن على أيّ منهم بحث هذا الموضوع بشكل موضوعي ونابعٍ من كتاب الله عز وجلّ. وكأنّ القرآن الكريم لم يتطرّق لبحث هذا الموضوع بشكلٍ من الأشكال وفي وقت يجمعون فيه على أنّ تعاليم هذا القرآن المجيد صالحة لمعالجة جميع ما يطرأ على النّاس من مشاكل في كلّ زمان ومكان.

وعليه يواجهنا سؤالٌ عريضٌ يطرح نفسه في أيامنا هذه، ووسط مجتمعنا خاصّة كمؤمنين نقوم بمهمة تجديد تعاليم الإسلام. وهذا السّؤال الهامّ هو: هل تطرّقت تعاليم الإسلام ومضامين الآيات القرآنيّة خاصّة لبحث هذا الموضوع، موضوع تحديد النّسل؟ فإن وُجدت ملامح

هذا البحث فما هي تلك المعالم وما مدى منطقيّتها وعقلانيّتها وما مدى اتّفاقها مع معطيات العلم الحديث؟ فهذا سؤالٌ هامٌّ مطروحٌ في زماننا في هذا الزّمن الذي تتعالى فيه الأصوات مطالبةً بتحديد النّسل تحسّبا من أخطار التّفجّر السّكّاني الحادث في أكثر بقاع الأرض، لذلك كان من الواجب تدبّر معطيات آيات القرآن المجيد للإجابة على هذا السّؤال إجابةً قرآنيّةً معقولةً ومنطقيّةً وبأسلوبٍ علميّ أيضاً.

وما دمنا قد اعتقدنا بصلاحية هذا القرآن العظيم لكلّ زمانٍ ومكان، وطالعناه من أوله إلى آخره فلم نجد كلمة تحديد للنّسل ولا نجد أنّ الله تعالى قد قال إذا سئلتم عن موضوع تحديد النّسل فقولوا كذا أو افعلوا كذا. فكيف نحيط علماً بمعالم هذا الموضوع ومن ضمن هذا الكتاب العزيز؟

أقول: إنّ كلّ متدبّرٍ وفاحصٍ لخصائص هذا القرآن الكريم يصل إلى أنّ الله عز وجلّ وإن كان لا يترك موضوعاً إلاّ ويجيب عليه. إلاّ أنه تعالى يخاطب النّاس على قدر عقولهم. فمن المواضيع التي كانت عقول العرب الأميين وغيرهم تحتمل سماعها ومناقشتها أيام إنزاله إيّاه، فقد طرق تعالى تلك المواضيع بصورة مباشرة. وأمّا المواضيع التي كانت لا تتناسب مع معطيات زمان نزوله فقد تعرّض الله العزيز للإجابة عليها بصورةٍ غير مباشرة. وترك لنا أمر تدبّر آيات كتابه العزيز للكشف عن حقائقها وبمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. ومن تلك المواضيع المبحوثة في هذا القرآن العظيم وبصورةٍ غير مباشرة، موضوع تحديد النّسل الذي نسمع أصداءه في هذه الأيام. وإنّها لحقيقةٌ سأثبت وجودها ومصداقيّتها فيما سأبيّنه بعد هذا الكلام.

وقبل أن أدخل هذا الموضوع بصورةٍ مباشرةٍ قد يخطر ببال إنسان خاطرٌ سريعٌ وهو أنه سمع حتى الآن ويسمع أحاديث مرويّةً عن رسول الله ﷺ تحثّ على كثرة الإنجاب وليس على تحديد النّسل كقوله ﷺ [تكاثروا فإنّي مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة] لذلك لاحظنا إقبال شرائح كبيرة في المجتمعات الإسلاميّة على العمل على نظام تعدد الزّوجات من جهة، وتسعى لإنجاب أعداد كبيرة من الأولاد. وفي زماننا هذا بالذّات، فحيثما توجّهنا في بلاد المسلمين، نلاحظ أنّ كلّ بيتٍ من بيوتهم تعجّ بالأولاد. فلو أنّ هذا الكتاب الخالد حثّ المسلمين على تحديد نسلهم، لترك آثار تعليمه المذكور على بساط واقع هؤلاء المسلمين. ولكان المفسّرون القدماء لهذا القرآن العظيم قد تعرّضوا هم أيضاً لفهم هذا الموضوع والتّنبيه إليه. فما هي الإجابة على ذلك؟

أقول في الإجابة على هذا السّؤال المعترض بأنّ القارئ لكلّ ما كتبته حتى اللّحظة في مؤلّفاتي يُدرك بأنّ المسلمين الذين جاءوا بعد القرون الأولى وقعوا تحت تأثير أفكار اليهود وغيرهم لذلك لم يفهموا حقيقة قصّة آدم عليه السّلام ولا حقيقة الآية الأولى من سورة النّساء ولا أحاطوا علماً بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره ولا أدركوا خصائص القرآن المجيد التي تكلّمتُ عنها. وإنّ وقوعهم في المحاذير التي ذكرتها، جعلهم يغفلون عن تدبّر الآيات القرآنية من المنظار الذي ذكرته وهو أنّ القرآن قد بحث مواضيع بصورةٍ مباشرة، ومواضيع أخرى بأسلوبٍ غير مباشرٍ مراعاةً لعقول النّاس وللظّروف الطّارئة ولجميع المتغيّراتٍ التي ستطرأ على العالم بعد نزوله. وقد شكّل بذلك إعجازاً في الطّرح وفي البيان بصياغة بلاغيةٍ معجزة أيضاً.

وبعد فراغي من الإجابة على هذه الخاطرة المعترضة سالفة الذّكر أتوجّه للإجابة على السّؤال الأصلي الذي ذكرناه بشأن موضوع تحديد النّسل، ومن منطلق أنّ هذا الموضوع لا يدخل في زمرة المواضيع المطروحة بصورة مباشرةٍ في كتاب الله العزيز، بل يدخل في باب المواضيع المطروحة بصورةٍ غير مباشرة مراعاةً لظروف الأمم والشّعوب في زمان نزوله، يومٍ كان عدد سكّان الأرض لا يهدد بانفجار سكّانيّ كما هو الحال في زماننا الحاضر، ولا كان هذا السّؤال مطروقاً على ساحة النّقاش في ذلك الزّمان. وإنّ المؤمن والمؤمنة الذين سيُتابعان ما سأبيّنه الآن، سيدرك صحّة هذا المنطلق ومصداقيّة ما ذكرته له أيضاً.

فنحن لابدّ وأن لاحظنا عند كلامنا عن تاريخ نشوء موضوع تحديد النّسل، أن هيئة الأمم كانت قد شكّلت مؤسساتٍ من مهمّاتها المساعدة على تحديد النّسل وضمن الأهداف الثّلاثة التي أتينا على ذكرها أيضاً. وهذه الحقيقة تجرّنا لنبحث في كتاب الله العزيز عن الآيات الكريمة التي تعرّضت موضوعيّاً لما يمتُّ إلى الأهداف المذكورة وبأسلوبٍ غير مباشر تبعاً لخصائص هذا الكتاب العزيز. وقد كان الهدف الأوّل والأهم الذي تسعى تلك المنظّمات الدّوليّة لتحقيقه هو مساعدة الأزواج على تحديد الفاصل الزّمنيّ ما بين كلّ ولادةٍ وولادة، حسبما يتطلّبه ذلك صحّة الزّوجات وإمكانيّات الأزواج بشكلٍ خاص.

فالمفكّرون في تلك المنظّمات لاحظوا بأنّ الفتاة المتزوجة يُتاح لها إنجاب الأولاد ما بين عشرين إلى خمس وعشرين سنة من حياتها الزّوجية قبل دخولها سنّ اليأس وهذا بصورة متوسطة. وأنّ هذه الفتاة إذا حملت ووضعت وأرضعت جنيناً كلّ مرة وخلال كل سنتين ستنجب ما بين عشر

إلى اثني عشر مولوداً وسطياً. وهو ما يحصل في البلدان النّامية. فإن أوصت وساعدت هذه الفتاة المتزوجة على أن تُباعد ما بين كل ولادة وولادة أربع سنوات وسطيّاً، تكون قد ساعدت على تحديد نسل الإنسان إلى النّصف تقريباً وهكذا. ولكن كيف ستؤدّي هذه المهمة الصّعبة؟ فقد أوجدوا من الوسائل الطّبيّة ما يُساعدهم في هذا المجال.

ويبقى هذا السّؤال قائماً: هل تطرّق التّعليم القرآنيّ ليُباعد ما يقارب المدّة المذكورة وهي أربع سنوات تقريبا ما بين الولادة والولادة؟ وما هي الآيات التي نصّت على ذلك؟ وما هي الوسائل التي اتّخذتها هذه البيّنات سبيلاً لتحقيق ما سعت لتحقيقه من أهداف؟

ولقد تدبّرت كتاب الله العزيز من هذا المنظار، وقد انطلقت من أنّ هذا الموضوع قد بحثه ربّنا عز وجلّ يقينا وأنّه قد أجاب عليه ولكن بصورةٍ غير مباشرة. ولقد تبيّن لي بأنّ الله تعالى قد ضمّن سورة لقمان ما أردنا معرفته والاطّلاع عليه. وأدخل الله جلّ شأنه عمليّة موضوع تحديد النّسل في إطار ما يسمّيه بالتّصرفات الحكيمة التي ينبغي على الفتاة والفتى المؤمنين والعاملين على فريضة الزّواج الشّرعيّة التّقيّد بها والأخذ بمعطياتها، وإلاّ فلا يُسميان في نظر الله تعالى ولا في نظر العقلاء من فئة الحكماء.

فلاحظ يا عزيزي القارئ ما وعظنا الله جلّ شأنه به في هذا المجال. فهو تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾. الآية 12 ـ ففي هذه الآية الكريمة تقديمٌ وتمهيدٌ وإنّه لفي غاية الأهميّة والإعجاز.

فلنتدبّر كلّ ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من دلالات. فحرف (ولقد) أورده الله تعالى ليفيد أنه ابتدأ الكلام عن موعظة جديدة. وعندما قال ﴿ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ فقد شاء تعالى أن ينبهنا بصورة غير مباشرة إلى أنّ ما يعظ به نبيّه لقمان الحكيم يدخل في باب التّصرّفات الحكيمة. علماً بأنّ كلمة الحكمة تشير إلى بيان ما يمنع من الجهل وإلى ما يساعد على وضع الشّيء في موضعه ودلالةً على أنّ ذلك ينبع من صفات العدل والحلم والعلم الذي يتّصف بها من أوتي الحكمة (محيط المحيط). وللدّلالة عل المعاني التي ذكرناها أتى جلّ شأنه بحرف (أن) هذا الحرف الذي يورد للتّفسير وفسّر بواسطته النّتائج المترتبة على الحكمة وقال ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾. والشّكر معناه الثّناء على المحسن اعترافا بإحسانه ونشراً للثّناء الجميل عليه. كما أتى جلّ شأنه باللام التي أدخلها على الجار والمجرور وقال (لي) والتي تُفيد هنا معنى التّمليك (محيط المحيط) وليؤكد تعالى بها عظمة هذه الحكمة التي آتاها الله تعالى نبيّه لقمان عليه السّلام والتي يؤكد ملكيّة الله تعالى لكلّ ثناءٍ وشكرٍ ينتج عن العمل على ما آتاه من مواعظ وحكم وتعاليم.

ولم يكتف الله تعالى بهذا التّقديم، بل وأتى بفاء الاستئناف وقال ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ فاللام في قوله (لنفسه) تفيد شبه التّمليك (محيط المحيط) وتنبيهاً لأذهاننا إلى أنّ كل فتىً وفتاةٍ مؤمنين يعملان على المواعظ التي وعظ الله تعالى بها لقمان ابنه، فإنّها تفيد ليس الثّناء على الله وحسب بل وتجلب الثّناء لهؤلاء العاملين المتقبّلين لتلك المواعظ أيضاً.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بهذا التّقديم كلّه بل زاد عليه وأنهى به هذه الآية الكريمة وقال ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾. بمعنى أنّ الله

تعالى ينظر إلى المؤمن والمؤمنة الذين لا يعملون ولا يلتزمون بالعمل على تلك الحكمة التي علّمها لقمان لابنه، على أنهم عصاة وإنّ هؤلاء الذين عصوا ربّهم يعتبرون في نظر ربهم كافرين بتلك النّعماء التي تضمّنتها تلك التّعاليم المشار إليها ومحرومين من بركاتها أيضاً. فهذا هو معنى ﴿وَمَن كَفَرَ﴾. ومن ثم أتى الله تعالى بفاء الاستئناف وقال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ بمعنى أنه تعالى غنيٌّ عن شكر هذا الجاحد الذي يجحد ويكفر بحقيقة تلك الحكمة التي علّمها لقمان لابنه. وهو تعالى (حميدٌ) أي هو الله المحمود على كلّ حال سواء أشكره هذا العامل على تلك الحكم أو كفر بها، وبُعد عن الأخذ بها بصورةٍ علميّة وعمليّة.

فإن نحن قمنا الآن بإجمال وتلخيص ما دلّت عليه هذه الآية الكريمة التي قال تعالى فيها ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، فإننا نحصل على الدّلالات التّالية:

أولاً: أنّ ما وعظ لقمان الحكيم به ابنه من مواعظ يدخل في باب الحكمة ويساعد على ما يمنع ويصون العامل على تلك المواعظ من الجهل كما يساعده على وضع الأشياء في مواضعها وبأسلوب علميٍّ نابعٍ من معطيات العلم والحلم والعدل فإن خالفها لا يعود حكيماً في تصرفاته ويُخالف بذلك معطيات العدل والحلم والعلم، ولا يستحقّ الثّناء من سواه عليه.

ثانياً: وأنّ في العمل على تلك المواعظ اللّقمانية عملٌ على معطيات قوله تعالى في الآية (152) من سورة البقرة التي أوصى الله تعالى المؤمنين فيها وقال ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا

تَكۡفُرُونِ﴾. فالمؤمن الذي يذكر الله ربّه حين أدائه فرائضه التي فرضها عليه ويُهمل العمل على هذه الوصايا الحكيمة يكون كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه الآخر فتعاليم الدِّين كلاّ لا يتجزأ.

ثالثاً: وقد أدخل الله عز وجلّ المؤمن والمؤمنة الذين لا يعملون على الحكَم اللّقمانية في باب الجاحدين بنعمة ربهّم عليهم والمتعدين عن الحقيقة العلمية العادلة التي تضمّنتها تلك الحِكَم والمواعظ المذكورة.

وعلى هذه الصّورة من التّقديم والتّمهيد لبحث التّعليم الذي يتعلّق بموضوع تحديد النّسل بصورة غير مباشرة. هذا التّقديم والتّمهيد الذي ارتكز إلى أساسٍ عقائديٍّ دينيٍّ مؤثّر في نفس فئة المؤمنين الصّادقين. وهو التّمهيد الذي يُغني المؤمنين عن سماع مواعظ جماعات المؤسسات الصّادرة عن هيئة الأمم والتي لا تملك هذه السّلطة على النّفس البشرية المؤمنة. فبعد اطّلاعنا نحن المؤمنين على هذه النّواحي الثّلاثة التي تضمّنتها الآية الأولى من الكلام عن الحكَم اللّقمانية. ننتقل من ذلك كلّه لنستمع إلى الموعظة التي وعظ بها لقمان ابنه وتخصّ موضوعنا هذا بالذّات. وهي الموعظة التي أوردها الله جلّ شأنه بقوله ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أقول: مادام لقمان عليه السّلام يعظ ابنه فقد كان الأحرى أن يُقال على لسانه: ـ أوصيك يا بنيّ بوالديك وخاصّةً منهما أمك ـ لكنّ هذا لم يحدث بل الذي ورد هو قوله تعالى ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ فما هو المقصود من ذلك الاستبدال الحادث المذكور؟

فالجواب على هذا السّؤال نستشفّه من صيغة الجمع (ووصينا الإنسان) هذه الصّيغة التي تفيد بأنّ التّوصية بالوالدين ما ابتدعها النّبيّ لقمان، بل هي وصيّة عامّة وقديمةٌ قدم سلسلة بعثات الأنبياء والتي ابتدأها الله جلّ شأنه من بعثة آدم عليه السّلام ووصّاه أن يعظ الأبناء ليستوصوا بوالديهم. ففعل (وصّينا) اشتُقّ من وصيّت فلاناً بكذا ومعناه عهدت إليه وفوّضت أمره إليه (محيط المحيط). وما دام الله تعالى قد قال ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ فقد عمّم الله تعالى مفهوم وصّينا ليشمل التّوصية بالأب والأم معاً من جهة وليعود منهجاً عاماً يجب على جميع النّاس الالتزام به. وعلى هذه الصّورة تكون هذه الموعظة قد اكتسبت صفة الشّمولية ولتقديم مضمونها في مواجهة جميع التّعاليم الوضعيّة التي تدعو إليها مختلف فئات النّاس.

وقد اغتنم الله عز وجلّ هذه الموعظة الشّاملة الدّلالة ليبحث موضوع تحديد النّسل الذي نحن بصدد الكلام عنه وليبحثه بصورةٍ غير مباشرة بحيث لا يُكتشف مضمونه إلاّ في زمن المتغيّرات الطّارئة التي دعت لبحث موضوع التّفجّر السّكّاني وضرورة تحديد نسل العائلات في كلّ مكانٍ من هذا العالم. أقول: إنه تعالى قد اغتنم هذه الفرصة المناسبة وراح يوجّه عباده المؤمنين والمؤمنات يوجّههم بتعليمٍ يفيد في هذا المجال وقال وكأنه يوضّح الحيثيات التي دعته للتّوصية بالأم فقال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾. فهو تعالى لم يقل في الفقرة الأخيرة (أن اشكر لي ولوالدتك) بل عاد فأتى بالصّيغة الدّالة على الوالدين في آنٍ واحدٍ وقال: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾.

فاعلم يا عزيزي القارئ أنّ الصّيغ التي تنقل ما بين الشّمولية وما بين التّخصيص ومن ثمّ العودة إلى مفهوم الشّمولية في هذه الآية الكريمة هو الأسلوب غير المباشر الذي عمد إليه ربنّا عز وجلّ بشأن تحديد النّسل، وهو أسلوبٌ يدفعنا وبعد أن أحطنا به علماً يدفعنا لنقول جازمين بأنّ تعليم هذا القرآن العظيم يصلح لكلّ زمانٍ ومكان.

والآن لنتدبّر ألفاظ وصيغ هذه الآية الكريمة بمنهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره وواضعين نصب أعيننا بأنّ الله عز وجلّ قد صاغ هذه الآية الكريمة صياغةً دستوريّةً ذات دلالات شاملة، وأنه تعالى أودع هذه الآية الكريمة أيضاً إحدى حيثيات مضمونها وبما يتعلّق بالأمم خاصّةً، وليدلّنا على الحلّ الذي يُرضي إلهنا الذي نعبده في مجال موضوع تحديد النّسل خاصّة. فلاحظ كيف أنّ الله جلّ شأنه أتى بفعل (حملتهُ) ولم يقل (حملت به)، ومن باب قولك حملت الشّجرة بمعنى أنه ظهر عليها حملها من الثّمر. فحملته يعني أنّ بويضتها، وبعد أن تحقق تلقيحها من الحيوان المنويّ وصلت رحمها وعلقت به وشرعت في النّمو. وقد أضاف الله تعالى يقول بحقّ هذه المرأة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ والوهن معناه الضّعف. فلماذا قال هنا ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ وحاذفاً مضاف هذا الكلام؟ فالحذف البلاغيّ المذكور ورد لتوسيع المعنى ولتصريفه بمختلف الاتّجاهات. فمن حيث نموّ هذه البويضة الملقّحة، فإنّ كلّ شهرٍ يمرُّ على هذه الحامل يُصيبها بضعفٍ من نوعٍ خاص في كيانها العضويّ، وفي مختلف أجهزة جسدها حتى ويُلقي بآثاره على سلوكها وتصرّفاتها. فإلى هذه الدّلالات جميعها أشارت صيغةُ ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ وبألفاظٍ أخرى فإنّ قوله تعالى هذا يشير من طرفٍ خفيٍّ إلى

أنّ طور هذا الحمل الذي تمرّ منه الفتاة المتزوجة يؤثّر علـى لياقتـها البدنيّة كما يؤثّر على مقاومة وتحمّل أعضائها التّناسلية. ويستدعي ذلك كله في نهاية المطاف أن تقضي هذه الفتاة فترة نقاهـة للاستشـفاء ممّـا أصابـها مـن وهنٍ على وهنٍ ولتستعيد لياقتها الشّخصيّة. فـإن لـم يـراع زوجـها هـذه الحقيقة التي أشارت إليـها هـذه الألفـاظ، يكـون عاصيـاً لربّـه عـز وجـل وبعيداً عن جادّة الحكمة والعدل والحلم والعلم.

ولـم يكتف الله جلّ شأنه بالتّنبيه إلى الحقيقة التي أتينا علـى ذكرهـا والتي استنبطناها مـن قولـه تعـالى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، بـل وأضـاف تعـالى يقـول ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي أنـه تعـالى أتـى بفعـل (فصالـه) حيـث أنّـك تقـول فصلَـت الأم المرضعـة مولودهـا وتعنـي أنـها فطمته. والاسم منـه الفصـال (محيط المحيـط). ومـن ثـم حـدد الله جـلّ شأنه مدّة الرّضاعة والفصال التي ينبغي أن تتقيّد بها الفتاة المرضعة وقـال ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ بمعنى أنّ الله تعالى قد حدّد مدة الرّضاعة بعامين من جهـة، كما أوجب على الأم المرضعة إرضـاع ولدهـا مـن حليـب ثدييـها خاصّـةً وليس القيام بالاعتماد على حليـبٍ مُصنّـع إن ظلّـت أثداؤهـا تـدرُّ اللّبن لهذا الرّضيع. وكأنّه جلّ شأنه قد نهى الرّجل نـهيا جازمـا ومنعـه مـن أن يتسبب لزوجته المُرضعة بما يوقف عمليّـة الإرضـاع المذكـورة. ولنلاحـظ كيف أنّ الله تعالى على حين قال في الآيـة الأولـى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فإنّه جلّ شأنه قال هنا من جديـد ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ فقـد عـاد مـن خـلال ذلـك يؤكّـد علـى الزّوجـين وعلـى أولادهما خاصّة بضرورة الالتزام بمضمون مـا أتـى الله تعـالى علـى بيانـه آنفاً وأنّ ذلك يدخل في مفهوم الحكمـة في التّصرّف والـدّال علـى تمليـك

الله كلّ شكر وثناء استحقّه على هذه الـدّلالات العلميّـة والعادلـة. وإنّـه عز وجلّ حين أضاف وقال (ولوالديك) فقد أفهم هذا المؤمـن أنّ والديـه قد التزما من قبل بهذه التّعاليم المشار إليها في الفقرات السّابقة.

هذا وإنّ الله عز وجلّ حـين أنهى هـذه الآية الكريمة بقولـه تعـالى ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فقد قال هذا في مقـابل قولـه تعـالى مـن قبـل ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. وقال هـذا هنـا ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وبألفـاظ تتوعّـد الذين لا يلتزمون بمعطيات هـذه الحكمـة التي دلّتهم عليها هـذه الآيـة الكريمة. فهناك نبّه تعالى بأنّ الكُفران بـهذه الحكمـة لـن يضـرّ الله شيئاً. وهنا توعّد الله تعالى هذا الجاحد بهذه الحكمة بالعقاب بعـد موتـه وحـين صيرورته إلى ربه عز وجلّ.

وعلى هذه الصّورة ومن خلال هذه الدّلالات التي تضمّنتها هـذه الآيـات الكريمـة الـواردة في سـورة لقمـان يعـود بإمكاننـا الخـروج بالاستنتاجات التّالية:

أولاً: فقد لاحظنـا، ومـن خـلال الآية الأولى الثّالثة عشـرة مـن سورة لقمان كيف أنها اشتملت على تمهيدٍ لبحث موضوع تحديـد النّسـل الـذي نحـن بصـدده. وقـد أوجـب الله عـز وجـلّ في هـذا التّمهيد علـى المؤمنين ضرورة العمل على الموعظة التـي وعـظ بـها لقمـان الحكيـم ابنـه وقد حـذّر الله جـلّ شـأنه المؤمنـين الذيـن لا يعملـون علـى تلـك الموعظـة الحكيمة واعتبرهم جاحدين لأنعم الله ولإحسانه.

ثانياً: وأمّا الآية الخامسة عشرة من السّورة المذكورة فقد جعلها الله تعالى المدخل لبحث موضوع تحديـد النّسـل وهـو الموضـوع المصـاغ فيـها

صياغةً دستوريّةً وهو قـول الله تعـالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ . وإنّ هذا النّصّ الدّستوريّ يُعتبر الأساس لجميع الآيات التي صيغت بصياغة قانونيّة وحددت أُطُر تعامل الأبناء مع والديهم . وعلى سبيل المثال فإنّ قوله تعالى ابتداءً من الآية (23) من سورة الإسراء ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ . هذه الآيات التي شرحتها (في ظلال تفسير سورة الإسراء) . فلنلاحظ كيف أنّ الله تعالى ، وبعد أن تكلّم حول موضوع تحديد النّسل ، أتبعه بقوله تعالى ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وإنّ صياغة هذه الآيات الكريمة وردت صياغة قانونية .

ثالثاً : هذا وإنّ حيثيّة القرار القدريّ التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة قد حددت للزّوجين المؤمنين الفترة الزّمنية التي ينبغي عليهما أن يتركوها ما بين كلّ ولادة وولادة ، وتتضمّن مدة حمل المرأة لجنينها بالإضافة إلى فترة رضاعة المولود وهي سنتان إلى جانب إعطاء هذه الزّوجة فترة نقاهة بعد كلّ ولادة وولادة ، فترةً يحددها طبيبها أو تحددها هي بنفسها تبعاً لإمكانياتها الجسدية والنّفسية والمادية .

رابعاً : وقد نبّه الله جلّ شأنه وهو الذي فرض فريضة الزّواج الشّرعي والذي حدد للزّوجين هذه الفاصلة الزّمنية التي ينبغي عليهما

تركها ما بين كلّ ولادة وولادة، أقول: إنه تعالى نبّه أذهان هذين الزّوجين المؤمنين وبمنتهى اللّطف والمحبة إلى أنه لا ينبغي عليهما أن يتناسيا بعد أدائهما فريضة الزّواج الشّرعيّة هذه، لا ينبغي عليهما أن ينسيا أو يتناسيا بأنهما يتعبّدان ربهّما فيما يفعلانه وبغاية أن يجذبا محبته وقربه ورضوانه، وهما معتقدان بأنهما بعد موتهما سيؤول مصيرهما إلى الله عز وجلّ في نهاية المطاف. فإلى هذه الحقيقة أشار الله تعالى من خلال قوله ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وبعد أن وصلت بك يا عزيزي القارئ إلى هذا الحدّ من البيان ألفت نظرك إلى أنّ من عظمة هذا القرآن الكريم أنّ الله عز وجلّ ينقل لنا فيه تعاليم كان قد أنزلها على رسولٍ من رسله الكرام من قبل. ومن ثم يورد ما يشاء من تعديلات على تلك التّعاليم أو نسخ عليها. وإنه جلّ شأنه حين أورد حكمة نبيّه لقمان التي وعظ بها ابنه، أوردها على حقيقتها الأصلية. تلك التي أفادتنا بالاستنتاجات الأربعة التي استنتجناها آنفاً وخاصّةً المدة التي ينبغي أن يتركها الوالدان ما بين كلّ ولادةٍ وولادة. وإنّ الخصوصية الآنفة الذّكر استدعت أن نبحث عن التّعديلات المدخلة على هذه الحكَم اللّقمانية وذلك في آيات وأمكنةٍ أخرى من آيات هذا القرآن العظيم. إذ لا يعقل أن يكون تعليم الإسلام وسطاً بين التّعاليم ونزل وفق المتغيرات الطّارئة، ويأمر في الوقت نفسه بالأخذ بتلك الحكمة دون أيّة مرونة فرضتها هذه المتغيرات. فالنّساء قديماً كُنّ يحيينَ حياة بداوة، ويأكلن ويعملن كالرّجال. على حين أنّ مجتمعات زماننا أحدثت تغييراً جذرياً في الأمور التي ذكرناها. لذلك كان من واجبنا البحث عن الآيات الكريمة التي أدخلت تلك التّعديلات

عن تلك الآيات اللّواتي أوجدت المرونة المطلوبة في هذا الموضوع. والذي تبيّن لي:

أولاً - إننا لاحظنا كيف أنّ الله عز وجلّ قد أتى بالنّص الدّستوريّ الذي تتفرّع منه قوانين تعامل الأولاد مع والديهم وهو قوله تعالى في مستهل الآية الخامسة عشرة من سورة لقمان التي قال فيها ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ فقد ورد هذا النّص محذوفاً منه مفعوله على حين أنه جلّ شأنه وضّح هذا المفعول في سورة الأحقاف حيث قال هناك ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾. هذا وإنّ الله تعالى لم يكتف بهذا النّصّ الدّستوري الثّاني بل أتى بنصٍّ دستوريٍّ ثالث وذلك في الآية الثّامنة من سورة العنكبوت حيث قال هناك ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾. والغاية من هذا التّوزيع مراعاة سياق موضوع كلّ سورةٍ من هذه السّور الثّلاث. ولقد ترك الله عز وجلّ هذا المؤمن المتدبّر للآية ترك له الأخذ بجميع معطياتها عند بحثه موضوع علاقة الأولاد بآبائهم. ذلك أنّ الإحسان إلى الوالدين هو عمليّة ردّ إحسان الأبناء على آبائهم. وإنّ إحسان الوالدين على الأبناء يُرافقه على العموم حالات ترغيبٍ وحالات ترهيب. فالله عز وجلّ يأمر الأولاد أن يردّوا إحسان والديهم بإحسانٍ مُنزّه مبرّاً من هاتين الصّفتين، وهو الأمر الذي عبّر عنه تعالى بقوله ﴿بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي إحساناً جميلاً. فالحسن نقيض القبيح (محيط المحيط) وإنّ الإحسان الذي ترافقه إساءةً إلى الوالدين لا يسمّى إحساناً حسناً وجميلاً. فبهذا المعنى ورد قوله تعالى موردا كلمة (حُسناً) وذلك في الآية (23) من سورة الشّورى قال ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ بمعنى أنّ الله عز وجلّ

إذا ردّ الحسنة لعبده، يردّها إليه وقد زاد له فيها (حُسناً) ومن واجب الأبناء الاتّصاف بهذه الصّفة الإلهية فيردّوا جميل والديهم حُسنا.

ثانياً ـ وأما بما يتعلّق بمدة الرّضاعة التي حددتها حكمة لقمان بسنتين. فقد أدخل الله عز وجلّ على تلك المدة صفة المرونة، وذلك في الآية (233) من سورة البقرة التي قال تعالى فيها: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾. فالمفسرون القدماء رحمهم الله تعالى ذهب ذهنهم إلى أنّ الله تعالى قد ثبّت من خلال هذا النّص مدة سنتين للرّضاعة وحسبما أوردوه في تفاسيرهم. حال أنّ الله عز وجلّ حين أضاف يقول: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ فقد أتى بحرف (أن) ليفيد التّفسير فهو حرفٌ تفسيريٌّ في هذا الموضع. وقد نبّه الله تعالى من خلاله أذهاننا إلى نقطتين هامتين: فالنّقطة الأولى هي أنه لا ينبغي أن تُرضع المرضعة وليدها أكثر من عامين كاملين، لاحتياج الطّفل بعد المدة المذكورة لطعام متنوّع يقتضيه نمو جسمه. والنّقطة الثّانية التي نبّه إليها قوله تعالى ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ هو أنه يجوز لهذه المرضعة أن تفطم وليدها قبل مضيّ عامين ولأسبابٍ تستدعي ذلك.

ثالثاً ـ وقد قسّمت هذه الآية القرآنيّة نساء عصرنا خاصّةً إلى قسمين: امرأةٌ لا تجد في الحمل والولادة والرّضاعة كُرهاً. وامرأةٌ تحمل في بطنها جنينها كُرهاً وترضعه كُرهاً. فإن نحن عُدنا إلى ما وصلنا من أقوال رسول الله ﷺ نلاحظ أنّه قد قسّم النّساء نفس هذا التّقسيم فقد ورد عنه قوله ﷺ [عليك بالولود والودود]. وهي حقيقة قد أشارت

إليها الآية الخامسة عشرة من سورة الأحقاف التي قال تعالى فيها ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾ فكلمة (كرهاً) الواردة في هذا النّص القرآنيّ اشتقّت من الكره الذي يستعمل ضدّ المحبة والتّطوّع حيث يقال فعلتُه على تكرُّه بمعنى فعلته وأنا لا أريده ولا أرضاه والكراهية مصدر (محيط المحيط). وعليه فالملاحظ هو أنّ الله جلّ شأنه قد استبدل في هذه الآية ما أورده في الآية من سورة لقمان قوله هناك ﴿ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ قد استبدله بكلمة (كُرهاً). والقصد من هذا الاستبدال الإشارة إلى وجود قسمين من النّساء: امرأةٌ ولودٌ تُقبل على الحمل برضى ومحبة. وامرأةٌ تحمل ولكن على تكرُّهٍ من جانبها وليس على محبةٍ ورضا. فهي ارتضت بزوجها عن قناعةٍ لكنها تحمل منه كُرهاً لأسبابٍ قد تكون نفسية وقد تكون صحيّة. وقد اقتضت حالتها هذه ألاّ تُتمّ رضاعة ولدها لعامين لذلك قال تعالى ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾ أي أنّ حالتها تتسبّب في تقصير مدة الرّضاعة أشهراً ثلاثة على أبعد تقدير وبهذا الفهم تكون قد تجلّت لأعيُننا مرونة تعاليم هذا الدِّين الإسلاميّ الحنيف.

رابعاً ـ ولم يكتف الله عز وجلّ بتعديل ما ذكرناه من أمورٍ أشرنا إليها آنفاً. بل إنه جلّ شأنه قد عدّل تعديلاً هاماً آخر تضمّنته نفس الآية (233) من سورة البقرة. فهو تعالى سمح هناك في بعض الحالات أن تكلّف الأم أو الوالد امرأة أخرى لإرضاع مولودها إذا اقتضت الظّروف ذلك. فهو تعالى قال هناك ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾. بمعنى أنّ الله

تعالى حين أجاز الاسترضاع، فقد افترض دفع معاشٍ متلائم مع مقتضيات الأحوال الاقتصادية في وقت الاسترضاع، فلا ينبغي أن يُقتّر على المرضعة ولا أن تُستغلّ حالتها الاجتماعية المتدنّية. لذلك أضاف تعالى يقول ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وذلك دفعاً لاستغلال حال المرضعة. وقد أنهى الله عز وجلّ الآية بقوله ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ألا إن المتدبّر لكتاب الله العزيز من هذا المنظار الذي وجّهته إليه في هذا المقام لن يعود يطرح أسئلةً فيما يتعلّق بهذه الاختلافات التي أتينا على ذكرها فيما أوردناه من آياتٍ كريمة. ومن باب أنّ من خصائص هذا القرآن الكريم أنه يورد عناصر الموضوع الواحد ويبحثه في جميع جوانبه إنّما من خلال توزيع تلك العناصر على مختلف سورِ كتابه العزيز وبما يُناسب التّسلسل الموضوعيّ لآيات السّور الوارد فيها تلك العناصر. فإن أحاط الوالدان علما بما ذكرته لهما حتى اللّحظة من تعاليم قرآنية حدّدت الفترة الزّمنية الواجب تركها ما بين كلّ ولادةٍ وولادة وبهذه المرونة أيضاً التي أشرنا إليها. فإنّ هذين الوالدين المؤمنين يعودان مستغنيين عملياً عن استشارة المؤسسات التي أقامتها هيئة الأمم المتحدة لهذه الغاية. بل ويعودان يعتزّان بهذه التّعاليم التي أنزلها ربّهم لصالحهما منذ أربعة عشر قرن من الزّمان والتي لم يكشف عن حقيقتها إلاّ اتّباع إمام هذا الزّمان. هذا وإنّ حصيلة جميع التّعاليم التي أوردناها تتلخص في ضرورة ترك مالا يقل عن ثلاثة أعوامٍ ما بين كلّ ولادةٍ وولادة إلى جانب مدّة نقاهة. وهي مدة تشتمل على مدة الحمل وعلى مدة الفصال وعلى فترةِ نقاهةٍ قد تُزاد تبعاً لوضع المرأة النّفسي والجسمي والمعنوي والمادي.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: هل ينبغي على الزّوج مطالبة زوجته الإنجاب طيلة المدة التي تسبق سنّ اليأس عندها، أم هل أنّ القرآن المجيد لم يخوّله بتلك المطالبة؟

أقول: إنّ الله عز وجلّ قد أجاب على هذا السّؤال بصورةٍ مباشرةٍ وبصورةٍ غير مباشرة أيضاً. فالإجابة المباشرة تضمّنتها نفس الآية (233) من سورة البقرة والتي قال تعالى فيها بعد الذي ذكرناه من قبل قال ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فقد حدث في هذا النّص حذفٌ بلاغيّ قُصد به توسيع دلالاته وليشمل هذه الإجابة المطلوبة على السّؤال المطروح. وهو أنه لا يباح لهذا الزّوج إكراه زوجته على الاستمرار في الحمل والولادة حتى سنّ اليأس هذا إن ثبت عدم لياقة جسمها لهذه المهمة طبياً فحالما تستشعر الزّوجة المؤمنة بذلك تخبر زوجها برفقٍ بحالها ليتوقّفا عن الإنجاب. وهي موعظةٌ تكمل موضوع تحديد النّسل الذي بحثناه.

وأما الإجابة غير المباشرة على السّؤال المطروح فقد ورد بصياغةٍ دستوريةٍ في آخر آيةٍ من آيات سورة البقرة. تلك الآية التي استهلّها الله عز وجلّ بقوله هناك: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾. فليلاحظ القارئ كيف أنه تعالى أورد في الإجابتين المباشرة وغير المباشرة كلمة (نفسٍ) مُنوّنةٍ على آخرها. فهناك قال (نفسٌ) وهنا قال (نفساً) وإنّ الغاية من التّنوين هو إظهار عظمة هذه النّفس البشرية وضرورة الرّفق بصاحبها رجلاً كان أم امرأة.

وعلى هذه الصّورة تكون الآيات القرآنية قد وضعت أمام الزّوج نصوصاً دستوريةً لا يحقّ له تجاوز معطياتها. ومن جملة ذلك أن يراعِ

طاقة زوجته فلا يكلّفها بما هو فوق استطاعتها في مجال الإنجاب خاصّة، ومن باب كونها تحمل نفساً بشرية هي نفس ما يحمله هو من نفسٍ ذات قوى محدودة. فليست الزّوجة مصنعاً آلياً للإنجاب، بل هي أداة إنجابٍ من دمٍ ولحمٍ وطاقةٍ محدودة العطاء وتختلف من واحدة إلى أخرى أيضاً في هذا المجال.

وعليه فإلى هنا أكون قد وضّحت ما بيّنه القرآن المجيد لنا من تعاليم تتعلّق بموضوع تحديد النّسل، وفي مقابل تحقيق الهدف الأول الذي وضعته المؤسسات العالمية النّاشئة عن منظمة هيئة الأمم المتحدة لتحديد النّسل.

وبهذه المناسبة أقول: لا ينبغي مؤاخذة المسلمين المعاصرين إن كانت بيوتهم تعجّ بالأولاد في هذه الأيّام. بل ينبغي إلقاء اللّوم على المفكرين في هذه الأمة الذين لم يتدبّروا كلام ربهّم عز وجلّ تدبّراً صحيحاً، وانساقوا وراء قيل وقال.

. علماء الطّب الحديث ووسائل تأجيل الحمل:

إنّ حياة الاختلاط الجنسي وحياة الإباحية التي رافقت الحضارة المعاصرة في المجتمعات الغربيّة تولّد عنها ولادة أولادٍ غير شرعيين في كلّ مكانٍ من أمكنة تلك المجتمعات التي استباحت اختلاط الجنسين، واستباحت المعاشرة غير الشّرعية. هذا وإنّ الإحصائيات المخيفة التي دلّت عليها هناك دفعت الباحثين في مجال الطّبّ الحديث إلى إيجاد وسائل تساعد الفتيات على تجنُّب الإنجاب، كما تساعد الزّوجات على

إطالة المدّة الفاصلة ما بين كلّ ولادةٍ وولادة. وقد سبق لـي أن وضّحت حقيقة الكشوف الطّبية العلميّة المتعلقة بالحيوانات المنوية وبكيفية تلقيحها البويضة الأنثوية والمراحل التي تمرّ منها. فاستند هؤلاء العلماء في إيجاد وسائل منع الحمل إلى معطيات تلك الاكتشافات العلمية وتفنّنوا فيما أوجدوه من هذه الوسائل التي ارتكزت تقنيّتها إلى محاولة الحيلولة ما بين وصول الحيوانات المنوية التي تحملها نطفة الرّجل إلى عنق رحم الأنثى. وما يحول دون ما ولج من تلك الحيوانات المنوية دون تعلّقها بجدار رحم تلك الأنثى ولطردها في الوقت نفسه من داخل الرّحم إلى خارجه.

أما ما هي هذه الوسائل التي أوجدوها فتتراوح ما بين حبوبٍ ولوالب موجودة في جميع الصّيدليات الطّبية. علماً بأنّ الإحصائيات التي أُجريت على مستعملي تلك الوسائل أثبتت وجود أوجهٍ سلبيةٍ لتلك الوسائل آذت الفتيات والزّوجات في نواحي عديدة من أحوالها البدنية والصّحية. ولم يجزم الطّبّ حتى الآن بسلامة ونجاعة أيّ من تلك الوسائل المستعملة لمنع الحمل بشكلٍ جازمٍ وصارم. فلا تزال تلك الوسائل في طور التّجارب حتى الآن. والسّؤال الذي يواجهنا هنا هو ما هي الوسائل التي أوصى القرآن الكريم باستعمالها لإطالة المدة ما بين كلّ ولادةٍ وولادة. خصوصاً وأنّ تعاليم هذا الكتاب العزيز قد أوصت بهذه التّوصية التي أتينا على بيانها من قبل؟

أقول: إنّ الإجابة على هذا السّؤال ضروريٌّ وهامٌّ جداً. لكنّ الدّخول في هذه الإجابة بصورةٍ مباشرةٍ وبدون تمهيدٍ لها، لا يُعطي

المؤمنين الدّفع اللازم للأخذ بها بعد اطّلاعهم عليها. لذلك أجد نفسي مضطراً للكلام عن القوة الجنسية نفسها وعن الأسباب التي تحرّكها لأداء ما أوكله إليها الله تعالى الذي أبدعها، من مهام.

. القوة الجنسية وعمليّة إثارتها:

نسأل: ما هي حقيقة القوة الجنسية؟ والجواب: تبدو آثار القوّة الجنسيّة من حيث آثارها الظّاهرة في إطار موضوع ميل كلٍّ من الذّكر والأنثى نحو بعضهما بعضاً. ولكن متى تظهر أوّل بوادر هذا الميل الجنسي؟ الجواب: لقد ثبت علمياً أنّ هذه البوادر تظهر إلى معرضِ الوجود بعد ما نسمّيه سنّ البلوغ.

وعلى سبيل المثال فإننا نلاحظ بأنّ كلّ طفلٍ ذكرٍ يميل في حياته الصّبيانيّة إلى اللّعب مع أترابه الصّبيان وبصورةٍ طبيعيةٍ وفطريةٍ. كما تميل الطّفلة إلى اللّعب مع مثيلاتها من البنات الصّغيرات. كما نُلاحظ بأنّ هذا الصّبيّ وبعد أن بدأ شعر لحيته وشاربيه وإبطيه وغيرها من مواضع الشّعر في بدنه تنمو وتظهر إلى الوجود، يغلُظ صوت هذا الصّبيّ ويشرع يبدأ ظهور ميله واهتمامه بالفتيات ويتجلّى هذا في حركاته وتصرّفاته وتعابيره ونسمّي تلك الفترة من عمر ذاك الطّفل سنّ البلوغ والمراهقة. كذلك نلاحظ بأنّ الطّفلة التي كانت تجد ألهيّتها في اللّعب مع مثيلاتها من الطّفلات، يأتي عليها أيامٌ تبدأ فيها تحيض فيتعدّل قوامها ويمتلئ بطبقةٍ دهنيّةٍ تكسبه استدارةً ونضارةً ويكبر ثدييها ويستديران وغيرها من الأمور، فيظهر عليها وقتئذٍ ميلٌ واهتمامٌ

بالفتيان. ويتجلّى ذلك في حركتها وتصرّفاتها وتعابيرها. ونسمّي تلك الفترة الزّمنّية من حياة هذه الأنثى بلوغاً ومراهقة. فلمَ تحدث تلك التّغيرات التي ذكرناها؟ الجواب العلميّ على هذا السّؤال هو أنه قد ثبت تشريحيّاً وجود غدّة واقعة في أسفل مخّ الإنسان في حفرةٍ في قاع الجمجمة يسمّونها طبيّاً بالسَّرج التّركي Sella Turcica لشبهها بالسّرج التّركي القديم الذي كانوا يضعونه على ظهر الأحصنة ليركبوها. وإنّ هذه الغدة تُعدّ أصغر عند جسم الإنسان ومع ذلك فهي تعتبر ملكة الغدد، وموقعها في المخّ حسّاسٌ جداً. ولها إفرازاتٌ هرمونيةٌ متنوعةٌ وذات تأثيرات مختلفة عن تأثيرات أجهزة جسم الإنسان. وإنّ من جملة ما تفرزه الغدة النّخامية هرموناتٍ تقوم بتنشيط وتغذية الغدد التّناسلية التي يتألّف منها الجهاز التّناسلي عند الفتى والفتاة. فإذا شرعت هذه الغدّة النّخامية بإفراز الهرمون الجنسي المنشّط والمغذّي المشار إليه، والذي لا يبدأ إفرازه إلاّ في سنّ البلوغ، والذي هو من الدّقة والصّغر إلى درجة لا يوزن معها إلاّ بالميكروغرام وليس بالغرام. وإنّ كلمة هرمون تعني بالعربية رسولاً كيماوياً. فهذا الهرمون مؤلّفٌ من عناصر كيماوية كالهيدروجين والكربون وغيره من العناصر الكيميائية. وإنّ هذا الهرمون الذي تفرزه الغدة النّخامية ينتقل عبر الدّورة الدّموية إلى الغدد الجنسية كالخصية ومبيض الأنثى فينبّه بعد وصوله إليها الخلايا الجرثومية الأولية الموجودة على جُدر القنوات المنوية لتقوم هذه من هجعتها الطّويلة التي تسببت بها الأوامر الصّادرة عن منطقة تحت المهاد Hypothalamy والواقعة في منطقة المخ أيضاً فإذا وصلت هذه

الهرمونات إلى الغدد الجنسية تحدث في الخلايا الجرثومية انقسامات تتوالى يتولد منها الحيوانات المنوية بالملايين بل بآلاف الملايين. كما تفرز الغدة النّخامية هرموناً آخر هو في منتهى الأهمية ليحدث ظواهر البلوغ عند الطّفل الذّكر الذي جرت داخل جسمه هذه التّغييرات الدّالّة على بلوغه سنّ البلوغ والمراهقة. وإنّه يحدث شبيه ذلك التّغيير عند الطّفلة التي بلغت سنّ المراهقة، فتفرز الغدّة النّخامية لديها نوعين من الهرمونات تنمّي عندها ما سبق أن ذكرناه من عوارض البلوغ. منها مادة البروجسترون أو ما نسميه هرمون الحمل والذي يهيئ رحم المرأة للحمل ويصحبه بداية الحيض التي أتينا على ذكرها. ويتّسع إثر هذا التّغيّر الحادث حوض المرأة ويتّخذ شكلاً مناسباً يتّفق مع العمل المخصص لإنجازه أصلاً.

والذي ثبت بصورةٍ علميّةٍ ومدهشةٍ للباحثين هو أنه يوجدّ هناك فرقٌ بسيطٌ جداً ما بين تركيب هرمون الذّكورة وهرمون الأنوثة ولا يتعدّى زيادة الواحد على الآخر في تركيبه من ذرّة كربون وثلاث ذرّات من غاز الهيدروجين. هذا وإن دلّ كل ما ذكرناه على شيءٍ فإنّما يدلّ على عظمة الخالق الذي أبدع كل شيء أبدعه وخلقه وبهذه الدّقّة في التّركيب والمبنى التي تتجاوز حدّ التّصوّر والخيال.

ومن هذا نستنتج يا عزيزي القارئ أنّ بلوغ الذّكر والأنثى ما سمّيناه (سنّ البلوغ) ففيه الإشارة الصّريحة إلى أنّ أجهزة التّناسل لدى الجنسين قد أمست مستعدّةً للعمل وللإثمار وللإنجاب ولذا أثّرت في طبيعة الذّكر والأنثى ليميل الواحد منهما إلى الآخر وبصورةٍ لا شعوريةٍ

من جانبهما. وبذلك أكون قد بيّنت للمؤمنين الجذور الماديّة التـي تلعب دورها في توليد الميل بين الجنسين الواحد منهما نحو الآخر. والذي ولّدته هذه القوة الجنسية المتنامية. وبإمكاننا تشبيه هذه القوة الجنسية المتنامية بصنبور ماءٍ يصبّ في وعاءٍ مخصصٍ لجمع الماء فيه. فالصّنبور مفتوحٌ على الدّوام، فماذا يحدث عند امتلاء الوعاء بالماء؟ الذي يحدث أنه يبدأ ينصبّ الماء من جوانبه وخارجه. وأنّ هذا التّشبيه ينطبق على ماء القوة الجنسية. إذ يبدأ هذا الذّكر وتلك الأنثى البالغان يبدءان بالاحتلام في نومهما لتفريغ هذه القوة الجنسية النّاشئة والنّامية. وفي هذا إبداعٌ إلهيٌّ آخر يشكّل الوسيلة الطّبيعية لتفريغ الطّاقة الجنسية من دون أن يحتاج صاحبها إلى وسيلة منعٍ وتفريغ.

. القرآن ووسائل إطالة المدة ما بين الولادتين:

فيا عزيزي القارئ وبعد أن أخذنا فكرةً عن نشوء هذه القوة الجنسية نعود للكلام عن الوسائل التي دلّتنا تعاليم الآيات القرآنية عليها لنتجنّب الإنجاب خلال الفترة اللازم تركها ما بين ولادةٍ وأخرى.

فهذه الوسائل تنحصر في عمليّة تجنّب إثارة هذه الشّهوة الجنسية، ومن منطلق أنّ هذه القوة الجنسية تظلّ هامدةً ما لم تحدث إثارةً تثيرها ويؤدّي ذلك بالتّالي إثارة الأعضاء التّناسلية المختصة، وتحريضها ولتقوم بإفرازاتها الجنسية المعروفة. خصوصاً وأنّه سبق لنا أن علمنا كيف أنّ الله عز وجلّ قد أبدع نظاماً وأجهزةً عجيبةً تؤدّي هذه المهمات المعهودة لها بشأن توليد الإفرازات الجنسية اللازمة لدى الذّكر والأنثى

ولتوليد هذه الرّغبة الجنسية الطّبيعية المتبادلة بينهما وميل الذّكر للأنثى وميل هذه نحوه. وعليه نكون قد أحطنا علماً بأنّ هذه الظّاهرة وهذا الميل الجنسي إنّما هو قائمٌ على وجود أجهزةٍ داخل جسم الإنسان نفسه وتشكّل ظاهرة إبداعٍ إلهيٍّ مدهشٍ كانت الغاية منه الإبقاء على نوع الإنسان. فلا يجوز اعتبار الميل الجنسي ظاهرةً عارضةً لا تحركها أجهزة خاصّة شأنها شأن بقيّة أجهزة جسم الإنسان.

وسبق لي أن بيّنت لك يا عزيزي القارئ كيف أنّ إفرازات الغدّة النّخامية لدى الذّكر تتسبب بتوليد عشرات الملايين من الحيوانات المنوية الجاهزة لتلقيح بويضات الأنثى. وإنّ هذا الإفراز لا يتوقف عن العمل على وجه العموم إلاّ لخللٍ يحدث في أجهزة الغدّة النّخامية نفسها. وهذه الحقيقة تعني أنّ الأوعية التي خُصصت بصورةٍ طبيعيّةٍ لاستيعاب هذه الكائنات المنوية يطفحُ كيلها بين الفترة والفترة. وقد أبدع الله عز وجلّ جهازاً لتصريف هذه الزّوائد المنويّة عن طريق احتلام الذّكر أو احتلام الأنثى في منامه. وقد أمر الله تعالى هذين الجنسين بالاغتسال بعد احتلامهما وعلى شاكلة ما يفعله الزّوجان بعد معاشرتهما لبعضهما بعضاً.

والمهم من جميع ما ذكرته آنفاً هو ليُدرك المؤمن والمؤمنة أنهّما يكونان في تلك الحالة على حافة برميلٍ مملوء بالبارود القابل للانفجار. وأنّ من واجب هذا المؤمن وهذه المؤمنة تجنّب إثارة وتفجير هذا البرميل قبل الزّواج وبعده وذلك من خلال الإبقاء على فتراتٍ زمنيةٍ بعيدة عن الجماع بين الولادة والولادة.

والسّؤال هنا: كيف تحدث الإثارة الجنسية وما هي المنافذ المساعدة على هذه الإثارة؟ ولكي نجيب على هذا السّؤال فإن على المرء أن يمعن نظره في تركيبة جسده ليُدرك بأنّ الله المبدع قد صيّر حواسنا الخمسة دروباً طبيعيةً لتمرير الإثارة الجنسية. فالعين تنقل آثار الجمال. والأذن تنقل لصاحبها رقيق الأصوات. والأنف ينقل لصاحبه الرّوائح الزّكيّة التي تتعطّر بها الأنثى. وحاسّة اللّمس تنقل لصاحبها الأحاسيس المتولّدة عن ملامسة النّساء، وهكذا دواليك.

واعلم يا عزيزي القارئ أنّ الحواس الخمسة لا تُعدُّ وحدها نوافذ لتمرير الإثارة الجنسية. بل تقوم بهذه المهمّة أيضا مخيّلة هذا الإنسان وتؤدّي دوراً شبيهاً بأدوارها. فإن سدّ الإنسان هذه النّوافذ وابتعد عن عملية التّخيّل يصون نفسه من الإثارة الجنسية، ويعود الاحتلام عاملاً طبيعياً لتفريغ هذه الطّاقة الجنسية التي سلّح الله عز وجلّ بها جسم الإنسان إبقاءً على نوعه عن طريق التّكاثر. وإنّ هذه الحقائق تدفعنا للقيام بتدبّر آيات القرآن المجيد لاستقصاء التّعاليم القرآنية التي زوّدنا بها كتاب الله العزيز في هذا المجال.

وإني وبعد أن قمت بعملية التّدبّر المطلوبة ووفق منهجية القرآن المجيد وأصول تفسيره، فقد تبيّن لي أنّ الله عز وجلّ قد قسّم هذا الموضوع إلى قسمين أساسيين:

أما القسم الأوّل فقد أفادنا فيه بتعاليم تتعلّق بمجريات الأمور خارج المسكن الذي يقطن فيه الإنسان. ولم يفرّق الله عز وجلّ في هذا

القسم من الموضوع ما بين إنسان متزوجٍ أو إنسانٍ غير متزوج ذكراً كان أو أنثى.

وأما القسم الثّاني من الموضوع فتتعلّق مواعظه بمعاشرة الزّوجين بعضهما بعضاً داخل الدّار معاشرةً حلالاً. وقد أتى بتعاليم هذين القسمين المذكورين من الموضوع بصياغةٍ دستوريةٍ لكلٍّ منهما، وبصياغةٍ قانونية تفصيلية تخصّ تعاليم خارج المنزل.

. تعاليم تتعلّق بخارج منزل الزّوجيّة:

ذلك أنّ الإنسان يمضي وقتاً طويلاً خارج منزله إمّا بغاية الدّراسة أو بسبب العمل أو ما شابه ذلك من الأمور. وإنّ هذا الإنسان يضطرّ خلال ذلك أن يختلط بأناسٍ من الجنسين وأن يسمع أصواتاً من جهات مختلفة وأن يشمّ روائح مختلفة أيضاً. فإن كان هذا الإنسان ذكراً كان أو أنثى ما يزال شاباً غير متزوج أو كان متزوجاً فإنه يتعرّض لتلك المؤثرات ومنها ما يكون مختصّاً بتأثيرٍ جنسيٍّ عليه فماذا علّمه الله عز وجلّ أن يفعل في تلك الأحوال؟

أقول: لقد وعظ الله عز وجلّ هذا الفتى وتلك الفتاة بخصوص المؤثرات الجنسية وعظا ليصون نفسه من تأثيراتها وذلك في الآية (33) من سورة النّور وقد ورد وعظه هذا مصاغا بصياغةٍ بلاغيةٍ دستورية وقال ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾. فأورد تعالى في هذه الآية الكريمة فعل الأمر ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ مُشتقّاً إيّاه من قولك عفّ الرّجل ومعناه كفّ عمّا لا يحلّ له قولاً أو عملا وامتنع

عنه. كما أورد فعل (يغنيهم) مشتقّاً إيّاه من قولك غني الرّجل ومعناه تزوج وضدّ فقر (محيط المحيط).

وليصبح معنى هذه الآية الكريمة بأنّ الله جلّ شأنه يمتحن الذّكر والأنثى في مجال استعمالهما لإرادتهما التي سلّحهما خالقهما بها، وليكفّا عن الإقدام على الفواحش وخاصّةً منها فاحشة الزّنا التي لا تحلّ لهما قولاً ولا عملاً. ولم يكتف تعالى بهذه الموعظة المذكورة بل وبشّر الله تعالى هذا الذّكر وتلك الأنثى اللّذين يلتزمان بهذه الموعظة بصورةٍ عمليةٍ، أقول: بشّرهما بأنّ ربهّما يفتح لهما إن هما تعفّفا أبواب رزقه، وييسّر لهما العمل على فريضة الزّواج الشّرعيّ أيضاً.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بهذا النّص الدّستوريّ. بل وأتى تعالى بنصوصٍ أخرى مصاغة بصياغة بلاغية قانونيةٍ اشتملت على تعاليم تساعد الجنسين على النّجاح في عملية الاستعفاف المطلوبة منهما. فخاطب الذّكور منهم في الآية (30) من سورة النّور وقال ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾. وخاطب جلّ شأنه بعدها مباشرةً المؤمنات وقال ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾. فما هو المقصود من هذه الموعظة؟

أمّا المفسرون القدماء رحمهم الله الذين كانوا يفسّرون الآيات بما يتبادر منها لأذهانهم فقد تبادر لأذهانهم من هذه الآية الكريمة بأنّ الله عز وجلّ قد قصد منها الأمر بغضّ البصر حين مخاطبة أحد الجنسين للآخر، والحفاظ على عورة كلّ واحدٍ منهما. فقد كتب الفخر الرّازي رحمه الله يقول:

" واعلم أنه سبحانه أمر الرّجال بغضّ البصر وحفظ الفـروج وأمـر النّساء بمثل ما أمر بـه الرّجـال وزاد فيـهنّ أن لا يُبدين زينتـهنّ إلاّ لأقـوامٍ مخصوصين . " .

وقد قال الفخر الرّازي قوله هذا فلم ينتبه إلى أنّ الفرج مخصوصٌ بالمرأة وليس بالرّجال ، لذلك ذهب ذهنه إلى أنّ المقصود من قوله تعـالى ﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ ﴾ إلى أنه تعالى يوصيهم بصيانة عوراتهم . مـع أنّـه لو كان قد نظر إلى هذا الأمر بغضّ البصر على أنه أمـرٌ يتعلّـق بسـدّ أحـد المنافذ الخمس الهامة للجسد وهـي الحـواس الخمـس التـي تتلقّـى الإثـارة الجنسية ، فلو أنه فكّر من هذا المنظار لكان قد فـهم مـا فـهمناه مـن أنّ الله تعالى يوصي بعـدم تعريـض حواسّـه الخمسـة للمؤثـرات الجنسية خـارج الدّار . خصوصاً وأنّ اللّغة العربيـة لا تستسـيغ مـا استسـاغه الـرّازي مـن معنـى . فكلمـة (الفـرج) موضوعـةٌ أصـلاً لمعنـى الفتـح والتّفريـق وبـاقي المعاني متفرّعة عنـها . حيـث تقـول فـرّج فـلانٌ بـين الشّيئين ومعنـاه فتـح (معجم محيط المحيط) .

وبما أنّ آلة الرّجل لا يقال لها (فرج) فهذا الأمر يعدّ قرينةً دالّةً على أنّ الله عز وجلّ لم يستعمل كلمة ﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ ﴾ بمعناها الحقيقي بل ليكنّي بها عن بقية الحواس التي تشابه حاسـة النّظـر في آليّـتها . وكأنـه تعالى قد حثّ هذا المؤمن على تجنيب بقيّة منافذ جسده الإثارة الجنسـية . وقد أيّد مؤلف معجم (مقاييس اللّغة) ما ذكرناه من (محيط المحيط) فقال الفاء والرّاء والجيم أصلٌ صحيـحٌ يـدلّ علـى تفتّـح في الشّـيء . ونسـتدلّ ممّا ذكرناه على أنّ الله عز وجلّ على حين صاغ آية الاستعفاف بصياغـةٍ

دستوريةٍ فقد صاغ هاتين الآيتين الكريمتين بصياغة قانونيةٍ مخصّصة بكلّ جنس من الجنسين وليدلّ من خلال معطياتها المؤمن والمؤمنة على اتّخاذ الحيطة كيلا تتسبب منافذ حواسهم الخمس بنقل المؤثرات الجنسية التي تدفع إلى معصية الله جلّ وعلا. ولهذا السّبب نفسه فقد أضاف الله جلّ شأنه ينصح المؤمنات ويقول في نفس هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ فقد نصح جلّ شأنه المؤمنات بهذه الموعظة المضافة بسبب أنّ زينة المرأة وصوت حليّها وإظهار مكامن الجمال في وجهها وصدرها يتسبب للمؤمن الذي يقع نظره عليها بإثارته جنسياً بصورةٍ طبيعيةٍ وبالتّالي تأثم الفتاة بسبب هذه الإثارة الجنسيّة التي تسبّبت بها للرّجل.

وهكذا فإنّنا نستدلّ من هذه المواعظ التي ذكرناها بأنّ منافذ الحواس تشكّل وسائل لحدوث بداياتٍ تؤدي في النّهاية إذا ما تراكمت إلى وقوع صاحبها في فاحشة الزّنا وإنّ هذه الحقيقة تفسّر لنا ما ورد في كتب اليهود والنّصارى من تعاليم تقول بأنّ العين تزني. وإنّ دليلي على مصداقية ما شرحته حتى الآن بشأن الحواس الخمس وما ينتج عن استعمالها استعمالاً خاطئاً، هو أنّ هذه المواعظ وردت في سورة النّور التي استهلّها الله جلّ شأنه بالكلام عن فاحشة الزّنا وأحكامها وبأسلوب التّنفير منها. خصوصاً وأنه تعالى أنهى هذه المواعظ التي تضمّنتها هذه الآيات سالفة الذّكر بقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ أي أنّ التّقيّد بمضامين هذه المواعظ القرآنية تكون ﴿ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أي أطهر لتصرّفاتهم التي هي تصرفات غير متقيّدة بهذه المواعظ. وقد

أكّد الله جلّ شأنه على المؤمنين وعلى المؤمنات أهمية ما وعظهم به من مواعظ لكونه خبيراً بما يصنعون. وعلى هذه الصّورة أكون قد وضّحت معالم القسم الأول المتعلّق بالسّلوك خارج المنزل والذي شمل المتزوجين وغير المتزوجين من المؤمنين من الجنسين. والغاية منه أنه يشكّل وسيلة سيطرة كلّ واحدٍ منهم على قوّته الجنسيّة وعدم استعمالها استعمالاً خاطئاً يؤدي بالعاصي ربّه إلى حرمانه من محبة ربّه ومن قربه ورضوانه.

. تعاليم بخصوص داخل المنزل:

وأنتقل الآن للكلام عن القسم الثّاني من هذه الوسيلة المتعلقة مواعظها بما ينبغي أن يحدث داخل المنزل من تصرفات تعين على إطالة المدة ما بين كلّ ولادةٍ وولادة وبما يتّفق مع ما ذكرناه حين تكلّمنا عن موضوع تحديد النّسل في القرآن المجيد. علماً بأنّ الكلام عن ذلك هو بحاجةٍ إلى تمهيدٍ وإلى الإحاطة علماً بعدّة أمورٍ قبل تناول هذا القسم الثّاني تفصيليّاً. وهذه الأمور هي:

أولاً: من المعلوم أنّ أوضاع الأعضاء التّناسلية تختلف بعد حدوث الإثارة الجنسية عنها قبل حدوثها. فما هو سرّ هذا الانتصاب في العضو المذكّر؟ وما هو تعليله بصورةٍ عمليةٍ؟ وإنّ الإجابة العلمية على هذا السّؤال تتلخّص في أنّ الدّورة الدّموية تلعب في ذلك دوراً رئيسياً فليلاحظ المرء كيف أنه إذا جلس ليتناول طعامه لا يعود يستطيع خلاله التّفكير على نفس المستوى الذي يفكّر فيه وهو متفرّغٌ للتّفكير والكتابة. فلقد ثبت بصورةٍ تشريحية أنّ الدّماء التي تجري في عروقه تتجمّع في محيط معدته لمساعدتها على أداء وظيفتها وعلى العكس من ذلك

فالذي يجلس ليفكّر في موضوع من المواضيع ينصحه الأطباء ترك الطّعام خلاله لتساعده دماؤه حيث تتوجّه نحو دماغه وذلك لمساعدة الدّماغ على تأديته لوظيفته. ولقد ثبت طبياً أنّ من جملة أسباب حدوث القرحة المعدية هو عدم مراعاة المريض بها للحقيقة التي بيناها آنفاً. فنفس هذه الآلية تحدث عند حدوث الإثارات لجنسية التي تتأتّى عن طريق المنافذ الجسدية التي أتينا على ذكرها والتي تمثّلها الحواس الخمس. فالإثارات الجنسية تتسبب في توجّه الدّماء بكثرة نحو الأعضاء التّناسلية لتساعدها على تأدية وظائفها. ويمتلئ العضو المذكّر بنتيجة ذلك بكمية من الدّماء تُحدث فيه الانتصاب فهذا هو الأمر الأول التّمهيديّ الضّروري فهمه قبل الكلام عن القسم الثّاني من الوسيلة الأولى.

ثانياً: ومن الضّروري لنا أيضاً أن نحيط علماً وبصورة علمية بالفارق الكائن ما بين الجهازين التّناسليين لدى الجنسين. فإنّ الإلمام بهذه الحقيقة العلمية يساعد على فهم الوسيلة الثّانية المطلوب فهمها لتساعدنا على تحقيق إطالة المدة ما بين كلّ ولادة وولادة إطاعةً لأوامر ربّ العالمين. حيث ثبت تشريحياً أنّ مبيض الأنثى قد أبدعه خالقنا مكوناً من أجسام كروية مختلفة الأحجام ومتفاوتةً في درجات نموها، وهي التي اصطلح الأطباء على تسميتها (بالحويصلات المبيضية). وثبت أيضاً أنّ كل حويصلة من تلك الحويصلات تحتوي في داخلها على بويضة واحدة مستعدة لعمليّة التّلقيح. فإذا ما بلغت الأنثى سنّ البلوغ وبدأت تحيض فمعنى ذلك أنّ حياة النّموّ دبّت في كيان الحويصلات المبيضية التي لها وبدأت إحدى حويصلاتها تكبر خلال شهرٍ من إنهاء

الحيض لتخرج البويضة من داخل تلك الحويصلة متجهة إلى عنق الرّحم لاستقبال الحيوان المنويّ. وقد قدّروا عدد الحويصلات المشار إليها عند الأنثى ببضعة آلاف حويصلة والتي يكون بداخل كلّ واحدةٍ منها بويضة فهذا هو حال المبيض عند الأنثى. علماً بأنّ بويضة الأنثى أكبر من الحيوان المنوي الذي للذّكر بأربعين مرة. أمّا الذّكر فقد ثبت تشريحياً أيضاً أنّ خصيته قد جعلها الله تعالى الذي أبدعها كمصنعٍ لصنع النّطف الأمشاج والذي يكاد يعمل هذا المصنع طوال حياة الذّكر. على حين أنّ الأنثى يتوقف مصنع حويصلاتها عن العمل فيما يسمّونه سنّ اليأس وقد ثبت تشريحياً بأنّ خصية الذّكر مكونةً من حوالي أربعمائة فصّ. ويحتوي كل فص من تلك الفصوص على ثلاث قنواتٍ منويةٍ صغيرة كلّ واحدةٍ منها بطول نصف متر تقريباً لكنّها متعرّجةً وملتفةً حول نفسها لتبدو على شكل كتلة وليس على شكل حبلٍ مستقيمٍ ومستطيل.

وقد قدّر الخالق المبدع أن تتولّد النّطف الأمشاج في هذه القنوات المنويّة التي ذكرناها وأن يُفرز من خلالها هرمون الذّكورة. ولا يتولّد في هذه القنوات أعدادٌ محدودةٌ منها جميعها، بل يتولّد فيها مئات الملايين من الحيوانات المنويّة التي تتدافع خلال القناة النّاقلة لها نحو القضيب خلال حدوث أيّ نوعٍ من أنواع الإثارة الجنسية. على حين أنّنا لاحظنا بأنّ مبيض الأنثى لا يولّد طوال الشّهر أكثر من بويضةٍ واحدةٍ وفي أوقاتٍ محددة ما بين كلّ حال حيضٍ وحيض عند الفتاة وإن كانت الإثارة الجنسية قد أصابتها في أوقاتٍ مختلفة. أي أنّ لتلقيح بويضة الأنثى أوقاتٌ محددة ينبغي على الذّكر والأنثى معرفتها للاستفادة من ذلك في

عمليّة التّلقيح أو لتجنّبها حين لا يسعيان إليه. وعلى هذه الصّورة يكون قد اتّضح الفارق الرّئيسي ما بين حال أعضاء التّناسل وإفرازاتها عند هذين الجنسين الذّكر والأنثى.

ثالثاً: والأمر الثّالث الذي ينبغي على الجنسين الإحاطة به قبل الكلام عن هذا القسم الثّاني من الوسيلة الأولى التي علّمنا إيّاها كتاب الله العزيز بشأن عملية ترك مدة بين ولادةٍ وأخرى هو أن نُدرك هذه المهمة المتعلقة بمعاشرة الزّوج لزوجته داخل منزل الزّوجية وليس خارجه. فهل أنّ الزّوجة هي المسؤولة عن تنظيم أمر عمليّة معاشرة زوجها إيّاها أم أنّ زوجها هو المسؤول عن تنظيم هذه العملية؟ وإنّ الإجابة على هذا السّؤال لا ينبغي الانطلاق فيه مما هو موروثٌ عن الآباء والأجداد وعن المفاهيم المتوارثة. بل ينبغي أن ننطلق منه إجابةً على هذا السّؤال هو كلام الله عز وجلّ الذي شرّع للمؤمنين والمؤمنات فريضة الزّواج ودلّهم على المدّة التي تفصل بين كلّ ولادةٍ وولادةٍ وجعلهم مسؤولين عن تنفيذ أوامره وجاء يعلّمهم من هو المسؤول عن تنفيذ أمره عز وجلّ. إذ لا يُعقل أن يأتي الله جلّ شأنه بهذا التّعليم الذي يساعد على تحديد النّسل من جهة ويُهمل بيان المسؤول عن وضع هذا التّعليم الإلهي موضع التّنفيذ. خصوصاً وأنّ الله عز وجلّ ما فرّط في كتابه من شيء وقد جعل تعاليمه صالحة للعمل عليها في كلّ زمانٍ ومكان.

الفصل السّابع:

الرّجل القوّام هو المسؤول عن المعاشرة الزّوجية

وبناءً على ما تقدّم من حقائق بيّنتها كان من واجبنا تدبّر آيات القرآن المجيد بمنهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره وبغاية العثور على تحديد مسؤولية أحد طرفي عقد الزّواج الإسلامي في مجال القيام بتنفيذ أمر الله عز وجلّ بشأن تحديد النّسل وتحديد المدة الزّمنيّة المطلوبة ما بين كلّ ولادةٍ وولادة. فإن لم نعثر على الإجابة المطلوبة يكون القصور سببه قصورٌ باعنا في فهم دلالات الآيات القرآنية ولا يكون سببُهُ قصور القرآن المجيد عن الإجابة عن السّؤال الذي ذكرناه.

فالذي تبين لي بعد الدّعاء بين يدي الله عز وجلّ والقيام بالتّدبّر المطلوب، هو أنّ الله جلّ شأنه أجاب وبصورةٍ يقينيةٍ على السّؤال المذكور ليس من خلال آيةٍ واحدةٍ، بل من خلال آيتين كريمتين. وأنّ إجابته تعالى الأولى وردت بصورةٍ مباشرةٍ في الآية الأولى. وأنّ إجابته الثّانية قد وردت بصورةٍ غير مباشرةٍ في الآية الثّانية فمن هما هاتان الآيتان الكريمتان؟

أقول في الإجابة المباشرة أنّها وردت ضمن الآية (34) من سورة النّساء والتي قال تعالى فيها: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا

فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾. وأمّا إجابتي غير المباشرة التي تثبت مصداقية الجواب المباشر فقد أوردها الله تعالى في الآية (223) من سورة البقرة حيث قال ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

رأي الرّازي في مفهوم قوامّية الرّجُل:

وقبل أن أشرح معاني هاتين الآيتين الكريمتين، أرى من المناسب أن أنقل للقارئ ما فهمه العلاّمة الفخر الرّازي رحمه الله وكتبه في تفسيره الكبير من قوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾. ليساعد ذلك القارئ على إدراك الفرق ما بين ما فهمه رحمه الله منها، وما بين ما فتحه الله تعالى عليّ من معانيها.

فالفخر الرّازي كتب يقول:

" الرّجال قوّامون على النّساء أي مسلّطون على أدبهنّ والأخذ فوق أيديهنّ. فكأنه تعالى جعله أميراً عليها ونافذ الحكم في حقّها. فلمّا نزلت هذه الآية قال النّبيّ ﷺ [أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خيراً ورُفع القصاص]. ثم إنه تعالى لمّا أثبت للرّجال سلطنةً على النّساء ونفاذ أمره عليهنّ بيّن أنّ ذلك معلّلٌ بأمرين: أحدهما قوله تعالى ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. واعلم أنّ فضل الرّجال على النّساء حاصلٌ من وجوهٍ كثيرةٍ، بعضها صفاتٌ حقيقيةٌ وبعضها أحكامٌ

شرعية. أما الصّفات الحقيقية فاعلم أنّ الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها إلى أمرين: إلى العلم وإلى القدرة. ولا شكّ أنّ عقول الرّجال وعلومهم أكثر. ولاشكّ أنّ قدرتهم على الأعمال الشّاقة أكمل. فلهذين الشّيئين حصلت الفضيلة للرّجال على النّساء في العقل والحزم والقوة والكتابة في الغالب والفروسية والرّمي وإنّ منهم الأنبياء والعلماء. وفيهم الإمامة الكبرى والصّغرى والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف والشّهادة في الحدود والقصاص والاتّفاق وفي الأنكحة عند الشّافعي ﷺ وزيادة النّصيب في الميراث والتّعصّب في الميراث وفي تحمّل الدّية في القتل والخطأ وفي القسامة والولاية في النّكاح والطّلاق والرّجعة وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب. فكل ذلك يدل على فضل الرّجال على النّساء. والسّبب الثّاني لحصول هذه الفضيلة قوله تعالى ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يعني أنّ الرّجل أفضل من المرأة لأنه يعطيها المهر وينفق عليها. ثم إنه تعالى قسّم النّساء قسمين: فوصف الصّالحات منهنّ بأنهنّ قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله وفيه مسائل. قانتات أي مطيعات لله. (حافظاتٍ للغيب) أي قائماتٍ بحقوق الزّوج. وقدّم قضاء حقّ الله ثم أتبع ذلك بقضاء حقّ الزّوج... وظاهرُ هذا إخبار، إلاّ أنّ المراد منه الأمر بالطّاعة... وأما حال المرأة عند غيبة الزّوج فقد وصفها تعالى بقوله تعالى (حافظاتٍ للغيب). واعلم أنّ الغيب خلاف الشّهادة. والمعنى كونهنّ حافظاتٍ بواجب الغيب وذلك من وجوه أحدهما: أنها تحفظ نفسها عن الزّنا لئلا يلحق الزّوج العار بسبب زناها. ولئلا يلتحق به الولد المتكوّن من نطفة غيره. وثانيها: حفظ ماله

عن الضّياع. وثالثها: حفظ منزله عمّا لا ينبغي. وعن النّبي ﷺ [خير النّساء إن نظرت إليها سرّتك، وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها، وتلا هذه الآية [".

والآن فإن نحن حاولنا اختصار ما أراد الفخر الرّازي رحمه الله بيانه مما فهمه من الآية سالفة الذّكر نتبيّن الأمور التّالية:

أولاً: إنه رحمه الله فهم من تلك الآية الكريمة أنّ الله عز وجلّ منح الرّجال سلطةً ما أعطاها للنّساء فهو تعالى على حدّ زعمه جعل الرّجال مسلّطون على أدب النّساء بمعنى أنّ من واجب النّساء التّأدّب بين أيدي رجالهم وأنه تعالى منح الرّجال الأخذ فوق أيدي نسائهنّ. فالرّجل أمير المرأة ونافذ الحكم في حقّها.

ثانياً: كما فهم رحمه الله بأنّ الله تعالى فضّل الرّجال على النّساء لاتّصاف الرّجال بصفاتٍ حقيقية لم تتصف بها النّساء. وحصر هذه الصّفات الحقيقية في صفتين رئيسيّتين هما العلم والقدرة. وموضحاً العلم بدلالته على عظم عقول وعلوم الرّجال، وعلى صغر عقول النّساء وقلّة علومهم. كما وضّح صفة القدرة التي فُضّل الرّجال على النّساء بسببها، وهو قدرة الرّجال على الأعمال الشّاقة بكمالٍ لم تؤته النّساء بمثل مستواه. فمن هذا ندرك بأنّ العلاّمة الفخر الرّازي فسّر قوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فسّره على ضوء واقع المجتمعات الإسلامية في عصره. وكأنّ هذا الكلام الإلهي نزل ليصف المجتمع الذي آل إليه المسلمون في عصر الفخر الرّازي رحمه الله أعاذنا الله من ذلك. فهل صحّ ما وجّه الفخر الرّازي المسلمين به في تفسيره

المذكور وبهذه المعاني التي نقلناها عنه؟ فهذا ما سأتعرّض له فيما بعد بمناقشته على ضوء معطيات كلام الله تعالى ووفق منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره.

ثالثاً: وأما أفضلية الرّجال على النّساء في نظره رحمه الله من وجهة الأحكام الشّرعية. فتتأتّى هذه الأفضلية الشّرعية من كون الله تعالى منح الإمامة الكبرى أي الخلافة والإمامة الصّغرى أي إمامة الصّلاة والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف والشّهادة في الحدود والقصاص وفي الأنكحة أي في تعدد الزّوجات وفي النّصيب وفي الميراث وفي التّعصيب فيه وفي تحمّل الفدية في القتل والخطأ وفي الولاية في النّكاح والطّلاق والرّجعة وفي انتساب الأولاد إلى والديهم. فكلّ هذه الأحكام الشّرعية استدلّ بها الفخر الرّازي رحمه الله على كون الله تعالى قد فضّل الرّجال على النّساء.

رابعاً: ولم يكتف الفخر الرّازي رحمه الله ببيان هذين السّببين الرّئيسيين وحصرهما في العلم والقدرة ومن خلال معطيات الأحكام الشّرعية وعلى ما توافق عليه فقهاء عصره. بل وأضاف يبيّن فقرةً ثانية من الآيات سالفة الذّكر وهي قوله تعالى ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ فوضّح رحمه الله بأنّ الله عز وجلّ فضّل الرّجال على النّساء لكون الرّجل يعطي المرأة مهرها من جهة، ولكونه ينفق عليها من جهةٍ ثانية.

أقول: من المؤسف أنّ العلاّمة الفخر الرّازي رحمه الله وعلى علوّ علمه وقدره ومقامه، فهو رحمه الله لم يطّلع على منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره، ولا قام بمناقشة ما وصله من فهمٍ لآيات القرآن

المجيد. كذلك لم يكن قد ظهر من العلوم ما ظهر في زماننا هذا. لذلك كلّه فلو أننا كنّا في زمانه لكناّ قد فهمنا هذه الآية الكريمة من سورة النّساء ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ بنفس ما فهمه الفخر الرّازي رحمه الله منها من معاني أفضليّة الرّجال على النّساء. أما وقد منّ وفضّل الله عز وجلّ علينا بما منّ به وفضّل من تعليم، فقد كان من واجبنا إعادة النّظر ومناقشة أقواله على ضوء ذلك.

. المفهوم الحقيقي لقوامية الرّجل على المرأة:

وقبل أن أدخل في نقاشٍ مع هذه المعاني التي أوردها العلاّمة الفخر الرّازي رحمه الله أرى من المناسب بادئ ذي بدءٍ توضيح وبيان المعاني التي فتحها الله جلّ شأنه عليّ من خلال دلالات قوله تعالى في سورة النّساء ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ فهذا الكلام الإلهيّ الذي أورده تعالى قد ورد فيه كلمة (قوّام) وفهمها المفسرون القدماء بما أسلفناه. فهل صحّ المعنى الذي تبادر من هذه الكلمة لأذهان القدماء؟

أقول: إنّ كلمة قوّام صيغة مبالغة من فعل (قام) المجرّد والذي يعني انتصب واقفاً فإن دخلت الباء على هذا الفعل وقُلت قام فلانٌ بأمر أولاده فمعناه أنّ فلاناً تولّى رعاية أولاده. وبهذا المعنى ورد معنى قوله تعالى في الآية (135) من سورة النّساء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾. فهو تعالى أوصى المؤمنين في

هذه الآية الكريمة بالتزام جانب القسط والعدل والإنصاف على الدّوام في جميع تصرفاتهم. أما صلة الحرف (على) فإذا دخلت هذه الصّلة على فعل (قام) وقيل فلانٌ قام عليه أو على فلانة أو كما هو الحال في قوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فتُحوِّل هذه الصّلة (على) معنى (قام) إلى معنى خرج عليهنّ وراقبهنّ (محيط المحيط). وبما أنّ صيغة ﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ وردت بصيغة المبالغة. فقد أصبح معنى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أنّ الله جلّ شأنه أوجب على الأزواج ضرورة الإنفاق على أزواجهنّ ليس بصورة اعتيادية غير مميّزة. بل الإنفاق عليهنّ بصورةٍ مُبالغٌ فيها تميّزها عمّن سواها ممن هو مكلّفٌ بالإنفاق عليهنّ.

وبما أنّ المعنى الثّاني لكلمة (قوّام على) هو مهمة مراقبة أحوال من يكون الرّجل عليهنّ (قوّاماً) فقد كلّف الله جلّ شأنه هذا الزّوج ألاّ يكتفي بالإنفاق على زوجته بمبالغة ظاهرة، بل وأنّ من واجبه أيضاً رعاية هذه الزّوجة وتفقّد أحوالها ومراقبة كلّ شيءٍ يمتّ إليها وبشكلٍ متميّزٍ أيضاً ومبالغ فيه إشعاراً من جانبه إيّاه بكونه عليها قوّاماً.

والسّؤال الذي يطرح نفسه هنا: لمَ هذه المبالغة المطلوبة من الزّوج في مجال الإنفاق على زوجته وهذه المراقبة المميزة لأحوالها؟ وما هي حقيقة مفهوم مضمون المبالغة نفسه؟ فللإجابة على الطّرف الأول من هذا السّؤال أقدّم أمثلةً حيّةً من الحياة اليومية التي يحياها الإنسان. فبفرض وجود تلميذٍ وهو ما يزال على مقاعد الدّراسة. وكان هذا التّلميذ يهوى فناً من الفنون أو يميل إلى مادةً خاصّة من مواد الدّراسة كالجغرافيا أو

غيرها فإنّ من يحيا معه في المنزل وخارجه يلاحظ كيف أنّ هذا التّلميذ يشبع فنه بأشياء من خارج المنهج المطلوب منه أو يطالع كتاباً من خارج المنهج وتتعلّق بالمادة التي يرغب بالتّوسّع فيها. فهذا التّلميذ والحالُ هذه يبالغ في إظهار ميوله الفنيّة وغيرها من المواد. وبفرض أنّه يوجد تاجرٌ يعمل في تجارةٍ معينةٍ. فإنّ من ظواهر مبالغته في عمله محاولته تجشُّم الأسفار للإطّلاع على هذا النّوع من الاختصاص في كلّ مكانٍ يقصده ويسافر إليه بل ويحاول محاورة جميع من يلتقي بهم من المختصّين في هذا المجال، وهو يسعى من وراء ذلك إلى الامتياز في اختصاصه التّجاري عن أقرانه من التّجّار. فهذا السّعي الدّائب، وتلك المحاولات المتنوعة تدخل في مفهوم المبالغة وفي بذل ما يحتاجه منه اختصاصه.

وبفرض أن يكون هنالك موظّف في الدّولة أو في إحدى المؤسسات ولاحظناه يحضر قبل الدّوام ويداوم بعده وبدون طلبٍ من رؤسائه وبدون أن يتقاضى في مقابل ذلك أجراً وينجز من الأعمال أكثر مما هو مطلوبٌ منه ويدقق في كلّ شاردةٍ وواردة. فإنّ مثل هذا الموظّف يُشار إليه بالبنان على أنه موظّف يبالغ فيما طلب القيام به من أعمال. وبفرض أنّ فتىً وقع في غرام فتاةٍ معينةٍ. فالذين يراقبون تصرفاته لا يلاحظون أنّها تحرّكات فتىً طبيعيٍّ. بل يلاحظونه وهو يسعى للتّواجد حيث وُجدت تلك الفتاة للقائها ومغازلتها وقد يصل به الحال إلى درجة العشق ويصبح في تلك الحال مستحقّاً أن يُقال في حقّه إنّه يبالغ في حبّه لتلك الفتاة.

فهذه أمثلةٌ من واقع الحياة اليومية لبعض النّاس تشرح لنا حقيقة مضمون المبالغة المطلوبة من الزّوج تجاه زوجته سواءً على صعيد إنفاقه عليها وسواءً في مجال مراقبة جميع أحوالها. وعليه يكون الله عز وجلّ حين قال ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ قد طالب من خلال قوله تعالى هذا الفتى المؤمن الذي يعمل على فريضة الزّواج الشّرعيّ أن يعاهد الله عز وجلّ أن يعامل زوجته على صعيد الإنفاق وعلى صعيد المراقبة لأحوالها، أن يعاملها معاملةً تختلف عن معاملة العرب الجاهليين لزوجاتهم. فأولئك الجاهليّون كانوا يعاملون الزّوجة على أنهم أسيادها عقلاً وقدرةً وتكويناً على حين أنّ الإسلام وضّحت آياته الكريمة بأنّ الرّجل والمرأة سيّان في التّكوين النّفسي. فلا فرق بين الرّجل والمرأة إلاّ في التّكوين العضوي وفي أجهزة التّناسل على وجه التّخصيص. وإنّ هذا الفارق الجنسي كان لصالح الرّجل نفسه. فهذه الأم تحمل الجنين في بطنها وهناً على وهنٍ وفصاله عامين على حين أنّ الرّجل لا يحمل ولا يرضع. وقد أبدع الله جسد الزّوجة بفوارق عضويّةٍ طفيفة كانت في صالحه أيضاً. فلا ينبت للزّوجة لحيةٌ ولا شوارب، ولتبدو في عينيه في منتهى الجمال والجاذبية. وإنّ العلم قد كشف على أنّ الفتاة ما إن تبلغ سنّ البلوغ إلاّ وتبدأ تنمو تحت جلدها طبقةٌ دهنيةٌ تعطي قوامها استدارةً وجاذبيةً وهذا أيضاً هو من الأشياء التي هي في صالح الزّوج. وبألفاظٍ أخرى فقد كان من واجب شكر الزّوج لربّه عز وجلّ أن ينفق على هذه الزّهرة التي أوتيها وليتمتّع بها الرّجل القوّام وليتفقّد أحوالها تفقّد الرّجل القوّام وهو أن يختصّها

بإنفاقٍ وبمعاملةٍ مميّزتين مبالغٍ فيهما وليس بصورةٍ اعتيادية لا تمنحه صفة القوّامية على هذا الصّعيد.

فبهذه المفاهيم التي دلّت عليها قوّامية الرّجال على النّساء، يكون الإسلام قد قلب مفهوم ونظام الأسرة الجاهليّ إلى مفهوم نظام زواج يختلف عنه كليّة. فالإسلام قد سوّى ما بين الرّجل والمرأة من جهة. وقد كلّف الزّوج بما لم يكلّف به في الحياة الجاهلية قبل الإسلام من جهة ثانية. وقلب مفهوم الزّوجة من مستعبدةٍ إلى سيدةٍ يُسعدها الرّجل بدلالٍ ورعايةٍ ما كانت لها قبل الزّواج، وبذلك فإنّ الرّجل لم يعد أميراً على المرأة بل عاد قوّاماً عليها في تعاليم الدِّين الإسلاميّ الحنيف.

وأزيد المؤمنين توضيحاً في موضوع مفهوم القوّامية المطلوبة من الأزواج المؤمنين خاصة فأقول: إنّ المميّزات التي حبا الله شأنه بها المرأة من حيث تكوين جسدها، تتمثّل في هذه الجاذبيّة وهذا التّأثير النّفسيّ في نفس الرّجل وإلى درجةٍ تتأثّر به المرأة ذاتها نفسها تأثراً شديداً وبات يدفعها إلى النّظر في المرآة إلى وجهها بإعجابٍ أثّر على تصرّفاتها الشّخصية. فقد باتت هذه الفتاة تطالب زوجها بشراء أدواتٍ للزّينة لها لتزداد بها جمالاً وجاذبيةً، وباتت تطالبهُ بما يساعدها على طمس الموروث في وجهها وعنقها من نقائص تافهة. فإن لاحظ الزّوج ذلك في تصرفاتها فلا ينبغي أن يستغرب ذلك، بل إنّ من واجبه الاعتقاد بأنها تتصرّف تصرّفاً طبيعياً وليس تصرفاً غير طبيعيّ، وأنه تصرُّفٌ قد تسبّبت به تلك الفوارق العضوية التي أبدعها خالقها في جسدها ليس إلاّ. وعلى العكس من ذلك فإنّ الزّوجة التي لا تتصرّف بتلك التّصرفات،

تدلّ على نقصٍ عندها ولا تدلّ على كمال لكنّ هـذا كلّه مطلوبٌ منـها أن تفعله داخل منزلها وليس خارجه.

كذلك نلاحظ بأنّ تكوين المرأة المشار إليه قـد أثّر حتـى علـى طريقـة كلامها وموسيقية ألفاظها. أولم نقرأ الآية (32) من سورة الأحـزاب التـي خاطب الله عز وجلّ فيها نساء النّبي ﷺ وقال لهنّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. فخضوع المرأة في قولها يعني ليونتـها فيـه وإظهار بعضاً من دلالها. وأمّا القـول المعروف، فـهو القـول الـذي تكـون ألفاظه بحسب وضعها اللّغوي ونبرتـه الموسـيقيّة (محيـط المحيط). وعليـه فلا ينبغي أن نستغرب من طريقة التّعبير عند الزّوجـة داخـل منزلـها، فـهي طبيعيةٌ واقتضتها التّغيّرات التي سبق لنا أن ذكرناها وهـي في صـالح الـزّوج وليـس في غـير مصلحتـه. إنّمـا ينبغـي أن تحتـاط المؤمنـة خـارج مـنزل الزّوجية، فلا تخضع لأحدٍ في قولها وأن تقول قولاً معروفاً.

ولذلـك كلّـه أقـول: إن جـهل الـزّوج المؤمـن الـذي يتجـاهل هـذه الحقائق التي أطلعتـه عليـها، والـذي بـدأ يفسّـر حركـات زوجته بتفسـيرٍ ظنيٍّ لا دليل يؤيّده، تنقلـب هـذه المـيزات الممنوحـة للمـرأة شـرّاً عليـها وعليه، وتعكّر صفو جوّهما المنزليّ، وتوقع الشّـقاق بينـهما أيضـاً. لـذا كان من واجب هذا الزّوج المؤمن أن يفسّر كل شـيءٍ يصـدر عـن زوجتـه بظنٍّ حسن ومن منطلق هذه الحقائق التي أطلعته عليها والتي نبّهتنا إليـها آيات القرآن المجيد.

وبعد هذا كلّه الذي بيّناه أقول: إنّ مفهوم القوّاميّة ومفهوم الأنانية لا يجتمعان. بل يجتمع مفهوم القواميّة ومفهوم التّضحية الذّاتية والإيثار. فالرّجل القوّام هو الإنسان الذي يؤثر زوجته في كلّ ما تطلبه منه على نفسه، وهو الإنسان الذي يضحّي براحته في سبيل راحة زوجته. وهو الطّرف المسؤول عن جميع التّصرفات المؤدية لتحديد المدة الزّمنيّة ما بين كلّ ولادةٍ وولادة.

وهنا لربّ سائل يسألني: وكيف ربطت هذه المسؤولية بالزّوج في هذا المقام ولم تربطها بالزّوجة نفسها؟ فأقول في الجواب: إنّ السّبب يكمن في هذا الحذف اللّغوي البلاغي الحادث في قوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾. أفلم تلاحظ يا عزيزي القارئ مفهوم الشّمولية وعدم التّخصيص في قول الله المذكور؟ فلو أنّ الله تعالى كان قد خصّص نواحي المراقبة لكان قد جاز الاعتراض في هذا المقام. أما وقد عمّم وحذف فإنّ هذا قد حدث لتصريف معنى المراقبة إلى جميع نواحي الحياة الزّوجية ومن جملتها ناحية تحديد مدة الحمل أيضاً. خصوصاً وأننا كنّا قد اطّلعنا وبصورةٍ علميةٍ على الفوارق ما بين الأجهزة التّناسلية الكائنة بين الجنسين. فقوة الرّجل الجنسية تتّصف بصفاتٍ لا تتصف بها القوة الجنسّية لدى المرأة. وإنّ من أهم صفات القوة الجنسية لدى الذّكر كونها قوةً فاعلةً ودائمة الفعالية على حين أنها تكون قوّةٌ منفعلةٌ وغير دائمة الفعالية لدى الأنثى. فالرّجل الزّوج إذن هو المسؤول عن المساعدة على تحديد مدّة الحمل بين كلّ ولادةٍ وولادة. لكونه يبقى مستوفزاً جنسياً على الدّوام طالما تعرّضت قوته الجنسية

للإثارة بأيّ طريقٍ كان. أما الزّوجة فإنها تحيض، وتفقد هذه الخاصيّة خلال أيام حيضها، وإنّ فترة حيضها لا تتعدى الأيام التي تفرز حويصلتها فيها البويضة المطلوبة. فلولا هذا الفارق المذكور ولولا هذه المسؤولية الملقاة على عاتق الزّوج، فما كان هنالك من حاجةٍ ليوصيه ربه جلّ شأنه تجنّب مسّ المرأة خلال أيام حيضها. ولكان تركه يستفيد في تلك الفترة قدر الإمكان من ذلك وبما لا يؤذيه. من هذا كلّه نُدرك ضرورة تثقيف الذّكر جنسياً قبل تثقيف الأنثى وذلك لإعانته على تأدية مسؤولية القوّامية تأديةً يعطيها حقّها. وليس أن نشجّع على الزّواج المبكّر شباباً وشابات غير مثقفين هذه الثّقافة الجنسية المطلوبة والتي ستنظّم علاقات الطّرفين على هذا الصّعيد. والاكتفاء بتوجيه اللّوم لهما إن هي صدرت عنهما حركاتٍ مريبةٍ وننهرهما بالقول هذا عيبٌ وذاك عيب. هذا وإنّ من أسباب عدم نجاح العلاقة الزّوجية في أغلب الأحوال. جهل الزّوج المؤمن بمفهوم القواميّة التي منحها إيّاه القرآن المجيد وليصبح الرّجل مرفقاً بالزّوجة ومتفقّدا لأحوالها. وجهل أحد طرفي الزّواج أو كلاهما بالثّقافة الجنسية المطلوبة التي تساعدهما على معرفة كلّ طرفٍ منهما لحدوده ومسؤولياته من جهة ثانية. ذلك أنّ التّكوين العضوي الجنسي المختلف لدى الذّكر عن التّكوين العضوي الجنسي المختلف عنه لدى الأنثى قد أفرز حالة وطبيعة مختلفة لدى كلّ طرفٍ منهما. وإنّ جهل كلّ طرفٍ من الأطراف لهذه الحقيقة تدفعه ليتعامل مع الطّرف الآخر بتعاملٍ يتنافى وطبيعته الفطرية، ويؤدي هذا التّعامل غير الطّبيعي بالتّالي إلى نتائج غير طبيعيةٍ لا محالة.

كيف لا تحدث تلك النّتائج غير السّارّة والتي تساعد على هدم عقد الزّوجية إذا ظنّ الزّوج بعد الزّواج أنه أمير المرأة وسيّدها وأنّ خالقه قد خلقها من أجل أن يفرّج الزّوج لديها عن هيجانه الجنسي وحسب؟ وما أعظم ما ورثناه من أقوال رسولنا الكريم ﷺ الذي ورد فيه قوله ﷺ (ألا رفقاً بالقوارير). فلو أنّ المفاهيم الموروثة عن المفسرين القدماء بشأن مفهوم القوّامية ومسؤولية الأزواج كانت صحيحة. فما كان لهذه الفقرة البليغة في التّعبير والتي نطق بها محمّد رسول الله ﷺ من معنى أن توجّه إلى الأزواج. وهل يُعقل أن يستأجر أحدنا سيارةً للقيام بسفرٍ طويلٍ فإن كانت سيارة الرّحلة هذه مكونةً من زجاجٍ ولا تحتمل أداء المطلوب منها تأديته من حمل للرّكاب ولأثقالهم خلال هذه الرّحلة الطّويلة المطلوبة فهل تلائم تلك السّيّارة الزّجاجيّة رحلته؟ وهكذا فإنّ جملة (رفقاً بالقوارير) تلك التي قد صيغت بصياغةٍ بلاغيةٍ تشبيهيةٍ بليغةٍ تؤكّد جميع هذه المعاني التي أوردتها حتى الآن بشأن مفهوم قواميّة الرّجال على النّساء في الإسلام. وإنّ الأزواج المؤمنين الذين يسلّمون بالمفهوم المتوارث لمعنى القوّامية يستحيل عليهم أن ينظروا إلى زوجاتهم بهذه النّظرة التي هي بغاية الشّفافية والتي عبّرت عنها ألفاظ محمّد رسول الله ﷺ والتي هي (رفقاً بالقوارير). وهل يوجد هناك عاقل قمت فقدّمت له قارورة شرابٍ ليشرب ما فيها فهل يلقيها بلا احتياطٍ بعد شربه ما فيها لتتحطّم حيث ألقاها؟ أما الرّجل المؤمن القوّام الذي يفهم معنى قواميّته الذي سبق لنا أن ذكرناه، فهو سينظر إلى هذه الزّجاجة الشّفافة التي أهديت إليه ليتمتّع بما فيها من شراب، فهو سينظر إليها بكلّ محبةٍ وبكلّ

احتياطٍ بعد إشباع عطشه الجنسي. ثـم إنّ العـاقل منـهم لا يتنـاول كـأس الشّراب دفعةً واحدةً، بل يتناولها على جرعاتٍ عديـدة. وهـذه الحقيقـة نبّه إليها أيضا قولـه ﷺ (رفقـاً بـالقوارير). ذلـك أنّ الـزّوج المؤمـن الـذي يباشر زوجته بدون أن يمرّرها من مراحل طبيعية تؤدي بـها إلـى مـا يريـده منـها، لا يكـون قـد رفـق بـالقوارير في تلـك الحالـة أيضـاً. وعليـه فمـن واجـب هـذا الـزّوج المؤمـن توفـير جـوٍّ نفسـيٍ أولاً لزوجته المؤمنـة وذلـك بإجراء حوار فيه تغزّلٌ بهذه الزّوجة وبمفاتنها والانتقال بعـد ذلـك إلـى دور الملامسة والمداعبة وذلك ليوقظ في هذه الزّوجة ويثير فيـها قوتـها الجنسـية. فهاتان مرحلتان تشكّلان إعدادا نفسيّا وعضويّـا لا بـدّ منـهما قبـل الإقـدام على الخطوة الأخـيرة المقصـودة. فـإن تجـاوز هـذا الـزّوج هـاتين المرحلتـين لقضاء وَطَره، يترك في نفس زوجته آثاراً ضارة ليس في مصلحتـه تركـها في نفسها ويثبت بذلك أنه لا يرفق بالقارورة التي هـي بـين يديـه. فيعصـي الله ورسوله من حيث يشعر أو لا يشعر وهذا بلاء ما بعده من بلاء.

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ ومفهومه:

وصفوة القول هو أنّ قواميّة الرّجل على المرأة قـد صاغـها الله جـلّ شأنه بالمفاهيم التي أسـلفت ذكرهـا ولـم يصغـها بالمفـاهيم الموروثـة التـي كـانت قـد تبـادرت لذهـن العلاّمـة الفخـر الـرّازي رحمـه الله وغـيره مـن المفسّرين المتـأثّرين بالمفـاهيم الإسـرائيليّة. ولقـد أيّـدت الآيـة (223) مـن سورة البقرة ما ذهبت إليه من معاني ذكرتها وبصـورة غير مباشـرة حـين قال تعالى هنـاك ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. وقبل

أن أشرح هذه الآية الكريمة أقوم بشرح ألفاظها ليساعدنا هذا على تدبّر معانيها بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

فالملاحظ هو أنّ الله تعالى أتى بكلمة ﴿ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ في هذه الآية الكريمة بصيغة المصدر وليس بمعناها الحقيقي إنّما بمعناها المجازيّ وقد شبّه الله تعالى إلقاء نطفة الزّوج في رحم زوجته بإلقاء البذور في الأرض المحروثة المعدّة للزّرع. وبذلك يكون الله تعالى في هذا القول بتشبيه بليغٌ قد حدّد به ما يقتضيه مفهوم قواميّة الرّجل المؤمن على هذا الرّجل المؤمن من مهام تجاه زوجته المؤمنة. وكأنّ الله عز وجلّ قد لخّص من خلال هذا التّشبيه البليغ جميع المسؤوليات التي سبق لي أن نبّهت إليها شرحاً وتبيانا لمعنى القواميّة ومسؤوليّتها ومن باب أنّ الفلاّح لا يُلقي ببذاره في الأرض قبل أن يشقّ أرضه بالسّكّة ويسمّدها بكمّية السّماد المطلوب. وهذا يعني بألفاظ أخرى أنّ الزّوج الذي لا يعتني بزوجته الاعتناء المطلوب منه تجاهها والإنفاق عليها على صورة من المبالغة المطلوبة أيضاً وتفقّد أحوالها يكون كمن يحمل قارورة بين يديه ويهشّمها بعد ارتوائه ممّا فيها من شراب. ولذلك فلا ينبغي لهذا الزّوج المؤمن أن يجامع زوجته إلا بعد أن يمرّرها بالمراحل الإعدادية المطلوبة منه إعدادها والتي ذكرناها. فهذه الاحتياطات كلّها مطلوب من الزّوج تأديتها إن شاء أن يسمّي نفسه قوّاماً على زوجته. وإنّ جميع هذه المعاني قد تضمّنتها هذه الصّيغة التي وردت بصيغة المصدر وتضمّنت تشبيها بليغا وهي ﴿ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ وبمعناها المجازي.

وليلاحظ القارئ العزيز كيف أنّ الله عز وجل قد أدخل حرف اللام على ضمير المخاطب وقال (لكم) وهي لام التّعليل، وليعلّل بها ولينبّه ذهن هذا الزّوج المؤمن إلى الحكمة من إبداع خالقه جلّ شأنه زوجته وهي أشبه ما تكون بالأرض التي تصلح للزّراعة وأنّ من حقّها عليه أن يحرثها ويسمّدها ويسقيها وذلك قبل أن يبذر البذور المناسبة فيها لتُنبت له ما شاء إنباته منها. وليس أن يبذر فيها بذور نباتاتٍ لا تصلح لها في بيئتها. وبذلك يكون الله عز وجلّ قد أكمل جوانب هذا التّشبيه المجازيّ الذي تضمّن شرح معاني مفهوم قواميّة الرّجل الزّوج على زوجته والمهمّات المُلقاة على كواهل الرّجال.

ولنلاحظ أيضا كيف أتى الله جلّ شأنه بعد ذلك بفاء الاستئناف فأدخلها على فعل الأمر (فأتوا) وقال ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ ﴾ أي أنه تعالى أدخل فعل الأمر على كلمة الحرث المُستعارة للتّعبير بها عن الزّوجة وليصبح معنى هذا القول الرّبّاني إجازة هذا الزّوج بمجامعة زوجته. فأنت تقول أتى المرأة بمعنى جامعها (محيط المحيط). وكانت الحكمة من استبدال لفظ الزّوجة بكلمة (الحرث) ذات الدّلالات التي تكلّمنا عنها آنفاً لإشعار هذا الزّوج المؤمن بمسؤولية صفة القواميّة الملقاة على كاهله تجاه زوجته وأنّ كلّ تقصيرٍ يصدر عنه في هذا المجال سيرتدّ عليه بالويل والثّبور.

وكأنّ الله عز وجلّ قد خاطب هذا الزّوج بألفاظٍ أخرى وقال له: إن أنت بخلت على زوجتك وعاملتها بمعاملةٍ فيها أنانية وإن أنت لم تعاملها بإيثارها على نفسك. ومن ثمّ إن أنت ألقيت نُطفتك في رحمها في وقتٍ لم

تكن هذه الزّوجة مستعدةً نفسياً ولا عضوياً لهذه العملية، فأنت تصوّر نفسك في مخيلة زوجتك على أنك أشبه بوحشٍ ضارٍ جاء ليفترسها، وتحصد بهذا الأثر الذي تركته في نفسها إذا تراكم مع الأيام تحصد ظاهرة شقاق بينك وبين هذه الزّوجة يحدث لأتفه الأسباب المباشرة.

ولم يكتف الله عز وجلّ بهذا الكلام البليغ المعجز والمستند إلى أساسٍ نفسي علميّ. بل وأضاف يقول ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. وترك بذلك المشيئة في عمليّة التّصرف لهذا الزّوج المؤمن الذي تلقّى جميع ما سلف من مواعظ وليُفترض أنه أصبح مثقّفاً مؤهلاً لمعاشرة زوجته. ترك له حرّية التّصرّف بعد جميع هذا الوعظ والتّوجيه. وهنا استعمل الله تعالى ظرف (أنّى) الذي يجزم فعلين وبمعنى (أين) في هذا المقام. تأكيداً من جانبه تعالى أنه يمتحن هذا الزّوج وبترك الأمر لمشيئته لينظر ربّه كيف سيتصرّف هذا الزّوج المؤمن مع زوجته في مختلف تلك الأحوال.

ومن ثم أتى الله جلّ شأنه بواو العطف وأدخلها على فعل (قدّموا) وقال ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي أنّ الزّوج المؤمن ينطلق في نظرته إلى عقد الزّواج الشّرعيّ وفريضة الزّوجية أقول ينطلق من هذه المفاهيم وهذا المنطلق، فيستغلّ عمليّة الزّواج مطيّة ليعمل بواسطتها على مواعظ ربّه وعلى هدي أوامره عز وجلّ فيقدّم لصالح حياته الآخرة من الثّواب العميم. ذلك أنّ هذه اللام في قوله تعالى هنا ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ وردت موافقةً لمعنى (إلى) أي قدّموا إلى الحياة الأخروية التي ستؤول إليها أنفسكم ثواباً على قدر عملكم على هذه المواعظ وعلى قدر تطبيقكم العمليّ لها.

ومن ثم أتى الله جلّ شأنه بواو العطف ثانية وقال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فأوصى الأزواج بتقوى الله في تعاملهم مع زوجاتهم. وراح تعالى فذكّر هؤلاء الأزواج بالمصير الذي أُمروا أن يسعوا إليه والذي هم صائرون إليه أيضاً وقال ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾. بمعنى أنّ المؤمن الذي يُعامل زوجته بمعاملة الرّجل القوّام عليها بالمعاني التي أسلفنا ذكرها والذي يرجو من وراء ذلك كلّه الفوز بلقاء ربّه عزّ وجلّ يجذب محبّة ربّه ورضاه، وسيفلح هذا الزّوج فيفوز في هذا الابتلاء الذي ابتلاه الله ربّه به ويصبح عند ربّه من المقربين.

ومن ثمّ فقد أتى الله جلّ شأنه بواو العطف للمرة الثّالثة وأنهى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقصد بكلمة (المؤمنين) هذه الأزواج المؤمنين بمفهوم القواميّة سالف الذّكر والمؤمنين بالنّتائج الزّوجية والرّوحية المتوخاة من هذا الزّواج. فأمثال هؤلاء يبشرهم ربهم بزواج ناجحٍ وبرقيٍّ روحيّ.

مناقشة مفهوم الرّازي للقواميّة:

واستناداً إلى جميع ما بينّاه حتى الآن نكون قد تأكّدنا من مصداقية ما فهمناه من قوله جلّ شأنه ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ لذلك أتوجه إلى مناقشة ما فسّر به الفخر الرّازي رحمه الله هذه الفقرة المذكورة من الآية (34) من سورة النّساء.

ألا إنّه رحمه الله استهلّ قوله السّالف الذّكر فأورد شرحاً لغوياً لكلمة قوّام وقال:

" القوّام اسمٌ لمن يكون مبالغاً في القيام في الأمر . يُقال هذا قيّم المرأة وقوامها للذي يقوم بأمرها ويهتمّ بحفظها " .

قال هذا على حين أنّي نقلت ما أورده معجم (محيط المحيط) من أنّ قيّم المرأة هو الذي ينفق عليها ويهتمّ بمراقبة جميع أحوالها ومتطلباتها وبصورةٍ مبالغٍ فيها . أي أنّ الإنفاق على الزّوجة والاعتناء بها هو أحد معاني كلمة قوّام .

ثم إنه رحمه الله استنبط من كلمة قوّام أنّ الله عز وجلّ جعل النّساء مسلّطون على أدب النّساء بمعنى أنّ من واجب الزّوجة التّأدّب بين يدي زوجها وله الحق بالأخذ فوق أيديها لأنه أميرها ونافذ الحكم في حقّها . وقد علّل رحمه الله مفهومه هذا لكون الله تعالى فضّل الرّجال على النّساء في صفتين رئيسيّتين هما العلم والقدرة ولعظم عقولهم في مقابل عقول النّساء .

علّل بهذا التّعليل على حين سوّى الله عز وجلّ في الآية الأولى من سورة النّساء والمصاغة صياغةً بلاغيةً دستوريةً أقول : قد سوّى ما بين الرّجل والمرأة في موضوع التّكوين النّفسيّ . فلا تختلف المرأة عن الرّجل من النّاحية العقلية في شيء . أما إن كان رحمه الله قد فهم من قوله تعالى ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ هذا التّفضيل المزعوم الذي ذهب إليه ذهنه فيكون قد نسب التّناقض إلى كتاب الله العزيز . ذلك أنّ نصّ الآية الأولى من سورة النّساء صريحٌ ولا لُبس فيه وهو قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا

زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ وقد أسلفت شرح هذه الآية الكريمة من قبل بمنهجية القرآن الكريم وبأصول تفسيره ولا حاجة بي هنا لإعادة ذاك الشّرح. فهذا النّص صريح العبارة وينفي وجود أي اختلاف ما بين الرّجل والمرأة في القوى النّفسية والحواس والميول والرّغبات والأهواء. والدّليل هو أنّ تعاليم القرآن المجيد هي واحدةٌ لكلا الجنسين فما ينطبق على الذّكور ينطبق على الأناث. ولا فرق إلاّ فرق الأجهزة التّناسلية لذلك وردت آياتٌ بهذا الخصوص تتناسب مضامينها مع هذه الفروق وبشكلٍ علميّ. وهي حقيقةٌ أتيت على تفصيلها حتى الآن.

فالفخر الرّازي رحمه الله تعالى فهم من قوله تعالى ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ فهم معنى تفضيل الرّجل على المرأة خطأ. فلا تحمل هذه الفقرة ما فهمه الفخر الرّازي منها من تفضيل للرّجل على المرأة. بل هي تعلّل حقيقة ما أفادته كلمة (قوّام) وسأشرح ذلك فيما بعد فإن صحّ ما ذكرته يكون رحمه الله قد أخطأ وقال باطلاً أيضاً. والمعلوم أنّ ما قام على باطل فهو باطل.

والآن أتناول الفقرة الثّانية من الآية لأتدبّرها وهي التي قال الله تعالى فيها ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. فالباء من قوله تعالى (بما) هي باء السّببية وقد أدخلها تعالى على (ما) النّكرة المجرّدة عن معنى الحرف والنّاقصة الموصوفة، والتي تقدّر بكلمة (شيء) خصوصاً وأنها دخلت على الجملة الفعلية ليتعيّن بأنها (ما) الإبهاميّة التي لا عمل لها في هذا المقام.

وهكذا ومن خلال هذا الجار والمجرور (بما) يكون الله عز وجلّ قد راح يعلّل السّبب الذي دفعه ليجعل الزّوج (قوّاماً) ينفق على زوجته ويراقب أحوالها ومتطلباتها. ونتساءل عن هذا السّبب المشار إليه؟ ولا نجد جواباً إلاّ من خلال معطيات قوله تعالى في سورة لقمان ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ بمعنى أنّ الله تعالى راعى كون أنّه أبدع امتياز الزّوجة من النّاحية العضوية لتحمل في بطنها ولتلد ولتُرضع. فأعفاها من مسؤولية تدبير المال اللازم في هذا المجال وألقى بمسؤوليّته على كاهل الزّوج. كما أسند إلى هذا الزّوج أمر مراقبته أحوال زوجته وتحقيق متطلباتها الضّرورية. فهذا هو المقصود من قوله تعالى ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾. وإنّ الجار والمجرور (بما) هو الذي وجّهنا وجهة هذا الفهم الذي ذكرناه. وهو نفسه الذي كرّره جلّ شأنه في مستهل الفقرة الثّانية وقال ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾. وبألفاظٍ أخرى أقول: إنّ الله جلّ شأنه قد أكّد بذلك على أنّ لكلمة (قوّام) معنيان هما: الإنفاق على الزّوجة ورعاية أحوالها وبصورةٍ مبالغٍ فيها وبصورة متميزةٍ أيضاً.

. مسؤوليات الزّوجة المؤمنة:

ولنلاحظ كيف أنّه بعد أن فرغ الله جلّ شأنه من تحديد مسؤوليات الزّوج المؤمن تجاه زوجته المؤمنة أتى تعالى بفاء الاستئناف فنتساءل: ما هو الدّاعي لإيراد فاء الاستئناف في هذا المقام؟ وسنجد الإجابة الصّحيحة إذا تذكّرنا بأنّ هذه الآية الكريمة قد صاغها جلّ شأنه بصياغةٍ بلاغيةٍ دستوريةٍ لتصبح مرجعيةً للقضاء في كلّ شكوى ترفع إليه وتتعلّق

بالإخلال بمسؤولية كلّ من طرفي عقد الزّوجية. إذ الملاحظ هو أنّ الله عز وجلّ حين أنهى كلامه عن مسؤولية الزّوج المؤمن. أتى بفاء الاستئناف ليستأنف كلامه وليحدد مسؤولية الزّوجة المؤمنة. فقال تعالى في هذا الصّدد: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾. فما هي معالم هذه المسؤولية المُلقاة على كاهل الزّوجة المؤمنة؟

ألا إنّ كلمة (فالصّالحات) هي صفة. وهذا يعني بأنّ الله عزّ وجلّ قد أورد هذه الصّفة محذوفا منها الموصول. فإن نحن دقّقنا النّظر ومن منطلق أنّه تعالى راح يحدّد الآن مسؤوليّة الزّوجة في مقابل تحديده لمسؤوليّة زوجها. نصل إلى أنّه تعالى قد حذف كلمة (النّساء) دفعا لتكرارها. ويعود التّقدير: فالنّساء الصّالحات. وعلى وزن (فاعلات) وليشير من خلال هذا الوزن إلى المطلوب منهنّ. فما هو معنى كلمة (الصّالحات)؟

ألا إنّ كلمة (الصّالحات) جمع صالحة واشتقّت هذه الكلمة من قولك: صلُح الشّيء يصلح صلاحا من باب نصر ومنع وفضل وضدّ فسد أو زال عنه الفساد. والصّالح من النّاس هو القائم بحقوق العباد من جهة وبحقوق الله تعالى من جهة ثانية. فإن قلت صلُحت المرأة فتعني أنّها لزمت جانب الصّلاح (محيط المحيط). وعليه فإنّ قوله تعالى: فالنّساء الصّالحات قد حدد أهمّ مسؤولية تتحمّلها هذه الزّوجة وهو أن تقوم بتأدية حقوق الزّوج الجنسية والمنزلية وبتربية أولاده. وفي الوقت نفسه تؤدي ما عليها من فروضٍ تجاه خالقها الذي شرّع للزّوجين هذه العلاقة الزّوجية. فهذه هي دلالة قوله تعالى (فالصّالحات) أي الزّوجات الملتزمة جانب الصّلاح.

وقد وصف الله عز وجلّ النّساء الصّالحات بصفة ثانية ينبغي أن تتوفّر فيهنّ وهي صفة (قانتاتٌ) فما هو معنى كلمة (قانتاتٌ)؟

ألا إنّ هذه الصّفة (قانتات) مفردها (قانتة) وقد اشتقّت كلمة (قانتة) من فعل (قنتَ) ومعناه أطاع وسكت ودعا وقام في الصّلاة وأمسك عن الكلام (محيط المحيط) وبهذه المعاني ورد قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي أطيعوا ربّكم وأعرضوا عن الكلام وقفوا للصّلاة والدّعاء بين يديه تعالى ومتوجهين إليه. فالقنوت في اللّغة يعني الطّاعة والقيام لله والدّعاء بين يديه جلّ وعلا. وقد ورد في حديث رسول الله قوله: أفضل الصّلاة طول القنوت. كما أنّ (القنوت) فيه الدّلالة على المداومة على الشّيء وملازمته والصّبر عليه. وعن مجاهد ﷺ ضرورة الخشوع وخفض الجناح وسكون الأطراف ضمن القنوت.

وعليه فإنّ قوله تعالى (قانتاتٌ) يكون قد حدد المسؤولية الثّانية من مسؤوليات الزّوجة وهو أن تتصف بصفة (القنوت) تجاه زوجها الذي ينفق عليها ويتفقد جميع أحوالها وحاجياتها بمبالغة ظاهرة. فلا تُصادم زوجها ولا تعاكسه بل تحاوره محاورة المحبّ للمحبّ. فإذا أصرّ على رأي يخالف رأيها تعمد إلى الصّلاة النّافلة لتدعو ربها ليُلهم زوجها وجهة الصّواب. فهذا كلّه تضمنه قوله تعالى (قانتاتٌ).

وقد وصف الله عز وجلّ النّساء الصّالحات القانتات بصفة ثالثة ينبغي أن تتوفّر فيهنّ وقال ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ فما هي دلالة ذلك؟ ألا إنّ صفة (حافظات) جمع مفردها (حافظة) وقد اشتقّت هذه الكلمة من قولك حفظ فلانٌ الشّيء ومعناه أنه حرسه ومنعه من

الضّياع. فالحفظ يعني الصّون وترك الابتذال والغفلة وتستعمل خلاف النّسيان (محيط المحيط).

ولنلاحظ بأنّ الله جلّ شأنه لم يورد هذه الصّفة وحدها بل أوردها مضافاً إليها الجار والمجرور (للغيب) ومعرّفاً كلمة الغيب. فأنت تقول غاب الزّوج عن بيته وتعني أنه غادره إلى جهةٍ ما. ومادامت كلمة الغيب وردت معرّفةً بالألف واللام العهدية. يكون الله تعالى قد أشار بهذا التّعريف إلى موضوع مُدَدِ غياب الزّوج عن منزله وتركه زوجته فيه. وما دام الله تعالى قد أدخلَ لام الاستحقاق على كلمة الغيب وهي اللام التي تقع ما بين معنى هو الحفظ وذات هو الغيب. فإنّ قوله تعالى ﴿ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ قد أشار إلى الصّفة الثّالثة المهمة التي ينبغي أن تتصف بها الزّوجة وهو أن تظلّ محافظةً على عهدها معه أثناء غيابه عن منزل الزّوجية، فلا يصدر عنها أيّة خيانة له من أيّ نوعٍ كان أثناء غيابه طال أم قصر. ولنلاحظ كيف أنّ الله عز وجلّ أتبع ذلك كلّه بقوله ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي أنه جلّ شأنه أتى بالجار والمجرور (بما) للمرة الثّالثة وبدلالة الشّيء الذي ذكرناه. فما هو هذا الشّيء؟ دلّ عليه وأشارت إليه ألفاظ ﴿ حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ فماذا حفظ الله وما هو الشّيء الذي حرسه ومن أجل من قام بذلك؟ فهذه الأسئلة ينبغي معرفة أجوبتها وفق منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره. خصوصاً وأنه تعالى حذف مفعول ﴿ حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

ففي هذه الحالة نُراعي الأصل التّفسيريّ المتعلّق بالتّسلسل الموضوعيّ. فالعلاقة المباشرة لقوله تعالى ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ هي تعلّق

هذه الجملة بمسؤوليات الزّوجات اللاتي أتى الله تعالى على ذكرهنّ والتي يتولّد عنها سؤالٌ من طرف الزّوجات وهو: لماذا حمّلنا الله جلّ شأنه هذه المسؤوليات؟ فقد أجاب جلّ شأنه على هذا السّؤال قائلاً ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾. فإن تساءل المرء عن الأشياء التي قام الله تعالى بحراستها ومنعها من الضّياع وعدم الغفلة عنها؟ فلا يجدُ جواباً على هذا السّؤال إلاّ ما قيّد الله تعالى به الزّوج من قيودٍ تجاه زوجته تلك القيود التي تضمنتها كلمة (قوّام). وعليه فكأنّ الله عز وجلّ قد أجاب على الزّوجة التي تساءلت هذا السّؤال السّالف الذّكر وقال: إنني فرضت عليك هذه المسؤوليات في مقابل ما حفظته لك من حقوقٍ عند زوجك حين قلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾. فحذف المفعول حدث بداعٍ بلاغيٍّ لتصريف قوله تعالى ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ إلى أكثر من معنى وليشمل هذا جميع ما يتعلّق بأمور عقد الزّوجية. وعلى هذه الصّورة يكون الله عز وجلّ قد صاغ حتّى اللّحظة مسؤوليات الأزواج والزّوجات بصياغةٍ بلاغيةٍ دستوريةٍ لتُصبح مرجعاً للقضاء في حال مخالفة أحد أطراف عقد الزّوجية لمعطيات هاتين الفقرتين المذكورتين.

وعليه فإنّ خلاصة مسؤوليات الزّوجة وفق معطيات قوله تعالى ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ هو ضرورة قيام الزّوجة بحقوق زوجها وحقوق ربّها وفق معطيات كلمات (صالحاتٌ، قانتاتٌ، حافظاتٌ للغيب) وبما حفظ الله لهنّ من حقوق عند أزواجهنّ.

الفصل الثّامن:

اختلافات الأزواج ووسائل حلها وعماد الحياة الزّوجيّة

وبعد أن أتينا على جميع ما بيّناه في الفصول السّابقة. كان من واجبي أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ عقد الزّوجيّة الإسلاميّ لا يعني أنّه لن تحدث بين الزّوجين المؤمنين اختلافات تؤدّي إلى اضطراب حياتهما الزّوجيّة. فحدوث اختلاف ما بين إنسان وإنسان هو أمرٌ طبيعيٌّ جداً. لكنّ جهل طرفي النّزاع بطرق فضّ الاختلافات وعماد أحكامها هو الأمر غير الطّبيعيّ. لذلك كان من واجبنا الكلام في هذا الفصل عن وسائل حلّ الخلاف ما بين الزّوجين والكلام عن عماد الحياة الزّوجيّة الإيماني.

. وسائل حلّ الخلاف ما بين الزّوجين:

ولم يكتف الله جلّ شأنه بصياغة ما سبق لنا أن ذكرناه بصياغة دستوريّة ولتصبح هذه الآيات ذات مرجعيّة بل وأتى بواو العطف وقال ﴿ وَٱلَّـٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾.

ألا إنّ المفسرين القدماء رحمهم الله الذين لم يكونوا على علم بمنهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره لم يفطنوا هنا إلى أنّ الله عز وجلّ قد صاغ هذه الآية الكريمة صياغةً دستوريةً ذات مرجعيّة ترجع إليها مضامين مختلف الآيات ذات الصّياغة القانونية. وهذه الحقيقة التي جهلوها دفعتهم ليتبادر لأذهانهم من هذا النّصّ سالف الذّكر أنه جلّ شأنه يعظ الزّوج الذي خشي نشوزاً من طرف زوجته أن يتدرّج معها بالخطوات التّالية: أن يعظها أولاً وقد اختلف الفقهاء في مضمون الوعظ المطلوب. فإن لم تستفد من وعظ زوجها إيّاها، وثابرت على نشوزها ولم ينجح مع هذه الزّوجة النّاشز هذان الأسلوبان، فقد سمح القرآن الكريم وعلى حدّ زعم المفسرين القدماء بضربها. علما بأنّه قد اختلف الفقهاء في كيفية الضّرب وفي أداة الضّرب المسموح بها. وذهبوا في ذلك مذاهب شتّى، مما لا أجد من حاجةٍ بي لنقل ما أوردوه بهذا الصّدد.

وفي رأيي، وطالما فهمت أنّ هذه الآية الكريمة قد وردت مصاغة بصياغةٍ دستورية، أكون قد توصّلت إلى أنّ الله عز وجلّ قد أجمل جميع الطّرق والوسائل المؤدية إلى مصالحة الأزواج المؤمنين الذين وقع بينهم شقاق من أنواع مختلفة في هذه الآيات.

وليصبح هذا النّصّ مرجعاً للنّاس لحلّ الخلافات على مختلف أنواعها وبالاستناد إلى معطيات الآيات الكريمة ذات الصّياغة القانونية الواردة في تلك المجالات. وإنّ دليل مصداقية هذا الفهم الذي بيّنته آنفاً هو قول الله عز وجلّ بعد هذه الآية الكريمة مباشرة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ

ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾. فهذه الآية الكريمة قد صيغت بصياغة قانونية لمعالجة الخلاف الحادث بين الزّوجين. على حين أنّ النّصّ الدّستوريّ لم يُشر إلى هذه الوسيلة سالفة الذّكر. فهل يأخذ أهل الزّوج وأهل الزّوجة بحكم هذه الوسيلة لفضّ نزاع الزّوجين قبل بلوغ مرحلة ضرب الزّوج لزوجته أم أنّهم يعمدون إلى هذه الوسيلة بعد نفاذ مرحلة ضرب تلك الزّوجة المسكينة؟

فالباحث المفكّر الذي يأخذ بآراء المفسرين القدماء لا يجد إجابةً مقنعةً على السّؤال المذكور. أما الباحث الذي يفرّق بين هذين النّصين وينظر إلى النّصّ الأول على أنه نصّ مرجعٍ دستوريٍّ، وينظر إلى النّصّ الثّاني على أنه مرجعٌ قانونيٌّ فبإمكانه تقديم الإجابة المقنعة على هذا السّؤال يقيناً.

. السّمات البارزة للشّريعة الإسلامية:

وأنا حين أقول هذه صيغٌ دستوريّة وتلك صيغٌ قانونيّة، فإنّ هذا يضطرّني هنا لتنبيه القارئ العزيز إلى ما تتّصف به الشّريعة الإسلاميّة من سمات بارزة. ذلك أنّ القارئ الذي لم يُحط علماً بتلك السّمات البارزة التي هي للشّريعة الإسلامية لا يستطيع الإحاطة بالمواضيع ذات الصّفة الدّستورية وبالمواضيع ذات الصّفة القانونية. لذلك أرى أن أُعطي القارئ هنا فكرةً موجزةً عن تلك السّمات التّشريعية التي ذكرناها وأشرنا إليها وهي ستة سمات بارزة وهي:

أولاً: سمة الشّمولية: فالسّمة الأولى التي تتسم بها تعاليم الشّريعة الإسلامية هي صفة الشّمولية. وهي سمةٌ تشمل جميع التّعاليم

القرآنية لذلك قد صيغت تعاليم الشّريعة الإسلاميّة بما يصلح للعمل عليها في كلّ زمانٍ ومكان.

ثانياً: سمة التّكامل: وإنّ السّمة الثّانية التي تتسم بها تعاليم الشّريعة الإسلامية هي أنّها تشكّل كلا لا يتجزّأ ويكمل بعضها بعضا فلا يجوز الأخذ بتعليمٍ وترك العمل على تعليمٍ آخر.

ثالثاً: سمة العلميّة: والسّمة الثّالثة للتّعاليم الإسلاميّة تقوم على أنّ تعاليم الشّريعة الإسلامية جميعها ترتكز إلى أسسٍ علميةٍ وليست هي بتعاليم اعتباطيّة. لذلك فإنّ الحقائق العلميّة المكتشفة تخدم التّعاليم الإسلامية على الدّوام وتثبت مصداقيتّها.

رابعاً: سمة تعاليم ذروة ونهايات عظمى: أي أنّ تعاليم الشّريعة الإسلاميّة ليست هي بتعاليم ثوابت من الأحكام الشّرعيّة بل إنّ دون كلّ تعليم دستوري من تعاليم الشّريعة الإسلامية درجات على مستوى التّطبيق العمليّ. فبالنّظر إلى هذه النّاحية فإنّ تعاليم الإسلام اكتسبت صفة المرونة وصفة التّجاوب مع الظّروف والأحوال الطّارئة.

خامساً: السّمة الرّوحية: وأقصد من هذا القول أنّ تعاليم الشّريعة الإسلامية ذات سمة روحية من منطلق كونها جميعها قد أنزلت هادفةً ولتحقيق أهداف روحيّة السّمة ولتربط المخلوق بخالقه برابطة الطّاعة والمحبة.

سادساً: سمة القدوة: وهي سمةٌ اختصّت بها تعاليم الشّريعة الإسلامية وقامت على أساس قول الله عز وجلّ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ

ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب 21. فعمل محمّد رسول الله ﷺ قد شكّل التّطبيق العمليّ لجميع تعاليم الشّريعة الإسلامية وقد سُمّيت هذه الأسوة الحسنة بالسنّة النّبويّة.

فانطلاقاً من هذه السّمات التي أتينا على ذكرها فإنّ قول الله تعالى الذي نحن بصدده وهو ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾. أقول: إنّ هذا النّصّ قد صيغ صياغةً دستوريةً لذلك فهو تعليم ذروةٍ وتعليم نهاياتٍ عظمى وتتصف بالشّمولية. لكنّه توجد دون هذه النّهايات العظمى المذكورة درجاتٌ ودرجاتٌ إن نحن تتبعناها في كتاب الله العزيز نعثر عليها مُصاغةً صياغةً قانونيةً. وقد شاء الله عز وجلّ إشعارنا بهذه الحقيقة التي ذكرتها، لذلك أورد تعالى بعد هذه المرجعية الدّستورية مباشرةً آيةً مصاغةً صياغةً قانونيةً تتضمّن درجةً من الدّرجات التي هي دون هذه النّهايات الثّلاثة التي تضمّنها النّصّ الدّستوريّ وهي الوعظ والهجر والضّرب الذي اشتملت عليه ألفاظ الآية سالفة الذّكر لذلك كان علينا أن نتساءل عن دلالة كلمة (نشوز) فما هو معناها؟

. النّشوز ومفهومه:

والآن أحاول بادئ ذي بدءٍ بتدبُّر ألفاظ قوله تعالى المذكور والذي نحن بصدده.

فلقد قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾. ففعل ﴿ تَخَافُونَ ﴾ اشتقّ من خاف بمعنى فزع وحزر واتقّى وتيقّن. أما كلمة

﴿ نُشُوزَهُنَّ ﴾ فقد اشتقّ من فعل (نشز) حيث تقول نشزت المرأة، والمعنى أنها أبغضت زوجها واستعصت عليه فهي ناشز اسم فاعل.

فمن خلال معطيات معاني هذه الفقرة ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ يكون الله عز وجلّ قد وضع لنا حدّاً فاصلاً ما بين الحدّ الطّبيعي لتعامل الزّوجين وما بين حدّ الخلاف الذي يقتضي المعالجة. فحدوث الاختلاف ما بين الزّوجين في وجهات نظرهما لحلّ مشكل من المشاكل هو شيء طبيعي. وحدوث نسيان أو إهمالٍ لأمر من الأمور هو شيء طبيعي أيضاً. والتّلاوم والعقاب والنّقد هي أمور طبيعية أيضاً. أما أن تتطور الأوضاع إلى حدّ البغض والعصيان فلا يعود الأمر طبيعياً. وظاهرة البغض والعصيان هذه هي التي عبّر تعالى عنها بحالة النّشوز. ولا تقتصر على المرأة، بل وتشمل الرّجل أيضاً. لذلك نلاحظ قول ربّنا عزّ وجلّ في موضع آخر من سورة النّساء يقول ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

. الوعظ وسيلة بين أيدي الزّوجين وعلاج:

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى ما إن فرغ من تحديد الحدّ غير الطّبيعي الذي يصل إليه الزّوجان في تعاملهما اليوميّ، إلا وأتى تعالى بفاء الاستئناف وأورد لهذين الزّوجين أبسط درجات التّعبير عن بلوغ هذا الحدّ من الاختلاف المشار إليه وقال (فعظوهنّ). والوعظ

في لغة العرب يعني النّصح والتّذكير وما يليّن قلب الموعوظ ويساعده لينساق إلى التّوبة وإصلاح ما فسد. علماً بأنّ وسيلة الوعظ هذه كعلاج هي وسيلة مشتركة ما بين طرفي عقد الزّواج الإيماني ومتوفّرة موادها لدى كلّ واحدٍ منهما فيما إذا بلغ الاختلاف بينهما حدّ النّشوز. ثم إنّ الوعظ والتّذكير هو علامة محبّة وودٍ من طرف الواعظ وليست هي علامة عداوة وبغض واحتقار. فأنت تعظ أبناءك وترشدهم إلى سواء السّبيل حبّاً بهم ورعايةً لهم ومن منطلق محبتك لهم. لذلك فإنّ الله عز وجلّ يوجّه طرفي الزّواج إلى أنّ اختلافاتهم إذا بلغت حدّاً غير طبيعي والذي عبّر عنه بكلمة النّشوز. فمن واجب أحد هذين الطّرفين ألاّ يدع الأمور تتفاقم وتبلغ مرحلة الانفجار، بل أن يبدي أحد الأطراف محبّته الصّادقة للطّرف الآخر الذي تصرف هذا التّصرّف غير الطّبيعي. وأن يعمد إلى وعظه وتذكيره بالقواعد والأسس الإيمانية التي قام عليها أساس زواجهما الشّرعي وأن يعظه وبمختلف أشكال الوعظ وإلى حدٍّ تليين قلب الطّرف الموعوظ وسوقه إلى التّوبة والتّراجع عمّا صدر عنه ولإصلاح ذات البين بينهما وليس ترك الأمور تزداد تعقيداً بإلقاء البارود على النّار المشتعلة لتزداد اشتعالاً. فبلوغ الاختلاف ما بين الزّوجين حدّ نشوز أحدهما أي ظهور بوادر بغض أحد الطّرفين للطّرف الآخر وعصيانه لأوامره، إنّ بلوغ أحد الطّرفين هذا الحدّ غير الطّبيعيّ. لا ينبغي أن يُواجهه الطّرف الآخر بموقف نشوز مثله، ولا أن يفكّر بالافتراق عن الطّرف الآخر وطلب الطّلاق ونسيان توجيهات الله تعالى إيّاه بهذا الخصوص. بل إنّ من واجب الطّرف الثّاني المؤمن حينئذٍ أن

يتواضع ويبدي تجاه ربّه صحوةً إيمانيةً ويعمد للأخذ بالوسيلة الأولى التي تضمّنتها هذه النّهاية العظمى الأولى من تعليم هذه الآية الكريمة والتي اختصرها الله جلّ شأنه بكلمة واحدة قائلاً (فعظوهنّ). فيعود هذا الزّوج إلى رشده ويتذكّر بأنّ ما جرى هو مجرد امتحانٍ وابتلاء للطّرفين من قبل الله تعالى الذي فرض عليهما فريضة الزّواج الشّرعي. فإن قام هذا الطّرف وأخذ بهذه الوسيلة الأولى التي تضمّنتها كلمة (فعظوهنّ) وأخذ يعظ الطّرف الآخر ويليّن قلبه ينجح في هذا الابتلاء ويفوز بمحبّة ربّه ورضوانه.

ولا يعني قيام طرف بوعظ الطّرف الآخر أن يعمد هذا الطّرف إلى التّرغيب والتّرهيب الذي يتضمنه التّبشير والإنذار الذي يقوم به أنبياء الله الكرام. بل إنّ الوعظ في لغة العرب يعني النّصح والتّذكير لتحقيق مقصدٍ معيّن، وهو أن يساعد على تليين فؤاد الموعوظ. كأن يذكّره بوجود ربه وبما يترتب على عصيانه من عقاب وأن يذكّره بما يضمر له هو من محبةٍ واحترامٍ، وبتذكيره بالنّتائج الوخيمة التي تترتب على عملية اضطراب عقد الزّوجية، ويبدي من الاستعداد من جانبه كلّ تضحيةٍ يطلبها منه هذا الجانب الآخر لينساق نتيجةً لذلك إلى التّوبة وإلى إصلاح ما فسد، وليصبح وعظه وعظاً حقيقياً مثمراً.

إنّ هذه الوسيلة الأولى التي سلّحتنا بها هذه الآية الكريمة المصاغة بصياغةٍ دستوريةٍ، تتميز بها تعاليم الإسلام الحنيف على غيرها من التّعاليم. وللأسف لم يُحط بمضمونها أسلافنا رحمهم الله تعالى إحاطةً تامة. فالشّافعي ﷺ على سبيل المثال قال:

" أمّا الوعظ فإنه **يقول لها** : اتّقي الله فإنّ لي عليك حقاً وارجعي عمّا أنت عليه واعلمي أنّ طاعتي عليك فرض ونحو هذا ، ولا يضربها في هذه الحالة لجواز أن يكون لها كفاية" .

وإنّ كلماته هذه تحمل معنى الفوقية والتّهديد . ولا يستسيغها معنى كلمة فعظوهنّ هذا الفعل الذي يعني النّصح والتّذكير فيما يُليّن قلب الموعوظ ويساعده لينساق إلى التّوبة وإلى إصلاح ما فسد من أموره . هذه المعاني التي تتطلّب من هذا الطّرف الواعظ التّواضع وإظهار الأسف على ما حدث والتّذكير بأواصر المحبة والمودة التي ولّدها عقد الزّوجية بين طرفي هذين الزّوجين المؤمنين .

وإنّ هذه الوسيلة الأولى المشار إليها ، قد سلّح الله تعالى بها طرفي الزّواج كيلا يتسبب اختلافهما في وجهات نظرهما وظواهر الإهمال الحادثة بينهما وما يترتب على ذلك من عتابٍ وتلاومٍ . كيلا تتسبب هذه الأمور الطّبيعية بتعكير صفو الودّ والمحبة والرّحمة التي يولّدها عقد الزّوجية الشّرعي ما بين فؤاد كلّ ذكرٍ مؤمنٍ وكلّ أنثى مؤمنة .

. مفهوم (واهجروهنّ في المضاجع):

وبما أنّ نفوس الأفراد تختلف في قواها العقلية وفي مدى تحمّلها للمشاكل والصّعوبات . وتختلف في درجات تقوى الله تعالى وخشيته أيضاً . وإلى درجةٍ لا يُثمر معها أثر الوعظ بالمفاهيم التي أوردناها ، ويصعب بالتّالي عودة الأمور إلى مجاريها الطّبيعية بهذه الوسيلة التي سمّاها كتاب الله العزيز وسيلة (فعظوهنّ) . فقد سلّحنا الله جلّ شأنه

بوسيلة أكثر وقعاً وتأثيراً في النّفوس، وعبّر الله تعالى عنه بقوله ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ ولتشكّل هذه الوسيلة نهايةً عظمى ثانية من الوسائل الثّلاثة التي تضمّنتها هذه الآية ذات النّص الدّستوري. علماً بأنّ ربنا عز وجلّ يصف هذه الوصفة للرّجل القوّام، ويصفها للزّوجة الصّالحة القانتة التي تحفظ نفسها ومنزلها في غياب زوجها. فالله جلّ شأنه يُطالب هذا الرّجل القوّام أن يعمد إلى وسيلة هجر زوجته في مضجعهما إن هو لم يؤثّر فيها ما وعظها به وفيما لم يحقق وعظه المقاصد المرجوّة منها. فما هو معنى قوله تعالى واهجروهنّ؟

ألا إنّ فعل الأمر (واهجروهنّ) قد اشتقّ من قولك هجر فلانٌ فلاناً ومعناه صَرَمه وقطعه وضدّ وصله. أما إذا قلت: هجر فلانٌ زوجته فمعناه أنه أعرض عن وصالها واعتزلها جنسياً لكنّه لم يطلّقها (محيط المحيط). وهذا يعني أنّ الله عز وجلّ وكأنه خاطب هذا الزّوج وقال له بألفاظ أخرى أنه إذا لم يجد وعظه لدى زوجته المؤمنة صدى، فليعمد إلى وسيلةٍ أكثر حساسية وتشكّل في حقيقتها المحور الذي يدور حوله عقد الزّوجية ألا وهو رابطة العلاقات الجنسية الذي اقتضاها هذا الفارق العضويّ في أجهزة الطّرفين التّناسليّة والتي تفرّق ما بين ذكر وأنثى. هذه العلاقات الجنسية التي ارتبطت بالمضاجع بصورةٍ طبيعيةٍ لدى الجنسين. علماً بأنّ كلمة (مضاجع) هي جمعٌ مفرده (مضجع). والمضجع يعني لغةً موضع الاضّطجاع خلال ساعات النّوم. وبما أنّ الله عز وجلّ أورد حرف الجر (في) وقال ﴿فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ فقد أكّد على الأخذ بهذه الوسيلة الجديدة خلال ساعات النّوم في المضجع، وليس أن يترك الزّوج الدّار

لينام في منزلٍ آخر غير منزل الزّوجية. ومن باب أنّ القوى الجنسية تستيقظ وتستوفر في فراش الزّوجية حيث تتوفّر الإثارات بمختلف أنواعها. فمن المعلوم أنّ الإثارات الجنسية غالباً ما تطغى على العلاقات العقلانية في كثيرٍ من الأحيان. فالزّوجة التي تأذّت من أمورٍ صدرت عن زوجها وقلّلت من محبّتها إيّاه نهاراً ووقفت منه موقف نشوزٍ. إنّ هذه الزّوجة إذا ما استلقت في مضطجعها ولاحظت هجر زوجها لها فيه. فإنّ الإثارات الجنسية تعمل بصورةٍ طبيعيةٍ على إطفاء نار بُغضها وعصيانها، وتُؤهّلها لنسيان ما أثارها نهاراً، وتتمنّى أن تعود المياه إلى مجاريها. وهنا يأتي دور (الهجر في المضجع) ليخفف مما حدث نهاراً وليعمل على إصلاح ذات بين الزّوجين. هذا فيما إذا أحاط الزّوج بالمفهوم الحقيقي لهذه الوسيلة الثّانية المذكورة وعمل عليها. فهذه حقيقة علمية جهلها أسلافنا القدماء رحمهم الله تعالى أولئك الذين انطلقوا من مفهومٍ (القوّامية) وفق ما أورده العلامة الفخر الرّازي رحمه الله في تفسيره الكبير. وفهمهم قوله تعالى ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ وفق ما ذهب إليه الشّافعي ﷺ مدفوعاً بنفس التّفسير. ومتناسين قول رسولهم الكريم (لا ينبغي أن يهجر المؤمن أخاه لأكثر من ثلاث)، وهذا يفيد في أنّ الزّوج إذا هجر زوجته في المضجع فلا ينبغي أن يهجرها أكثر من ثلاثة أيّام. فإن كانت تحبّ الزّوج شقّ ذلك عليها فتترك النّشوز. وإن كانت تُبغضه وافقها ذلك الهجران، وعاد حالها ذاك دليلاً على كمال نشوزها.

وهنا ينشأ سؤال وهو: فماذا يفعل الزّوج إن ظلّت زوجته على نشوزها؟

وفي رأيي أنّ من واجب الزّوج حينئذٍ أن يعمد إلى ما يفعله الأطفال الأبرياء حين يختلفون ويقاطع بعضهم بعضا. فهم يبحثون عمّن يأتي ليوفّق بينهم من جديد. فليقلّدهم الزّوج ويضطجع في اللّيلة الرّابعة وعلى صورة تثير في زوجته قواها الجنسيّة وأن يقوم بحركات وتأوّهات تشعرها أنّه ما يزال يُكنّ لها المحبّة والوداد. وأن يدأب في سرّه على الدّعاء من ربّه أن يجمع الشّمل من جديد. ولربّما تعود زوجته في تلك الحالة إلى رشدها وتوقن بأنّها تكاد تفقد شيئاً عزيزاً على قلبها. فإن أفلح في ذلك فقد انتهى الخصام.

ولا ينبغي أن نفهم من هذا أنّ النّشوز لا يظهر إلاّ من جانب الزّوجة. بل ويظهر من جانب الزّوج أيضاً. ومن واجب الزّوجة حينئذ أن تخطو نفس هذه الخطوات التي نصّت عليها هذه الآية الكريمة وتفعل نفس ما أشرنا به على الزّوج أن يفعله. وفي هذا المجال فقد تطرّق الله تعالى إليه وقال في الآية 128 من نفس سورة النّساء ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

ولتلاحظ الزّوجة بأنّ الله عز وجلّ ينصح هذه الزّوجة المؤمنة أن تميل إلى الصّلح مهما تعدّدت الأسباب التي دفعت زوجها إلى حالة النّشوز. ومن واجبها أن لا تفكّر في الافتراق عنه. بل أنْ تعمد إلى الوسائل والخطوات التي سلف لي أن ذكرتها لتعود الحياة الزّوجيّة إلى مجراها الطّبيعي. وأن تنطلق في ذلك من (تقوى الله تعالى) وليس من

منطلقٍ آخر سواه. وتقوى الله تعالى يذكّرها بأنّ الله ربّها قد جعل في أصل فطرة الزّوجين (مودّةً ورحمة) ـ سورة الرّوم الآية 21 ـ علما بأنّ هاتين الصّفتين تشكّلان أساس نجاح عقد الزّوجيّة الشّرعي.

ماذا قصد تعالى من قوله ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾؟

هذه الوسيلة ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ وردت في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها كوسيلة أخيرة. علماً بأنّ ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ وردت عامّة الدّلالات وبصيغة دستوريّة مرجعيّة وكحكمٍ شرعيّ يشكّل نهاية عظمى دونه درجات ودرجات.

ثمّ إنّ كلمة (ضرب) تعني لُغةً إيقاع شيءٍ على شيءٍ آخر. وباقي المعاني متفرّعة عن هذا المعنى (محيط المحيط). وما دامت كلمة ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ لم يقيّدها الله تعالى باستعمال وسيلة معيّنة، فقد شكّلت هذه الحقيقة معجزةً بيانيّة. ومادام الله تعالى قد حذف مضاف هذه الكلمة فقد أفاد ذلك في تصريف معناها إلى أكثر من معنى. وتبدأ هذه المعاني من طرح كلمة جارحةٍ إلى التّدرّج والوصول إلى استعمال أداة. علماً بأنّ وسيلة (الضّرب) هذه وردت بعد استيفاء الزّوج للوسائل السّابقة من وعظ وهجر ومحاولة ترميم.

وينشأ هنا سؤال من جديد وهو: هل أنّ مرحلة الضّرب بالمفهوم الذي ذكرناه يأتي بعد وسيلتي الوعظ والهجر مباشرة؟

أقول: لقد أوردت الآية 35 من سورة النّساء مرحلة وسيطة مصاغة بصياغة دستوريّة أيضاً وقال الله تعالى فيها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ

بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾.

فليلاحظ القارئ العزيز كيف أنّ الله تعالى لم يورد في هذه الآية كلمة (نشوز) بل أورد كلمة (شقاق) هذه الكلمة التي تعني خلافاً ومخاصمة. علماً بأنّ الخصام دون النّشوز، ويقع عندما تحدث خلافات طبيعيّة بين الزّوجين ويعجزان عن حلّها بالحوار لذلك تبلغ حدّ الشّكوى إلى الأهل.

ويقترح الله عز وجلّ في تلك الحالة أن يجتمع حكمٌ من طرف الزّوج وحَكَمٌ من طرف الزّوجة لفكّ الاختلاف الحاصل ما بين الزّوجين. ويبشّر الله تعالى هؤلاء الذين يعمدون إلى هذه الوسيلة في إصلاح ذات البين بأنّه تعالى يكتب لهم التّوفيق من منطلق أنّه تعالى ﴿ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

وينشأ هنا سؤال آخر وهو: فماذا يفعل الزّوجان إن كان أهل أحد الزّوجين في عالم الأموات؟

أقول: إنّ وسيلة (فاضربوهنّ) تأتي فعّاليّتها في تلك الأحوال ولكن بالمفاهيم التي قدّمتها قبل الخوض في هذه الأسئلة وأجوبتها. أي بمعنى أنّ وسيلة (واضربوهنّ) حكم نهاية عظمى ودونه درجات، ويبدأ بجرح اللّسان كأقلّ وسيلة إيقاع شيء على شيء. وعلى كلّ حال فإنّ بلوغ اختلاف الزّوجين المؤمنين هذه الدّرجة من خصام نادر الحدوث إن كان إيمانهما قائم على أساس من وعي ومن تقوى الله تعالى.

الفصل التَّاسع:

عماد الحياة الزّوجية الإيمانيّ

لابدّ وأن تكون يا عزيزي القارئ قد أخذت فكرة واضحةً في الفصول الماضية عن الزّواج الشّرعيّ وحقوق كلّ طرف من أطرافه ووسائل فضّ ما يحدث من اختلافات بين الزّوجين المؤمنين. وبعد أن أوصلتك إلى هذا الحدّ من البيان، تتوق نفسك إلى معرفة ضوابط شخصيّة كلّ طرف من طرفي الزّواج الشّرعي. هذه الضّوابط التي بقدر ما تكون متينة بقدر ما يستمرّ عقد الزّوجيّة متيناً ويظلّ طرفاه على وئام باستمرار. وسأدلّك على هذه الضّوابط الإيمانيّة التي تشكّل عماد الحياة الزّوجيّة الإيمانيّ من معطيات آيات كتاب الله العزيز الذي فرض على المؤمنين هذه الفريضة وأرفقها بأحكامها أيضاً.

فالضّابط الإيمانيّ الأوّل تضمّنته الآية **221** من سورة البقرة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

فهذه الآية الكريمة تضمّنت الضّابط الإيماني الذي إذا راعاه المؤمن والمؤمنة يتجنّبان كثيراً من الاختلافات التي تعكّر صفو حياتهما يقينا. وقد نبّه الله عز وجلّ من خلال هذه الآية الكريمة إلى ضرورة توفّر عنصر التّكافؤ الإيماني ما بين الزّوجين ليعين ذلك على تجنّب الشّدّ والمدّ الذي يحدث ما بينهما إن هم لم يراعياه عند عقد الزّواج. فالاختلاف في العقيدة الإيمانيّة يلعب دوراً أساسيّا في مجال الاختلافات الزّوجيّة التي تقع ما بين الزّوجين بعد إنجاب الأولاد ومحاولة تربيتهم تربيةً إيمانيّة صحيحة. إذ يصعب على طرف أن يستسلم لتوجيهات طرف آخر يختلف معه في عقيدته. ولقد وضّح الله عز وجلّ هذه الحقيقة حين قال في هذه الآية ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ والقصد من ذلك هو أنّ المقصد من الحياة هو الذي يحدّد أطر السّلوك البشريّ. فالمشرك بالله تعالى يجهل في حقيقة أمره أبعاد صفات خالقه الحقيقيّة ويكون بالتّالي بعيدا عن أسس السّير الرّوحيّ ولا يفهم معنى طلب التّقرب من الله تعالى ولا معنى محاولة الفوز بمحبّته تعالى وقربه ورضوانه. وبعيدا بالتّالي عن تلقّي بشارات ربّه عز وجلّ أي أنّه يكون فاقداً مقوّمات سلوك الطّريق المؤدّي إلى الجنّة واستحقاق المغفرة من جانبه سبحانه وتعالى.

ولقد وضّح الله تعالى الحكمة من موعظته آنفة الذّكر حين أنهى هذه الآية الكريمة بقوله ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾. بمعنى أنّ التّمسّك بمعطيات وعظ هذه الآية الكريمة يكشف عن واسع علم الله تعالى وعن معرفته بحقائق الأشياء كما يكشف عن معرفته

تعالى بعماد الحياة الزّوجيّة القائمة على تكافؤ معتقدات كلّ طرف من طرفي عقد الزّوجيّة الإيماني. هذا وإنّ هذه الموعظة تشكّل جانباً سلبيّاً.

ولقد أورد الله تعالى موعظةً ذات جانبٍ إيجابيٍّ في مجال عمليّة عقد الزّوجيّة الإيماني. وقد تضمّنت الآية 36 من سورة النّساء هذا الجانب الإيجابيّ والتي قال الله تعالى فيها: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

فالقارئ الذي يراجع سباق هذه الآية وسياقها وموضعها من تسلسل الآيات الموضوعي يعسر عليه أن يجد رابطة موضوعيّة لهذه الآية الكريمة وسط سباقها وسياقها لكنّ هذا القارئ الذي لم يُحط علماً بحقيقة دلالات هذه الآية من أكثر من زاوية نظر يعسر عليه إدراك موقعها الحقيقي من تسلسل الآيات الموضوعي. فالواجب أن ننظر إلى مضمون هذه الآية من منظار علاقتها بنظام الزّواج وفهمها على ضوء ما للقرآن الكريم من خصائص متميّزة معجزة. ومن منظار منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

فإن نحن نظرنا إلى هذه الآية الكريمة وتدبّرناها من منظار ضوابط الحياة الزّوجيّة وعمادها. ندرك بأنّ الله عز وجلّ أفادنا من خلال مضمون هذه الآية الكريمة بالوجه الإيجابي الذي يشكّل ضابطة الحياة الزّوجيّة الإيماني وعمادها. فليلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى لم يقل في الفقرة الأولى من هذه الآية إنّ عماد الحياة الزّوجيّة يدور حول

الاعتقاد بوحدانيّة الله تعالى بل صاغ هذه الفقرة بصيغة الأمر وقال ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ﴾ أي أنّه تعالى لم يُصغ هذه الفقرة بإنشاء إخباريٍّ بالنّظر إلى أنّ الزّوجين مؤمنين أصلا بوحدانيّة الله عز وجلّ. ثمّ إنّ فعل الأمر (اعبدوا) معناه أطيعوا إلهكم الأحد الذي لا شريك له وذلّوا وتذلّلوا بين يديه واخدموا دينه وألزموا أنفُسكم بالعمل على ما شرّعه لكم من أحكام في كتابه العزيز ووحّدوه بصورة عمليّة (محيط المحيط).

وإنّ هذا الأمر (اعبدوا) يشمل الطّرفين الزّوج والزّوجة في آنٍ واحد. تأكيدا عليهما بضرورة الالتزام بهذه المقوّمات في تعاملهما لكون هذه المقوّمات تشكّل عماد الحياة الزّوجيّة. فإن التزم الزّوج بهذه المقوّمات يدفعه ذلك ليثبت على الدّوام أنّه قوّام على زوجته. وإن التزمت الزّوجة بهذه المقوّمات يدفعها ذلك لتظلّ صالحةً قانتةً محافظة على غيب زوجها بصورة عمليّة أيضاً. وعليه فلا يعود يصدر عن أحد من طرفي الزّوجيّة ما يدعو الجانب الآخر للشّكوى والمرارة.

تسألني يا عزيزي القارئ: وما معنى أن يضيف الله تعالى في هذه الآية ويقول: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾؟ أقول: لقد أمر الله تعالى بذلك الأمر بسبب أنّ الوالدين يلعبان أحيانا كثيرة دورا في إحداث اختلافات ما بين الزّوجين وبصورة لا شعوريّة من حيث يريدان أو لا يريدان. فأمر الله تعالى كلّ طرف من طرفيّ العقد الزّوجيّة أن يجعلا دأبهما الإحسان إلى والدي الطّرف الآخر فيقولا لهما قولا حسنا ولا يتأفّفا ممّا يصدر عنهما بشكل من الأشكال. ومن منطلق أنّ ربّهما يبتليهما ويمتحنهما

على هذا الصّعيد أيضا فبالتزامهما جانب ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ يجذبان محبّة ربّهما وقربه ورضوانه.

وبهذا الفهم وعلى أساس منه نفهم السّبب الذي دفع ربّنا عز وجلّ ليضيف على هذين الأمرين الإلهيّن ثمانية أوامر مضافة قائلا ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ أي أنّ الإحسان المطلوب من طرفي عقد الزّوجيّة يشمل هؤلاء جميعهم أيضا بهذا الأمر الإلهيّ سالف الذّكر. هذا وبهذه المفاهيم ندرك حكمة إنهائه تعالى هذه الآية الكريمة بقوله عز وجلّ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾. فهو تعالى أتى بحرف التّأكيد (إنّ) من جهة وليؤكّد على طرفي عقد الزّوجيّة أهمّية أوامره تعالى هذه. ومن جهة أخرى فقد أتى تعالى بقوله (لا يحبّ) تنبيها لأذهان هذين الطّرفين إلى أهمّية موضوع جذب المحبّة الإلهيّة من وراء العمل على أحكام الله وتعاليمه. ومن جهة ثالثة نفّر سبحانه وتعالى هذين الطّرفين من الوقوع في مرض الاختيال لقوله ﴿ مُخْتَالًا ﴾ الذي يعني التّكبّر والعجب والتّفاخر بالنّفس والنّفيس. ومن الوقوع في مرض الافتخار لقوله ﴿ فَخُورًا ﴾ الذي يعني مدح النّفس بما تتصف به من خصال حميدة والتّباهي بالمناقب والمكارم والحسب والنّسب (محيط المحيط).

وعليه وبهذه الصّياغة البلاغيّة المعجزة وبهذا الأسلوب من التّرغيب والتّرهيب يكون الله عز وجلّ قد أورد الوجه الإيجابي لعماد الحياة الزّوجيّة الإيمانيّ الذي إن أخذ به الزّوجان وعملا عليه يتجنّبان الوقوع في كثير من الاختلافات التي تؤدّي أحياناً إلى فكّ عقد الزّوجيّة في أغلب الأحيان.

وهكذا أكون قد أطلعتك يا عزيزي القارئ على الأسس التي شكّلت عماد الحياة الزّوجيّة الإيمانيّة ولتدرك من ورائها الأسباب الحقيقيّة التي تسبّبت بهذا الانفلات الحادث في المجتمعات الإسلاميّة المعاصرة وحدوث سيلٍ من الاختلافات ما بين الأزواج يكاد يكون من المستحيل علاجه بدون الرّجوع إلى هذه التّوجيهات والوعظ الإلهيّ. وجهلهم حقيقة فلسفة الحياة الدّنيا وبعدهم عن تحقيق المقصد الأسمى للحياة البشريّة.

. تلخيص مضامين هذا الباب الأوّل:

والآن ألخّص لك يا عزيزي القارئ ما بيّنته لك في هذا الباب الأوّل من كتاب نظام الزّواج في الإسلام، هذا البحث الذي تقيّدت فيه ببحث ما اقتضته خطّة البحث التي وجّهتنا إليها الآية الأولى من سورة النّساء المصاغة صياغة دستوريّة بلاغيّة والتي تعدّ الأصل والمرجع لمضامين آيات سورة النّساء بوجه عام. هذه الآية الكريمة التي لم يُحط المفسّرون القدماء حقيقة مضمونها الأمر الذي تسبّب بشيوع كثير من المخالفات في المجتمعات الإسلاميّة وحتّى اليوم.

ألا إنّ الآية الأولى من سورة النّساء قد فسّرت للقارئ فلسفة نظام عقد الزّوجيّة الإسلاميّ. لافتةً أنظاره إلى ما أورده الله تعالى في الآية **49** من سورة الذّاريات ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. بمعنى أنّ استمرار الحياة على شتّى صُعد الحياة على صعيد النّبات وعلى صعيد الحيوان وعلى صعيد الإنسان اقتضى إيجاد نظام زواج لكلّ نوع من هذه الأنواع من الحياة. وأنّ اختلاف أجهزة التّناسل لدى كلّ نوع منها فقد أبدعه الخالق لتحقيق هذا المقصد الذي ذكرناه.

والمعجز في صياغة الآية الأولى من سورة النّساء أنّها وضعت من خلال ترتيب مضامين فقراتها خطّة بحث وجّهت العالم الباحث من خلاله للالتزام بما تضمّنته هذه الخطّة من عناوين إن هو جلس يبحث في موضوع نظام الزّواج الإسلامي. وهي الخطّة التي التزمت بعناوينها فيما أوردته في هذا الباب الأوّل من هذا الكتاب.

فالفصل الأوّل من هذا الباب والذي شكّل الحلقة الأولى من بحثنا هذا، قد تناول موضوع المساواة ما بين الرّجل والمرأة وحقيقته. وكيف أنّ القرآن المجيد قد قال بهذه المساواة في هذه الآية الكريمة وخلافاً للموروث عن المفسّرين المسلمين القدماء الذين لم يفهموا مضامين هذه الآية على حقيقتها.

ومادام اختلاف الأعضاء التّناسليّة قد اختلف لدى الجنسين بغاية التّزاوج والتّكاثر فقد اقتضى ذلك من جانبي الكلام في الفصل الثّاني من هذا الباب الأوّل عن كيفيّة تخلُّق الذّكر والأنثى من نطفة هذا الإنسان. لذلك قمت في هذا الفصل الثّاني بتوعية الجنسين توعية جنسيّة قائمةً على حقائق العلم الحديث. فوضّحت مفهوم كلمة (نطفة) وبيّنت استعمالات هذه الكلمة في كتاب الله العزيز. كما بيّنت حقيقة النّطفة (الأمشاج) التي اختصّت بالإنسان من دون الحيوان. وتكلّمت بقدر الإمكان عن مكوّنات النّطفة الأمشاج وعن مكان تواجدها.

وأمّا في الفصل الثّالث من هذا الباب فقد كان من الضّروريّ جدّاً تثقيف الزّوجين بموضوع كيفيّة تلقيح بويضة الأنثى الكائن المنوي وعلى ضوء معطيات علم تشريح الأعضاء ومعطياتها العلميّة أيضا. ليتمكن

هذان الزّوجان من وعي ما يحدث بعد الجماع وتجنّب ما يؤثّر على ذلك بصورة سلبيّة. وإنّ بيان هذه الحقائق اقتضى من جانبي أن أعظ الزّوجين بالإضافة إلى ما بيّنته لهما بمواعظ وجّهتنا بها آي الذّكر الحكيم. وعليه فقد أضفت في هذا الفصل الثّالث ستة مواعظ هي من هذا القبيل. راجيا من الله تعالى أن أكون قد أدّيت أمانة توعية طرفي عقد الزّوجيّة الإيماني في هذا المجال. إتماما لبحث ما تضمّنه هذا الفصل الثّالث من هذا الموضوع.

ولمّا كانت تحدث من عمليّة تلقيح يجري في رحم الزّوجة. فقد اقتضى ذلك منّي كتابة فصل رابعٍ تكلّمت فيه عن رحم المرأة ومفهومه ومكوّناته وعن كيفيّة تخلّق الجنين داخله وعن المراحل التي تمرّ منها النّطفة الأمشاج وهي تتطوّر لتصبح جنينا.

ولم أكتف بسرد تلك المعلومات بل وأهديت في هذا الفصل الرّابع نصائح إلى الفتاة المؤمنة وثقّفتها بما يتعلّق بالتّقاليد الموروثة عن الجاهليّة كي تتجنّبها وفعلت ذلك كلّه بهدى آيات هذا القرآن المجيد وهدى سنّة رسوله الكريم.

وأمّا الفصل الخامس فقد تناولت الحديث فيه عن موضوع تحديد النّسل الذي اكتسب أهمّية في هذه السّنوات الأخيرة من زماننا. فألقيت ضوءً على تاريخ هذا الموضوع وعلى ما اعتمده الأطبّاء من وسائل لتحديد النّسل.

وعلى ضوء معطيات العلم الحديث تناولت معطيات تعاليم القرآن الكريم وأثبتّ من خلالها بأنّ الله عز وجلّ قد وضع أسس تحديد

النّسل منذ أربعة عشر قرن من الزّمان. لكــنّ المفسّرين القدماء رحمهم الله تعالى لم يفطنوا إلى تلك الحقيقة بل أشاعوا أحاديث ألغت مفعول معطيات تلك التّعاليم القرآنيّة. ومن ثمّ عدّدت ما أتى به القرآن المجيد من تعاليم بخصوص تحديد النّسل.

وخصّصت فصلا سادسا فحدّدت فيه مسؤوليّات طرفي عقد الزّوجيّة المتعلّقة بموضوع تحديد النّسل لأهمّيتها ولاستقلاليتها. ولفتّ نظر القارئ الكريم بهذه المناسبة إلى الدّور السّلبيّ الذي لعبه مفهوم (قوّاميّة الرّجل) الذي طرحه قديما الفخر الرّازي رحمه الله في تفسيره الكبير. ووضّحت المفهوم القرآني الحقيقي في هذا المجال.

ومن ثمّ أفردت الفصل السّابع للكلام عمّا يُحتمل من وقوع اختلافات ما بين الزّوجين المؤمنين. وبيّنت وسائل حلّ تلك الاختلافات على ضوء معطيات آيات القرآن الكريم. ووضّحت من خلال تلك المناسبة الكلام عن السّمات البارزة للشّريعة الإسلاميّة المتميّزة. وتعرّضت لشرح مفهوم النّشوز ووسائل معالجته. وألقيت ضوء على دلالة قول الله تعالى في الآية (واضربوهنّ) فوضّحت ما لم يفهمه المفسّرون القدماء رحمهم الله تعالى في هذا الخصوص. وألقيت أخيرا الضّوء على تعاليم الإسلام التي وضعت في أيدي طرفي عقد الزّوجيّة عماد الحياة الزّوجيّة الإيمانيّ لتجنّب الاختلافات بين الزّوج والزّوجة. وبذلك أنهيت الباب الأوّل من كتاب نظام الزّواج في الإسلام.

الباب الثّاني:

الفصل الأوّل:

النّكاح: مفهومه، حقيقته، وأحكامه

لقد أوصلت القارئ العزيز حتّى اللّحظة ووفق الخطّة الموضوعيّة التي وجّهتنا إليها أوّل آية من سورة النّساء أقول أوصلته إلى مرحلة عقد النّكاح وأهّلت هذا المؤمن وتلك المؤمنة ليعملا على فريضة الزّواج الإيمانيّ. وعاد من الواجب أن أكلّمهما عن النّكاح نفسه وعن مفهومه وعن حقيقته وعن أحكامه فأوعّيهما فقهيّا على هذا الصّعيد.

وكتقديمٍ لهذا الموضوع أختصر وأقول: أ فلاحظت يا عزيزي هذا الإبداع الذي أبدعه ربّك بأن اختصّ كلّ جنس بأعضاء تناسليّة مختلفة عن الآخر، وجعل قوّة الذّكر الجنسيّة (قوّةً فاعلةً) في خواصها كما جعل قوّة الأنثى الجنسيّة (قوّةً منفعلةً) في خواصها. فهذه الحقيقة إن دلّت على شيءٍ إنّما تدلّ على عظمة هذا الإبداع الإلهي. الذي جعل الذّكر هو الذي يتقدّم من خطبة الأنثى بسبب كونه صاحب (قوّة جنسيّة فاعلة) ويتقدّم لخطبتها بشكلٍ طبيعيٍّ جداً. على حين أنّ الفتاة ومن باب أنّ قوّتها الجنسيّة منفعلة فلا تتقدّم لخطبة الشّاب الذي يُعجبها بل تقوم بما يحرّكه تجاه قيامه بخطبتها. كذلك أثبت علم التّشريح وعلى حسب ما أسلفت ذكره بأنّ الكائن المنويّ عند الذّكر تكاد تكون غير محدودة العدد على حين أنّ بويضات الأنثى هي في الحجم أكبر ومحدودة العدد.

وإضافة إلى هذه وذاك أقول: لا تتوقّع من جانبي أن أدلّك في موضوع عقد النّكاح على آيات تمدّك بأحكام جميع ما يشتمل عليه عقد الزّواج من عناصر شرعيّة من كتاب الله العزيز. بل ومن السّنّة النّبويّة أيضاً. فتسألني عن مفهوم (السّنّة النّبويّة) وعلى حدّ علمي.

فأجيب وأقول: إنّني أفهم من (السّنّة النّبويّة) دلالتها اللّغويّة وليس ما اتّفق عليه الفقهاء الذين يخطئون في هذا المفهوم. فكلمة (سُنّة) اشتقّها أصحاب معاجم اللّغة من قولك: سنّ الأمرَ معناه بيّنه. وسنّ الطّريقة معناه سار فيها. فالسُّنّة هي السيرة والطّريقة. وورد في التّعريفات: السُّنّة في اللّغة الطّريقة مرضيّةً كانت أم غير مرضيّة. والسّنّة في الشّريعة هي الطّريقة المسلوكة في الدّين من غير افتراض ولا وجوب. فالسّنّة ما واظب النّبيّ ﷺ عليها مع التّرك أحياناً. فإن كانت المواظبة مذكورةً على سبيل العبادة (فسُنَنُ الهُدى). وإن كانت على سبيل العادة (فسُنَنُ، الزّوائد). فسُنّة الهدى ما يكون إقامتها تكميلا للدّين. وهي التي يتعلّق بتركها كراهةٌ أو إساءة. وسُنّة الزّوائد هي التي أخذها هُدىً أي إقامتها حسنةٌ ولا يتعلّق بتركها كراهة ولا إساءة. كسَير النّبيّ ﷺ في قيامه وقعوده ولباسه وأكله.

فاستناداً إلى هذه المعطيات فإنّي أُعرّف (السُّنّة النّبويّة) فأقول: إنّ السّنّة النّبوية تنحصر فيما فعله محمّد رسول الله ﷺ شرحا لحكم شرعيّ. كفريضة الصّلاة فقد أعرض القرآن الكريم عن إيراد تفاصيلها وشرحتها (السُّنّة النّبويّة) التي وصلتنا (بطريق التّواتر) جيلا بعد جيل. فنحن نصلّي ونقرأ في صلاتنا كما كان يصلّي رسول الله ﷺ ويقرأ أمام أصحابه. وعليه فلا يدخل حديث رسول الله ﷺ في مفهوم (السُّنّة النّبويّة). ونفس هذه الحقيقة تُلاحظُ في موضوع (النّكاح). فهناك أحكام نصّت عليها آيات

قرآنيّة وهناك توابع نابعة من (السّنّة النّبويّة) والتي فعلها رسول الله ﷺ ووصلتنا بالتّواتر أيضاً جيلاً بعد جيل. ولسنا بحاجة إلى أن نراجع في موضوع تلك التّفاصيل كتب الحديث المعروفة. وسيأتي بيان كلّ شيء من هذه الأشياء في محلّه المناسب إن شاء الله العزيز.

. مفهوم كلمة نكاح:

إنّ كلمة (نكاح) اشتُقّت من قولك نكحَ المطرُ الأرض ومعناه أنّ قطرات المطر اختلطت بتراب الأرض. فإن قُلتَ: نكح النّعاس عينيّ فمعناه أنّه غلب عليك النّعاس. وعليه نقول: نكح فلانٌ فلانة ويعني قولنا هذا أنّ هذا الفتى تزوّجها، وعاد من حقّه معاشرتها ومخالطتها. فكلمة (نكاح) مصدر والنّاكح اسم فاعل(محيط المحيط). وورد في (معجم مقاييس اللّغة): نكحَ وأنكحَ أصلٌ واحدٌ وهو البضاع ويعني عقد الزّواج دون الوطء. لذلك يُقال: نكحتُ فلانة أيَ تزوّجتُها. وأنكحتُ ابنتي فلانا أي زوّجته إيّاها. واستناداً إلى معاني كلمة نكاح التي أفادتها معاجم اللّغة فإنّ بيت الزّوجيّة ينبغي أن يكون مسبوقاً بعمليّة النّكاح هذه التي تُعدّ فاتحة تأسيس بيت الزّوجيّة وتسبقه أيضاً. فلا يجوز لفتى وفتاة مؤمنين أن يجتمعا في بيت زوجيّةٍ مزعوم بدون أن يكون بين أيديهما عقد نكاح شرعيّ.

فإن راجع القارئ العزيز جميع آيات القرآن الكريم يلاحظ استعمال كتاب الله تعالى لكلمة (نكاح) بحدود **16** مرّة. فإن هو تدبّر تلك الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة (نكاح) يُدرك بأنّ الشّرع الإسلامي قد فرض عقد الخطبة والنّكاح ليصبح عقد النّكاح وثيقةً بين أيدي الفتى والفتاة يقدّمانها في القضاء عند حدوث مرافعات قضائيّة.

. عقد النّكاح والمهر:

وبالرّغم من أنّ كلمة (نكاح) قد وردت في كتاب الله العزيز بحدود 16 مرّة فإنّ كلّ متدبّر لآي الذّكر الحكيم لا يعثر على آية واحدة قرّرت أن يتمّ النّكاح على مهرٍ معيّن. مع أنّ المسلمين توافقوا على وجود (مهر). ويأتي هنا يا عزيزي القارئ دورُ (السّنّة النّبويّة) في هذا المجال. فما كان يعقد محمّد رسول الله ﷺ عقد زواج إلاّ على مهرٍ أو ما يُقال له صداق. وقد وصلنا ما استنّه رسول الله ﷺ في موضوع ضرورة اقتران عقد الزّوجيّة بمهر جيلا بعد جيل. ونحن نقوم في أيّامنا هذه بما كان يقوم به رسول الله وأصحابه في صدر الإسلام بما يتعلّق بموضوع عقد الزّواج وضرورة أن يقترن بصداق.

ثمّ إنّ القرآن الكريم لم تكن تعاليمه تشكّل بدعا في مجال العقد والمهر بالنّسبة إلى ما سبقه من أديان وشرائع. بل نبّه القرآن الكريم نفسه إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الشّرائع السّابقة كانت تفرض نكاحا ومهرا. بدليل مضمون الآية 27 من سورة القصص التي وردت في سياق الكلام عن موسى عليه السّلام وهربه من مصر إلى مدين حيث كان يقطن هناك بنوا عمومته. فقد قال الله تعالى في الآية المذكورة ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وعليه يكون الإسلام قد أقرّ اقتران النّكاح بمهرٍ من دون أن يشترط على الفتى مقداراً معيّنا من المال أو غيره من الأشياء. وقد تركت سُنّة رسول الله ﷺ تقدير هذا المقدار لظروف وأحوال العروسين.

هذا وإنّ كلمة (مهر) صيغة مصدر وتعني الصّداق الذي يُدفع للفتاة عند نكاح الفتى منها. ويشكّل المهر قيمة بَضع الفتاة وقت

تزويجها أو ما نسمّيه معاشرتها. وتُجمع هذه الكلمة على مُهور. (محيط المحيط).

فإن عُدنا إلى الآية 223 من سورة البقرة وهي قوله تعالى ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نلاحظ بأنّ الله تعالى قال في هذه الآية الكريمة ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ حاذفا منه مُضافه، فلم يوضّح سبحانه ما ينبغي تقديمه. وهذا حذف بلاغيّ لتوسيع دلالة فعل الأمر (قدّموا) وليشمل معناه تقديم مهرٍ مقدّمٍ حسب ما استنّه رسول الله ﷺ ومهرا مؤجّلا حسبها أيضا وعلى قدر استطاعته. ويكون هذا المهر وسيلة من وسائل تقرّبه من ربّه عز وجلّ. خصوصاً وأنّ ربّه قد وعظه ووعظ الفتاة التي عقد عليها نكاحه وقدّم لها المهر المطلوب في نفس هذه الآية وقال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

. النّكاح وأحكامه:

وبعد أن اطّلعنا يا عزيزي القارئ على مفهوم النّكاح وحقيقته، نتوجّه للكلام عن أحكامه الشّرعيّة ونتساءل في البداية عن الجهة الشّرعيّة المخوّلة بكتابة وتسجيل عقد النّكاح؟ ولقد أجابت آيات سورة النّساء هي أيضا على هذا السّؤال. أ فلا نلاحظ كيف أنّ الله عز وجلّ قد راح يعظ المؤمنين وذلك في الآية 59 ويقول بصورة عامّة ليشملّ نصّ هذه الآية الجهة المخوّلة بعقد النّكاح؟ قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. فقوله تعالى ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ ورد عام الدّلالة وإنّ نزاع الزّوج مع زوجته هو أحد تلك الأشياء المتنازع فيها.

ويكون مردّ هذا النّزاع إلى أحكام الشّريعة وإلى السّنّة النّبويّة وإلى أولـي الأمر في مكان عقـد النّكـاح. علما بأنّه ورد في معجم (محيط المحيط) بشأن كلمة (شيء) قوله: كلمة شيء أعمّ العام من حيث المعنى وتستعمل لما يصحّ أن يُعلمَ ويُخبر عنه فيشمل الموجود والمعدوم، مُمكنا أو محالا، قديما أو حديثا. فإن وُجد هذا الزّوجان في دولة إسلاميّة فيُعقد نكاحهما في دائرة خصّصوها فيها لتسجيله. أمّا إذا كان الزّوجان في دولة غير إسلاميّة فيسجّل عقد نكاحهما هناك في دائرة مختصّة عيّنها المسؤولون فيها من أولي الأمر أيضا وبنفس معلومات النّكاح القائم على أساس أحكام الشّريعة والسّنّة النّبويّة. فأعظم يا عزيزي القارئ بمضمون هذه الآية التي وردت مُصاغة صياغة بلاغيّة وبهذه السّعة من الدّلالات.

وتسألني يا عزيزي القارئ مجدّداً: ما هي الحكمة من تسجيل عقد النّكاح في الدّوائر المختصّة؟ وأجيب وأقول: أ فلم تلاحظ كيف أنّ عقد النّكاح قد حمّل الزّوج مسؤوليّات المهر وغيره. فإن حدث ما بين الزّوجين نزاع فإنّ هذه الدّائرة التي سجّلت عقد النّكاح وما تضمّنه من حقوق فهي المسؤولة عن ردّ الحقوق أمام القضاء. أمّا الذين لا يفهمون هذه الحقيقة ويعقدون نكاحا على أيدي شيخ لا سُلطة له في مجتمعه، فإنّ هذا الشّيخ لا يملك القدرة على ردّ الحقوق، ولا يُعتبر من (أولي الأمر منكم) وفق نصّ هذه الآية الكريمة. ذلك أنّ مُصطلح (أولي الأمر) معناه الجهة التي تملك حقّ الأمر والنّهي وتملك سلطة تأدية الحقوق.

. شكليّات عقد النّكاح:

وقد استنّ محمّد رسول الله ﷺ شكليّات تتعلّق بوقت عقد النّكاح وقد وصلتنا تلك الشّكليّات جيلا بعد جيلٍ هي أيضاً. وتنحصر هذه

الشّكليّات في أمر تأمين شاهدي عدلٍ ليشهدا على عقد النّكاح إلى جانب حضور وليّ كلّ طرف من طرفي عقد النّكاح. فإذا سجّل المسؤول العقد ووقّع عليه هؤلاء يتّخذ العقد صفته الشّرعيّة. فإن كان طرفا العقد بالغين ولم يوافق أولياء أمرهما على زواجهما. يغضّ المسؤول الطّرف عن حضور أولياء الأمر. وتقتضي السّنّة أيضا أن يتلو المسؤول عن تدوين عقد النّكاح أو من ينوب عنه، أن يتلو مضمون ما سجّله في عقد النّكاح وأن يتلو على مسامع الجميع نصّ الآية الأولى من سورة النّساء التي نصّت وفرضت فريضة الزّواج. علماً بأنّي أوردت الآية المذكورة من قبل وشرحت مضامينها أيضاً. أن يتلو المسؤول هذه الآية المذكورة لتصبح حجّةً شرعيّة على طرفي عقد النّكاح. وبعد أن يأخذ هذا العقد صفته الشّرعيّة يعود المسلمون ينظرون إلى طرفي هذا العقد على أنّهما زوجا عشّ الزّوجيّة ويحقّ لهما بعدها معاشرة بعضهما بعضاً بشكل طبيعيّ.

وبهذه المناسبة أنصح طرفي عقد الزّواج ألاّ يتقيّدا بالعرف السّائد في مجتمعات اليوم وهو أن يضعا بزرة مولود من أوّل ليلة من ليالي زفافهما. بل أن يُمضي هذين الزّوجين أشهراً قبل ذلك كفسحة ليتعرّفا خلالها على طباع بعضهما بعضا، حتّى إذا تيقّنا من أنّهما أصابا في عمليّة الزّواج هذه يشرعا بعد ذلك في عمليّة إنجاب الأولاد. وإنني استنبطت هذه النّصيحة من معطيات الآية **49** من سورة الأحزاب التي قال الله تعالى فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾.

الفصل الثّاني:

النّساء المحرّمات وفلسفة تحريمها

إنّ الإنسان لم يكن يدري عن موضوع المحرّمات من النّساء شيئا حتّى أواخر عصوره الحجريّة فهذا ما كشفت عنه الحفريات والآثار القديمة في الكهوف. إلى أن بعث الله تعالى أوّل أنبيائه وهو آدم عليه السّلام بأوّل شريعة سماويّة. وتوالى نزول الشّرائع التي هذّبت هذا الإنسان إلى أن بعث الله تعالى آخر أنبيائه محمّدا المصطفى ﷺ بشريعة الإسلام. الذي أنزل عليه هذا القرآن المعجز والذي حدّد المحرّمات من النّساء على الأزواج.

تسألني: وما هي الحكمة من هذا التّحريم وما هو فلسفته؟ وأجيب وأقول: إنّ موضوع التّحريم استندت فيه الشّرائع السّماويّة إلى مُعطيات علميّة وكشف عنها العلم الحديث.

إذ أنّ من المعلوم أنّ البشريّة قبل اليوم بأربعة عشر قرن من الزّمان لم تكن تعرف شيئا عن تركيب الخليّة الحيّة ولا شيئا عن تركيب الذّرّة المادّية. وذلك حين أنزل الله عز وجلّ هذا القرآن المجيد. أمّا في عصرنا الحاضر فقد بات تركيب الخليّة الحيّة وتركيب الذّرّة المادّية معروفا. حتّى أنّه تبيّن للعلماء بأنّ الخليّة الحيّة هي أشبه بمصنعٍ كيماويٍّ كبير معقّد للغاية ومحكم التّنظيم. ويقوم هذا المصنع الكيماوي بتحليلٍ مجموعات من الجزيئات العضويّة إذا لزم الأمر إلى وحدات أصغر منها. ومن ثم يقوم بإعادة تركيبها وتجميعها ضمن عددٍ من الخطوات الحكيمة، وليصنع منها عددا كبيرا من جزيئات صغيرةً أخرى يطرد

البعض منها ويستعمل البعض الآخر للقيام بتوليد أخرى غيرها. كذلك اكتشف العلماء من خلال بحوثهم العلميّة وجود شيفرة وراثيّة تعمل في هذه الخليّة من جسم الإنسان. وكأنّ لهذه الشّيفرة الوراثيّة قاموسها الصّغير المختصّ بها. ونتيجة لهذه الاكتشافات فقد عاد العلماء يُعطون هذه الشّيفرة الوراثيّة أهمّيةً كبرى حتّى وعادت أبحاثهم تساعد على تدخّلهم في موضوع النّكاح ووضعوا له شروطا صحّيّة. وعلى ضوء تلك المعطيات العلميّة عاد بإمكان الباحث الإحاطة علما بفلسفة موضوع التّحريم الذي نصّت عليه أحكام الشّريعة الإسلاميّة والعائدة لموضوع فريضة الزّواج الإيمانيّ.

وبألفاظ أخرى فقد تبيّن للعلماء بأنّ المورّثات هذه تلعب دورا هاما في صياغة هذا الإنسان وفي صياغة ما يحمله من صفات. وأنّ تعاليم المحرّمات في الدِّين الإسلاميّ قد قامت أصلا على أساس من فعّاليّات هذه الشّيفرة الوراثيّة وبشكلٍ علميٍّ مع أنّ زمن نزول تعاليم هذا القرآن المجيد كان محروماً من هذه العلوم التي كشف عنها العلم الحديث في هذا الزّمان. الأمر الذي يثبت بأنّ هذا القرآن العظيم هو تنزيل من ربّ العالمين خالق هذا الكون وخالق هذا الإنسان. وهو الله الخالق الذي حرّم على الذّكور ما حرّمه وهو الله الذي أحلّ لهم ما أحلّه.

. من هنَ النّساء المحرَمات على الزَوج؟

وتعود تسأل يا عزيزي القارئ استناداً إلى ما علمته من فلسفة التّحريم هذه تسأل ومن هم المحرّمات؟ فأجيبك وأقول: لقد تبيّن لي بعد تدبّر آيات هذا الكتاب العزيز وجود أكثر من آية واحدة نصّت على المحرّمات من النّساء. وأنّ كلّ آية من الآيات اختصّت ببيان موضوع محدّد خاص من المحرّمات. وإليك تفصيل ما ذكرت.

فالآية 22 من سورة النّساء عالجت المفاهيم التي كانت سائدةً في الجاهليّة وقبل إنزال هذا القرآن المجيد. حيث كان الابن لا يتورّع عن الزّواج بأمّه بعد موت أبيه. وكي يوضّح الله عز وجلّ خطأ ذلك أتى بالآية المذكورة وقال ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾. وقد قلب الله تعالى بواسطة معطيات هذه الآية الكريمة المفاهيم التي كانت سائدة في الجاهليّة وليحلّ محلّها تعاليم سديدة جديدة. وإنّ هذه الآية الكريمة وردت مخصّصة وبصياغة قانونيّه كما لاحظناه.

والآية 23 من سورة النّساء تلاحظ يا عزيزي القارئ كيف حدّدت المحرّمات بصريح العبارة والتي قال الله تعالى فيها ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

وقد أتى الله جلّ شأنه بالآية 24 فأضاف المحصنات وحدّد كيفيّة الزّواج منهنّ وهو موضوع عاد فقهيًا بحتا ممّا لا حاجة للتّوسّع فيه. لكنّي أرى أنّ من المناسب هنا بأن أذكّر القارئ الكريم إلى أنّي كتبت كتابا بحثت فيه موضوع الزّواج وتعدّد الزّوجات والزّواج بالإماء وتحت عنوان (حقيقة تعدّد الزّوجات مثنى وثلاث ورباع) وهو مؤلّف مهمٌّ جدّاً أنصح القارئ الكريم بمطالعته لتضمّنه تصحيح كثيرٍ من الأفكار والمفاهيم السّائدة بين مسلمي عصرنا والتي تخالف منطوق آيات هذا القرآن العظيم.

الفصل الثّالث:

الطّلاق وأحكامه

. مفهوم كلمة طلاق:

إنّ القرآن الكريم أورد كلمة (طلاق) في مقابل كلمة (نكاح) ضمن آياته الكريمة وبما أنّ عقد النّكاح وعلى حسب ما بيّناه من معطيات تلك الآيات كان عبارةً عن عقد مدنيٍّ يتعلّق باتّفاق فتى مؤمنٍ وبفتاةٍ مؤمنة على معاشرة بعضهما بعضاً والتّعايش فيما بينهما كفريقي حياةٍ وقد عملا على فريضة الزّواج وبعيداً عن حياة الإباحيّة وغير العقائدية، ولإنجاب ذريّةً صالحة تساعد على توسيع رقعة الإيمان في عالمنا وعلى توطيد الأمن والسّلام فيه. فإنّ عملية الطّلاق تعني فسخ عقد النّكاح المشار إليه وافتراق هذا الفتى عن تلك الفتاة وفرط عقد الزّواج الذي كانا يمثلانه معاً.

إنّ هذه الحقيقة الآنفة الذّكر تدفعنا لمراجعة معاجم اللّغة العربية للإطّلاع على استعمالات كلمة (طلاق) هذه. علماً بأنّ هذه الكلمة وردت ثلاث عشرة مرّة في كتاب الله العزيز. فإن نحن راجعنا معجم (محيط المحيط) نُلاحظ بأنه كتب يقول: إذا قلت طلقَ الرّجل عن زوجته أو قلت: طلقت المرأة عن زوجها يكون قصدك بَأنّ الزّوجين قد تباعدَ أحدهما عن الآخر. أي أنّ كلمة (طلِقَ) تستعمل للزّوج كما

تستعمل للزّوجة في آنٍ واحد. بسبب أنّ هذه الكلمة (طلاق) قد وُضعت في الأصل للتّعبير بها عن التّخليّة في عقد النّكاح. فإن أنت قلت طلقت المرأة من زوجها فتعني أنها فسخت عقد النّكاح الذي سبقت أن عقدته معه. وبما أنّ العقد هو شريعة المتعاقدين. فإنّ عمليّة الطّلاق هذه تعني بألفاظٍ أخرى أنّ الطّالق والطّالقة قد تخليّا عن شريعة ومبادئ ما كانا قد تعاقداً عليه في بادئ الأمر. وبالتّالي فلا يعود هذا الطّالق لتلك الطّالقة أن يعاشر بعضهما بعضا بعد إنجاز عمليّة الطّلاق، ولا أن يتعايشا فيما بينهما على شاكلة ما كانا يتعايشان فيه قبل الطّلاق وابتعاد أحدهما عن الآخر. فمن هذا ندرك بأنّ كلمة طلاق تستعمل كمصدر وكاسم بمعنى التّطليق كالسّلام بمعنى التّسليم.

هذا وإنّ كلمة طلاق لا تحمل معنى الافتراق فقط، بل وتحمل معنى الألم الذي يُرافق عملية الطّلاق هذه. ومن باب أنك إذا شئت التّعبير عن حالة امرأةٍ جاءها المخاض. فأنت تعبّر عن ذلك وتقول بأنها مطلوقة أو موجوعة ممّا يُصيبها من مخاض الولادة.

أمّا معجم (مقاييس اللّغة) فقد وضّح بأنّ أحرف كلمة (طلاق) تدلّ على أصلٍ صحيح يدلّ على التّخلية والإرسال. حيث يُقال: انطلق الرّجل ينطلق انطلاقاً، وترجع الفروع إليه. وإنّ الطّلق يعبّر به عن الشّيء الحلال ومن باب أنه قد خلّي عنه فلم يُحظر. فإذا قلت أنّ امرأة طالق فتعني أنّ زوجها قد طلّقها.

فمن هذا كلّه ندرك بأنّ كلمة (طلاق) تحمل معنى التّخلية والإرسال كما تحمل معنى الإيلام. ولا تحمل معنى مسّ الزّوج بها وعلى شاكلة كلمة نكاح فلا تحمل معنى المسّ أيضاً ولقوله تعالى في

الآية من سورة البقرة ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ وندرك أيضاً بأنّ كلمة (طلاق) يجوز استعمالها في مقابل كلمة (نكاح) وبمعنى فسخ عقد هذا النّكاح.

وعليه فعلى حين أنّ عقد النّكاح يُعتبر في عُرف الشّرع عقد معاشرة وتعايش يُعقد ما بين فتى وفتاة مؤمنين وبالغين و في المحكمة الشّرعيّة وبحضور أولياء أمرها وشهود. فإنّ (الطّلاق) هو في حقيقة أمره فسخٌ لعقد النّكاح المذكور وتختصُّ بتوثيقه المحكمة الشّرعية نفسها التي عقدت عقد هذا النّكاح. وينبغي أن يتمّ في ظلّ قول الله عز وجلّ في كتابه العزيز (البقرة 229) ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾. أي أنّ الزّوج المؤمن مكلّفٌ بالإنفاق على زوجته وعلى أولاده ورعاية شؤونهم وأحوالهم وبعيداً عن روح الأنانيّة والبخل والقساوة والعنف. وأنّ الزّوجة مكلّفةٌ أن تتّصف بصفة الصّلاح في تعاملها مع زوجها فتؤدي حقوقه الجنسية والمنزلية وتربية أولادها إلى جانب تأديتها لفروض الطّاعة لربّها الذي فرض عليها وعلى زوجها التّقيّد بفريضة الزّواج وتحافظ على أسراره في غيابه وعلى إخلاصها له، وبعيداً عن روح الأنانيّة والمشاكسة وبروح التّضحية في سبيل إدامة العمل على عقد الزّواج. فإن هي شكت من زوجها فلتشكوه إلى الله تعالى على أعتابه في صلواتها بشكوى التّوسّل لإصلاحه وإصلاح ذات البين ولإدامة رابطة الزّوجيّة التي عقدها الله عز وجلّ نفسه.

ألا إنّ عمليّة الطّلاق كرّهها محمّد رسول الله ﷺ إلى نفوس المؤمنين وحضّ على السّعي دوما لإصلاح البين. ومن باب أنّ لعمليّة الطّلاق

آثارها السّلبيّة التي تتركها داخل منزل الزّوجيّة وخارجه. وهي تشكّل في حقيقتها عمليّة هدمٍ لكلّ ما شرّعه الله تعالى بما يتعلّق بفريضة الزّواج.

. الطّلاق وأحكامه:

فإن نحن تابعنا السّور القرآنيّة التي تكلّمت عن الطّلاق وأحكامه وبصيغة بلاغيّةٍ دستوريّة، فلا نعثر إلاّ على الآيات السّبعة الأوائل من سورة الطّلاق والمُنزلة في المدينة المنوّرة. هذه الآيات التي استهلّها الله جلّ شأنه بقوله تعالى في الآية الأولى منها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾.

وقبل الدّخول في موضوع تدبّر هذه الآية الكريمة ينبغي الإجابة على سؤال هام وهو أنّ الله عز وجلّ كان قد بحث الأحكام الشّرعيّة لمختلف الفرائض الدِّينيّة في السّور الأوائل من سور هذا القرآن المجيد. فما معنى أن يخصّص لموضوع الكلام عن أحكام الطّلاق سورة باسم سورة الطّلاق ولكن ضمن السّور القصيرة التي تشتمل عليها الأجزاء الأخيرة من كتابه العزيز؟ فلا يعقل أن يحدث ذلك من غير حكمة وقصدٍ جليلين خصوصاً وأنّ الله تعالى حكيم وعليم.

وما دمنا قد أدركنا مدى رغبة الله تعالى ومشيئته في أن تدوم كلّ حياة زوجيةٍ عقدها مؤمنان يخشيان الله تعالى ويطيعانه. كما أدركنا بأنّ مفهوم كلمةَ (طلاق) يشتمل على معنى التّألّم أيضاً. فكلّ هذا يفسّر

حكمة ورود سورة الطّلاق ضمن السّور الأخيرة التي تكلّمت عمّا سيحدث بعد زمان طويل من زمن بعثة الإسلام من متغيّرات وتطوّرات تطرأ على المجتمعات الإسلاميّة. ومنها كثرة حوادث الطّلاق التّعسّفي الذي إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مدى انحراف المسلمين عن الصّراط المستقيم الذي حثّهم ربّهم عز وجل أن يثابروا على الدّعاء أن يهديهم إليه وهو الدّعاء الذي اشتملت عليه سورة الفاتحة. وهي حقيقةٌ أشرت إليها في مؤلّف (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) عند الكلام عن سورة الطّلاق وعن علاقتها بما قبلها وبما بعدها من سورٍ قرآنيّة.

وإنّ ما يؤكّد مصداقيّة رأيي هذا هو أنّ الله تعالى ما إن فرغ من الكلام عن الطّلاق وأحكامه في الآيات السّبعة الأولى من سورة الطّلاق، إلاّ ولاحظناه وقد أتى بكاف التّشبيه وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ فما قال هذا بعد ذلك إلاّ أن تكون هذه الرّابطة الموضوعيّة مُنحصرةً في أنّ مسلمي عصر الانحطاط الذي نُعاصره قد أهملوا التّقيّد بشروط عقد الزّوجيّة وأهملوا الأخذ بالوسائل التي شرّعها الله ربهّم لحلّ ما يواجهونه من اختلافاتٍ في منزل الزّوجيّة. خصوصاً وأنّ الله تعالى أورد جملة ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ الدّالة على ذلك. حيث تقول عتا الرّجل بمعنى استكبر وتجبّر وجاوز الحدّ ولم يطع تعاليم ربه عز وجلّ وإن قلت: عتت الرّيح فمعناه أنها كانت شديدة العصف وجاوزت حدّ هبوبها وفق قوله تعالى في سورة الحاقّة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ

﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. وقال في الكليّات: العاتي هو كلّ مبالغ في كبرٍ أو فسادٍ أو كفر. فالعاتي اسم فاعل. فإذا قلت هذا ملكٌ عاتٍ فتعني أنه غير ليّنٍ وقاسي القلب.

فاستناداً إلى هذا الفهم الآنف الذّكر أتوجّه إلى تدبّر هذه الآية الأولى من آيات سورة الطّلاق التي أوردناها فقرةً فقرة. ومبتدئاً بأول فقرة قال الله تعالى فيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. فلو كان المقصود في هذه الفقرة النّبيّ نفسه لكان تعالى قال (يا أيّها النّبيّ إذا طلّقت) لكنّه تعالى أورد خطابه بصيغة المفرد من جهة وأورد صيغة الفعل (طلّقتم) بصيغة الجمع ومُدخلاً عليه ظرف الزّمان (إذا) المتضمّن معنى المستقبل والدّاخل على الجملة الفعلية ومتضمّناً معنى الشّرط ومحلّها النّصب على الظّرفيّة. فما هي دلالة هذا الانتقال في الخطاب من المفرد إلى الجمع وإدخال حرف (إذا) فيه. إلاّ الإشارة بذلك إلى زمن مسلمي عصر الانحطاط الذي نعاصره والذي كثرت فيه حوادث الطّلاق إلى درجة كبيرة وعادت المحاكم تعجّ بالمطلّقات من النّساء من جرّاء انحراف هؤلاء المسلمين عن التّقيّد بشروط عقد الزّوجيّة وإهمالهم الأخذ بالوسائل التي شرّعها الله ربّهم لحلّ ما يواجهونه من اختلافات فيما بينهم وبين زوجاتهم؟ هذا المعنى الذي جعلهم في نظر ربهم (عُتاة) عن أوامر ربهم ومستحقّي العذاب الشّديد. وهو المعنى الذي دفعه تعالى ليورد كاف التّشبيه بعد الفراغ من سرد أحكام الطّلاق وليقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾.

هذا وإنّ ما يزيد من مصداقيّة هذا المعنى الذي ذهبت إليه هو أنه جلّ شأنه ما إن فرغ مما شبّه به مسلمي عصر الانحطاط الذي نعاصره إلاّ وقال ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي أنه تعالى استأنف كلامه وهو يطلب من هؤلاء المسلمين الأخذ بتقوى الله تعالى في موضوع تعاملهم مع نسائهم المطلّقات والرّجوع عن ظلمهم إيّاهنّ إن كانوا من أولي الألباب، وكانوا من الذين آمنوا بمصداقيّة شروط التّعامل مع أزواجهنّ والوارد في كتاب الله العزيز؟ خصوصاً وأنّها وردت على آخر هذه الفقرة إشارة (وقف) ليدفع الله تعالى من خلالها هؤلاء المسلمين إلى التّوقّف هنا لحظات للتّفكير فيما حذّرهم تعالى منه ونبّههم إليه. وأضاف يخاطبهم بعد ذلك ويقول لهم ﴿ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرًا ﴾ . وقد قال في الكليّات بما يتعلّق بكلمة (ذكراً): الذّكر له معنيان أحدهما التّلفظ بالشّيء والثّاني إحضاره في الذّهن بحيث لا يغيب عنه وهو ضدّ النّسيان. وليصبح معنى قوله تعالى ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرًا﴾ بأنّه تعالى لم يدع لكم أيّ مهربٍ يا من تدّعون الإيمان فهو تعالى أنزل إليكم كتاباً قابلاً للحفظ عن ظهر قلبٍ لتحفظونه وتتلونه آناء اللّيل والنّهار كما أنزله بلسانٍ عربيٍّ مبين لتستحضروا معانيه في أذهانكم كلّ آن.

فمن خلال هذا كلّه عُدنا نُدرك بأنّ الله جلّ شأنه حين قال في الفقرة الأولى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ يكون الله تعالى وإن كان قد خاطب نبيّه الكريم فيها، وليساعد على حلّ بعض ما اعترض صحابته من مشاكل زوجيّة، إلاّ أنه تعالى قد قصد بخطابه هذا مسلمي عصر الانحطاط المعاصر الذين ابتعدوا عن تقوى الله تعالى وعن وسائل حلّ ما يواجهونه في حياتهم الزّوجيّة من اختلافات. وبالتّالي تكثر

عندهم حوادث الطّلاق ويسيئون بذلك إلى سُمعة الإسلام من جرّاء سوء تعاملهم مع نسائهم والتّسبب في تشريدهم أبنائهم الصّغار. وخلافاً لمشيئة الله تعالى الذي سن ّفريضة الزّواج وأوصى الرّجال بأن يكونوا بعد الزّواج قوّامين في جميع مجالات حياتهم الزّوجيّة. ونُلاحظ بعد ذلك كيف أنّ الله عز وجل ّأتى بفاء الاستئناف وأضاف يقول مشدداً: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

والسّؤال هنا: ما المقصود من عدّة المرأة؟ فقد ورد في (محيط المحيط) عدّة المرأة ثلاث حيض أو ثلاث أطهار. وأمّا عدّة الوفاة فهي أربعة أشهر وعشرة أيام. وإنّ كلمة (عدّة) مشتقّة من الاستعداد لترك المنزل. ومن باب قولك لتلاميذك: كونوا على عُدّة أي كونوا على استعداء. وعليه يكون الله عز وجلّ قد فرض على الذي يطلقّ زوجته ويفسخ عقد نكاحه الذي كان قد عقده معها، يكون تعالى قد فرض عليه ألاّ يدفعها لمغادرة منزل الزّوجيّة مباشرةً. بل أن يدعها تمضي في بيته عدّتها التي تبلغ ثلاث حيضٍ وخلال ثلاثة أشهر. كما فرض عليه القيام بإحصاء أيام عدّة زوجته فلا ينتقص من أيامها شيئاً. وأتى بواو العطف وقال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ وحاذفاً مضاف فعل الأمر (اتّقوا ربّكم) ليصرّفه إلى عدّة معاني منها ضرورة خشية الله تعالى ومراجعة هذا الزّوج ما أقدم عليه لعلّه يلين فؤاده ويتراجع عن عزمه هذا فلا يعود يريد تطليق زوجته.

ولنلاحظ كيف أنّ الله عز وجلّ أمر وقال ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾. فقوله تعالى ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ يشير إلى ضرورة الإنفاق على المطلّقة مدّة عدّتها وكأنّها في بيتها ولم تطلّق. وليس معنى العدّة أن تبقى هذه المرأة

المطلقة في بيت الزّوجيّة ثلاثة اشهر تُنفق هي على نفسها خلالها. وعندما قال تعالى ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ فالمعنى أنّ من واجب هذه المطلّقة البقاء في منزل الزّوجيّة مدّة عدّتها فلا تغادره إلاّ للضّرورة. فإن لم تستجب لهذا الأمر الإلهي ترتكب فاحشةً مبينة. فهذا هو معنى ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

ومن ثم أتى تعالى بواو العطف وقال ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ فأورد كلمة (حدود) التي هي جمعٌ مفرده (حدّ) صيغة مصدر وتعني الحاجز بين الشّيئين. فهي تسميةٌ بالمصدر كما تعني منتهى الشّيء. كما أورد تعالى فعل (ظَلَم) بمعنى وضع الشّيء في غير موضعه. ويكون الله عز وجلّ ومن خلال قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ يكون قد أورد حيثيّات ما أمره ربّه به آنفاً من ضرورة الإبقاء على المطلّقة في بيت الزّوجيّة ثلاث حيض وعدم اللّجوء إلى إخراجها منه، إلى جانب الإنفاق عليها طيلة هذه المدّة. وليثبُت من خلال هذه الحيثيّات بأنّ هذه الآية الكريمة قد وردت مصاغة صياغةً بلاغيةً دستوريّة ولتصبح مرجع القضاء في أمور حوادث الطّلاق خلال مدّة إرادة الطّلاق. ولذلك لاحظنا بأنّ الله عز وجلّ راح يقول في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. والخطاب هنا موجّه إلى هذا المسلم الذي لم يلتزم بأوامر ربه عز وجلّ وأقدم على طلاق زوجته في المحكمة الشّرعيّة. يخاطبه ويقول له: إنني اشترطت عليك هذه الشّروط التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة راجياً أن تسعى خلالها إلى تغيير رأيك والعودة عن فكرة الطّلاق وتستخير ربّك ليُصلح

لك ما تهدّم بينك وبين رفيقة حياتك من روابط المودّة والرّحمة التي أنشأها عقد النّكاح بينكما. فإن أنت راجعت نفسك واستجبت لرغبة ربّك هذه ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾.

ألا إنّ هذه الحقائق التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة تفرض على القاضي الشّرعيّ ألاّ يتعجّل في الفصل في قضيّة الطّلاق التي تُعرض عليه. بل أن يحاول إعادة أمور هذين الزّوجين إلى مجاريها وإقناعهما بالعودة عن قضيّة الطّلاق المرفوعة لديه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وتجنّبا من وقوع طلاقٍ تعسّفيّ يهدم منزل زوجيّةٍ فردين مسلمين ويشرّد أهل هذا البيت.

ولم يكتف لله جلّ شأنه من اتّخاذ جميع ما أوردناه من شروطٍ واحتياطاتٍ لمنع حدوث طلاق ما بين زوجين مؤمنين. بل وأتى بآية ثانية استهلّها بفاء الاستئناف وقال فيها: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾.

فإن نحن حاولنا تدبّر قوله تعالى في هذه الآية الكريمة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره وتناولنا الفقرة الأخيرة نتدبّرها. نلاحظ بأنّ الله تعالى استهلّ هذه الفقرة الأولى بفاء الاستئناف ومستأنفاً الشّروط التي كان قد اشترطها على من يقدم على فسخ عقد النّكاح بتطليق زوجته وقال ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾. فما هو المقصود من قوله تعالى (أجلهنّ)؟ فالأجل في اللّغة له عدّة دلالات: الأولى يعني غاية الوقت. والدّلالة الثّانية قد يطلق الأجل على الوقت المعيّن من قبل

طرف أو أطراف. والدّلالة الثّالثة يطلق الأجل على حلول وقت الدّين. والدّلالة الرّابعة يطلق الأجل على مدّة الشّيء. والدّلالة الخامسة فإنّ الأجل يطلق على حياة الإنسان كلّها ومنتهاها وتجمع كلمة (أجل) على آجال (محيط المحيط).

وما دام الله عز وجلّ قد قال في الآية السّابقة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فهذه الرّابطة الموضوعيّة تفرض علينا أن يكون المقصود من كلمة (أجلهنّ) الوقت الذي حدّدته كلمة (لعدّتهنّ) وهو الانتظار إلى ثلاث أطهار.

وهنا توجّه الله عز وجلّ في الفقرة الثّانية التي استهلّها بفاء لاستئناف وقال فيها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أقول: توجّه تعالى بخطابه فيها إلى الذين مالوا إلى تطليق زوجاتهم وانتظروا حتى انقضت عدّتهنّ وحلّ الوقت المعيّن ليفارقوهنّ. فقد خيّرهم الله تعالى ما بين أن يعودوا عن الطّلاق أو أن ينجزوه. لكنه جلّ شأنه اشترط في الحالتين أن يتمّ إمساكهنّ أو مفارقتهنّ (بمعروف). وكلمة (بمعروف) لغوياً هي اسم مفعول وتعني بالمشهور وما يحسنُ عمله شرعاً، وضدّ المنكر أي بالمعاملة بالرّفق الذي طالب الله تعالى أن يعامل الزّوج القوّام به زوجته ومرفقاً بالتّضحية المطلوبة من جانبه وعليه فقد أصبح معنى ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أنّ حرف (أو) قد ورد ليشير إلى هذا التّخيير الذي ذكرناه. وهنا طلب الله جلّ شأنه من المطلّقين أن يحفظوا للمطلّقات كرامتهنّ في الحالين المذكورين وبعيداً عن الإقدام على المهاترات والتّلاسن بالألفاظ الجارحة. فإن تمّ أجل الطّلاق وأصرّ الزّوج على مفارقة زوجته،

وفارقـها بمـا يتنـافى ودلالـة كلمـة (بمعـروف) يرتكـب إثمـاً لا يرضـى الله تعالى عنه. ويخالف بذلك ما أمره الله تعالى به في الآية (90) مـن سـورة النّحل التي وعظنا فيها وقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾. وكأنّ الله عز وجلّ راح يوبّخ هؤلاء الذيـن يعمـدون إلـى تطليـق زوجاتـهم و مصرّيـن علـى طلاقـهن مـــن بعــد انقضــاء عدّتــهنّ ولا يفارقوهنّ بمعروف ومتناسين ما كان بينهم وما بين هذه المطلّقات مـن أواصر الودّ والرّحمة التي رافقتها فريضة الزّواج.

ولنلاحظ كيف أنّ الله عز وجلّ ما أن انتهى من إلقاء هـذه الموعظـة إلاّ وأتـى بـواو العطـف وقـال في الفقـرة الثّالثـة مـن هـذه الآيـات الكريمـة ﴿ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ فمـا هـــو معنـــى ﴿ ذَوَيۡ عَدۡلٖ ﴾ ؟ تقول: هذا رجلٌ عدلٌ وتعني أنـه رجـلٌ عـادلٌ ومقنـعٌ في موضـوع الشّـهادة ومرضـي عنـه. وعليـه يكـون معنـى قولـه تعـالى ﴿ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ أنّ عملية الطّلاق لا يقضي بها القـاضي الشّرعي ما لم يُحضر طرفا عقـد الزّوجيـة شـاهدين يشـهدان علـى ذلـك وأن يتّصـف هـذان الشّـاهدان برجاحـة العقـل وغـير محكومـين بجريمــة ومرضيٌ عنهما ويقنع القاضي بشهادتهما.

وأمّا قوله تعـالى ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ فـاللام الدّاخلـة هنـا علـى لفـظ الجلالـة (الله) هـي لام الاسـتحقاق لوقوعـها بـين معنـى وهــو كلمـة (الشّهادة) و ذات هـي ذات الله عـز وجـلّ. وعليـه فمعنـى قولـه تعـالى ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ فـالخطاب في هـذا الأمــر الإلــهيّ موجّــهٌ إلـــى الشّاهدين ذوي العدل يأمرهمـا فيـه مـن التّحقّـق مـن بلـوغ عـدّة المطلّقـات

أجلها من جهة، والتّحقق من أنّ القاضي الشّرعيّ حاول إقناع هذين الطّرفين بالرّجوع عن الطّلاق من جهة ثانية، والتّحقق من إصرار طرفي عقد الزّوجيّة على إتمام عملية الطّلاق والافتراق أحدهما عن الآخر من جهة ثالثة. فهذه الدّلالات جميعها اقتضاها قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي أنّ الله تعالى الذي فرض جميع هذه الشّروط لصالح الإبقاء على عقد الزّوجية يستحق من جانب هذين الشّاهدين أن يتحققا من استيفاء عملية الطّلاق لجميع الشّروط المشار إليها في هذه الآية الكريمة.

فلمّا فرغ الله عز وجلّ من هذا التّأكيد الذي أكّده على الشّاهدين ذوي العدل، فقد أتى باسم الإشارة للبعيد عوضاً عن اسم الإشارة للقريب بسبب أنّه تعالى لم يقل هنا (هذا يوعظ به..) بل قال ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وعليه فما هو معنى (يوعظ به)؟ تقول وعظنا أستاذنا بمعنى نصحنا وذكّرنا بما يليّن قلوبنا من الثّواب المنتظر والعقاب المترتّب على مخالفتنا، ويسوقنا بذلك إلى التّوبة إلى الله عز وجلّ ولإصلاح سيرتنا طاعةً لله وعملاً على وصاياه (محيط المحيط). وعليه فإنّ الله عز وجلّ حين قال ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ يكون قد لفت أنظارنا إلى أهميّة وعظمة هذه القيود التي قيّد بها عملية الطّلاق. فهو تعالى وضّح من خلال قوله هذا حيثيّات هذه الشّروط التي تضمّنتها هذه الآية المصاغة صياغة دستورية وبلاغيّة. وهو أنه تعالى اشترطها على سبيل النّصح والتّذكير بأهميّة الإبقاء على العلاقة الزّوجية التي تشكّل لُبنة من لُبنات المجتمع الإسلاميّ. ولعلّ التّقيّد بهذه الشّروط يليّن قلبي هذين الزّوجين ويدفعهما للتّراجع عن الطّلاق طلباً لثواب الله وخشية عقابه

فيصلحا سيرتهما ويطيعان الله تعالى ربهّما ويعملان على وصاياه. فهذه المعاني جميعها تشكّل حيثيّات ما اشترطته هذه الآية الكريمة من شروط مصاغة صياغة دستورية وتضمّنها قول ربنا عز وجلّ ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وكأنه جلّ شأنه قد نبّه بأسلوبٍ غير مباشر إلى أنّ تعاليم الإسلام هذه تمتاز عمّا لدى النّاس الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر من رسوم الطّلاق.

وأخيراً أتى الله تعالى في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة بواو العطف وأضاف يقول ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾. وقد حذف مضاف فعل (يتّق الله) والغرض تصريف الكلام إلى أكثر من جهة. لتوجيهه إلى هذين الزّوجين ليتقيا الله ويخشيانه فيما أقدما عليه ولعلّهما يرجعا عنه، وتوجيهه إلى القاضي الشّرعيّ المعروض عليه قضيّة هذا الطّلاق وليتّق الله ويخشاه فلا يتعجّل في فصل هذه القضيّة وليحاول إقناع الطّرفين بالرّجوع عن قضية الطّلاق، ولتوجيهه أخيرا إلى الشّاهدين ذوي العدل أن يتّقيا الله ويخشيانه ويتحققان من كلّ ما كلّفهم ربّهم به التّحقق منه. وإنّ الله عز وجلّ يعد هذه الأطراف الثّلاثة أن يجعل لهم (مخرجاً). فما هي دلالة كلمة (مخرجاً)؟

إنّ هذه الكلمة (مخرجاً) اسم مكان للخروج من مأزقٍ محتمل. وقد حدث حذف الموصوف وذلك لتصريف المعنى إلى أكثر من جهة. فالمأزق بالنّسبة إلى الزّوجين قد يكون الشّكوى من معيشتهم المادّية وقد يكون سببه نفسياً. فالله تعالى يعد هذين الزّوجين المساعدة في هذين المجالين. والمأزق بالنّسبة إلى القاضي الشّرعيّ المختصّ هو وسيلة إقناع الزّوجين بالرّجوع عن قضية الطّلاق ويعده الله تعالى أن يلهمه الوسيلة

المناسبة. والمأزق بالنّسبة إلى الشّاهدين ذوي العدل أن يوفّقهما الله تعالى فيما كلّفهما القيام به إن هما وضعا خشية الله تعالى وتقواه نصب أعينهما. وهكذا يكون الله عز وجلّ قد استعمل كلمة (مخرجاً) على سبيل الاستعارة.

ولم يكتف الله عز وجلّ بهذا الوعد الذي قطعه على نفسه في هذه الفقرة الأخيرة من هذه الآية الثّانية من سورة الطّلاق. بل وأتى تعالى بآية ثالثة مصاغة صياغةً دستوريةً أيضاً وعد فيها هذين الزّوجين أصحاب قضية الطّلاق بوعد جديد فاستهلّها بواو العطف وأضاف يقول فيها: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾. فالملاحظ هو أنه جلّ شأنه أورد فعل (ويرزقه) فما هو المقصود من الرّزق لغةً؟ فالرّزق لغةً هو كلّ شيءٍ ينتفع به الإنسان. فإن جاء هذا النّفع غير مُرتقبٍ ولا محتسبٍ ولا مكتسبٍ فيسمّى حينئذٍ رزقٌ حسن (محيط المحيط). وعلى هذه الصّورة فإنّ الله تعالى يعد أصحاب قضية الطّلاق إن هما تراجعا عن الافتراق عن بعضهما بعضاً، يعدهما بوعدٍ آخر وهو الرّزق الحسن الذي ينتفعان به ويحلاّن به مشاكلهما الزّوجية.

وأمّا قوله تعالى في الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ فيدعونا لنراجع دلالة فعل (يتوكّل) ففي (محيط المحيط) إذا قلت وكلت الله تعني أنّك استسلمت لله تعالى وأوكلت أمرك إليه وفوّضته فيه، واكتفيت به جلّ وعلا. وليصبح معنى ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أنّ المؤمن والمؤمنة اللّذان يتوكلان على ربّهما ويسلّما أمرهما إليه تعالى ويعتمدان على قدرته عز وجلّ

ويثقان فيما وعظهما ربّهما به وأوصاهما بالعمل عليه، فإنّ الله عز وجلّ يعدهما ويقول (فهو حسبه) فما معنى كلمة حسبُه؟ إنّها تعني أنه تعالى لا يخذله بل يكفيه ما طلبه. وإلى هذه الحقيقة وردنا عن رسول الله ﷺ قوله: [مَن أحبّ أن يكون أقوى النّاس فليتوكّل على الله].

وبعد أن وعد الله عز وجلّ الزّوجين بالوعد الآنف الذّكر أتى بحرف التّأكيد (إنّ) وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمۡرِهِۦ ﴾ والمعنى هو أنّ الله عز وجلّ إن تحقق من توكُّل عبده عليه فإنه يُصدر أمره إلى ملائكته ليهيّئوا من الأسباب ما يأتي لَصالح هذا العبد الذي توكل عليه في قضيّته وليجعل له مخرجاً من مأزقه الذي هو فيه. ويقول تعالى إنه ﴿ بَـٰلِغُ أَمۡرِهِۦ ﴾ فما هي دلالة فعل (بالغُ أمره)؟ هذا الفعل اشتقّ من قولك بلغ المكان إذا بلغه وأدركه وأشرف عليه. فبالغ يعني مُدرك أمره وواصل إليه ومحققه يقيناً. (محيط المحيط).

ومن ثم أتى الله جلّ شأنه بحرف التّحقيق (قد) في مستهلّ الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وقال ﴿ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ فما هي دلالة كلمة (قدراً)؟ هذه الكلمة وردت بصيغة المصدر وتعني مبلغ الشّيء. ويصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة ﴿ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ واستناداً إلى المعنى المذكور بأنّ تهيئة أسباب حدوث كل شيء قدّر الله تعالى إحداثه، يحتاج هذا ليتحقّق إلى وقتٍ يتناسب ومبلغ الشّيء المراد إحداثه وإظهاره إلى حيّز الواقع. وهو معنىً يتناسب والتّسلسل الموضوعيّ في هذا المقام.

والآن وبعد أن فرغنا من تدبّر هذه الآيات الثّلاثة الأوائل من سورة الطّلاق بمنهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره واطّلعنا على

مضامينها المصاغة صياغة بلاغية دستورية وذات دلالات عامة وشاملة وغير مخصصة، نُلاحظ بأن مضمون الآية الثّالثة منها ورد بمثابة حيثيّات لما تضمّنته من أحكام وحدود تتعلّق بقضايا الطّلاق المعروضة على المحاكم الشّرعية. ولذلك فإنّ من الملاحظ خلوّ هذه الآية الثّالثة من الشّروط والأحكام الشّرعية.

وأرى أن ألخّص مضامين هذه الآيات الثّلاثة للقارئ العزيز ليستعيد في ذهنه ما تضمّنته من بيّنات، فأقول: لقد أشار الله عز وجلّ في هذه الآيات الكريمة إلى أنه يُبغض كلّ فتى وفتاة مؤمنين لم يلتزما بشروط عقد النّكاح ومواعظه، ويعمدان إلى هدم حياتهما الزّوجية هذا الهدم الذي يحمل نتائج سلبيّة تترك آثارها على عائلته وعلى أولاده وعلى المجتمع الإسلامي بأسره، وتسيء بالتّالي إلى تعاليم الإسلام الكاملة والصّالحة لكلّ زمان ومكان. وهذه الكراهية لقضايا الطّلاق هي التي اقتضت من جانب الله تعالى أن يضمّن هذه الآيات شروطاً قاسيةً يقتضي أداؤها وقتاً طويلاً لحسم قضايا الطّلاق المعروضة على المحاكم الشّرعية. ولعلّ هذا الفتى المؤمن وتلك الفتاة المؤمنة أن يراجعا نفسيهما خلال تلك الفترة ولِيحدث من المتغيرات ما يساعدهما على تغيير رأييهما والعودة عن قضية الطّلاق وسحبها من أمام القضاء. ولذلك نلاحظ أيضاً بأنّ الله عز وجلّ قد صاغ تلك الأحكام والشّروط بمواعظ مجبولة بالتّرغيب بالعودة عن الطّلاق والتّرهيب من نتائجه الدّنيويّة والأخروية.

فهذه هي خلاصة ما تضمّنته هذه الآيات الثّلاثة. وينبغي على القارئ أيضاً أن يتذكّر حكمة إيراد الله تعالى لأحكام الطّلاق في السّور

الأخيرة من أجزاء سور كتابه العزيز وعدم إيرادها في السّور الأولى المفعمة بالأحكام الشّرعية. وقد اثبتّ بأنّ حكمة ذلك هو الإنباء عن أنّ مجتمعات المسلمين زمن انحطاطهم وتخلّفهم ينتج عنه كثرة وقوع حوادث الطّلاق وإلى درجةٍ محزنةٍ ومسيئةٍ إلى سمعة التّعاليم الإسلامية. وهو الزّمان الذي نعاصره وقد ابتعد فيه أكثرية المسلمين عن الالتزام بشروط وأحكام الحياة الزّوجية الإيمانية المطلوبة من الزّوجين المؤمنين. وبذلك أضاعوا مقوّمات هذا النّظام المتعلق بفريضة الزّواج، وعاد ربهم عز وجلّ ينظر إليهم على أنهم اصبحوا عتاةً متمرّدين على أوامره ومواعظه ومستكبرين عنها، وبالتّالي فقد عادوا مستحقين لعذاب شديدٍ وعلى شاكلة ما جرى من قبلهم لأقوامٍ عتوا عن أمر ربّهم ورسله وحوسبوا حساباً شديداً وعُذّبوا عذاباً نكراً.

والملفتُ لنظر القارئ هو ما تجلّى من خلالها من إعجاز لاحظناه في صياغة هذه الآيات الثّلاثة بلاغياً وبصياغة دستورية أيضا وكيف أنّ هذه الآيات الثّلاثة وردت مفعمةً بجميع ما اطّلعنا عليه من دلالات لم نستطيع الإحاطة بمضامينها إلاّ بعد أن تدبّرناها بمنهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره. فمضامينها برزت للعيان كمجموعةٍ مترابطةٍ من الشّروط والمواعظ يصحّ أن تكون مرجعاً دستورياً لقضايا الطّلاق.

ولنلاحظ الآن وبعد أن فرغ الله جلّ شأنه من تقديم هذه الآيات الثّلاثة في مستهلّ سورة الطّلاق. فقد راح الله تعالى يورد ما شاء من آيات مصاغة بصياغة قانونية مخصوصة بأحوال معينة. فأتى بآية رابعة يعالج فيها بعض الاحتمالات وقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن

نِسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة قد عالج الله جلّ شأنه احتمالين وبصورةٍ قانونية وهما:

الاحتمال الأول: أن تكون هذه المطلقة قد بلغت سنّاً ما عادت تحيض فيه بانتظام. وقد ارتابت هي وزوجها في هذا الأمر. فلا يصحّ حينئذٍ أن يمهّل القاضي الشّرعيّ هذه الزّوجة المذكورة ثلاث حيض. بل من واجبه أن يمهلها ثلاثة أشهر من يوم وقوع الطّلاق ورفع قضيته في المحكمة الشّرعية.

والاحتمال الثاني: هو أن يرفع الزّوج قضية طلاقٍ ضدّ زوجته في المحكمة الشّرعيّة. وتكون هذه الزّوجة شابة تحيض. فمن واجب القاضي الشّرعي أن يطالبها بتحليلٍ طبيّ. فإن ثبت من هذا التّحليل أنّ هذه المطلقة حامل، فمن واجب هذا القاضي الشّرعيّ أن يُمهل هذه المطلقة حتى تضع حملها في بيتها نفسه.

وليلاحظ القارئ كيف أنّ الله عز وجلّ استهلّ الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة بواو العطف وقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾. والسّؤال هنا: من هو المقصود في هذا الكلام الإلهيّ؟ وأيّ يسرٍ قد أشار الله تعالى إليه؟

فأقول في الإجابة على الشّطر الأول من هذا السّؤال هو أنّ حذف مضاف (يتّق الله) يوجّهنا إلى أنّ المقصود هنا أطراف قضيّة الطّلاق جميعهم: الزّوج المطلّق. والزّوجة المطلّقة. والقاضي الشّرعيّ.

والشّاهدين من ذوي عدل. ذلك بسبب أنّ الحذف البلاغيّ يحدثه الله تعالى لتصريف خطابه إلى جميع هؤلاء المخاطبين ضمن كلامه عزّ وجلّ.

وأقول في الإجابة على الشّطر الثّاني من هذا السّؤال هو أنّ كلمة (يُسراً) ذاتها تحمل الإجابة المطلوبة. فاليسر في اللّغة يستعمل ضدّ العسر. وبما أنّ من مشيئته تعالى أن يمدّ في أجل الفصل في قضية الطّلاق فلعلّ الزّوجين يتراجعان عن قضيّتهما ولا يهدمان منزل الزّوجيّة. فإنّ الله تعالى يخاطب جميع أطراف قضية الطّلاق أيضاً ويبشرهم بأنّه جلّ شأنه سييسّر لهم جميعهم التّأكّد من حدوث أحد الاحتمالين المشار إليهما في هذه الآية الكريمة مساعدةً إيّاهم من جانبه تعالى ألاّ يقعا في معصية ربّهم عز وجلّ.

ولنلاحظ للمرّة الثّالثة كيف أنّ الله عز وجلّ أفرد بعد هذه الآية الرّابعة ذات الصّياغة القانونيّة، أقول: أفرد آيةً خامسةً مستقلّةً ضمّنها حيثيّات هذين الاحتمالين اللّذين نصّت عليهما الآية الرّابعة. فأتى باسم الإشارة للبعيد عوضاً عن اسم الإشارة للقريب وليعظّم مضمون ما نصّت عليه آية هذين الاحتمالَين والمشار إليها والمصاغة صياغة قانونية وراح يقول وعلى شاكلة ما فعل حين أورد حيثيّات مضامين الآيات المصاغة صياغة دستوريةً من قبل، قال: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾. أي أنّ الله جلّ شأنه قال في الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي أنّ هذا الأمر العظيم الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة هو لصالحكم يقينا. فحرف الجرّ (إلى) في قوله تعالى هنا (إليكم) استعمل للتّوكيد وزائدة وعلى شاكلة قوله تعالى ﴿أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ

تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تهواهم. ومن ثم أتى تعالى بواو العطف وقال ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ وقد خاطب الله تعالى هنا جميع أطراف قضيّة الطّلاق الملتزمين بأمر الله المذكور يعدهم أنهم إن نفّذوا هذا الأمر العظيم بكلّ تقوى وخشيةٍ من الله تعالى أن يستر عليهم سيّئاتهم ويزيد في أجرهم الذي يستحقّونه.

وعلى هذه الصّورة، وبعد أن لاحظنا كيف وضع الله عز وجلّ في هذه الآيات الثّلاثة من سورة الطّلاق الأسس الدّستورية لعمليّة الطّلاق وقضاياها وحيثيّات ذلك كلّه. وبعد أن قنّن بعد ذلك الاحتمالين الطّارئين على أحوال المطلّقات وبصياغةٍ قانونيّةٍ وذلك ضمن الآيتين الرّابعة والخامسة من آيات سورة الطّلاق مع حيثيّاتهما. فإنّ الله عز وجلّ قد خصّص الآيتين السّادسة والسّابعة لتقنين أحوالٍ لاحقة لما سبق ذكره وتتعلّق بالنّواحي التّنفيذيّة لتلك الاحتمالات. وقال تعالى فيها: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وفي هاتين الآيتين الكريمتين وضّح الله عز وجلّ للقاضي الشّرعي ما ينبغي عليه مراقبته خلال تلك المدة المطلوب منه تركها ما بين تاريخ تقديم طلب طلاقٍ لديه وما بين تاريخ الفصل فيه بصورةٍ شرعيّةٍ.

وقد تضمّنت هاتان الآيتان احتمالين:

فالاحتمال الأول تعلّق بناحية سكن هذه الزّوجة التي رفع زوجها ضدّها قضيّة طلاقٍ في المحكمة الشّرعيّة.

والاحتمال الثّاني يتعلّق بكيفيّة تعامل هذا الزّوج مع زوجته وهي في تلك الحالة.

فإن كانت ذات حملٍ ووضعت حملها فقد وضّحت هاتان الآيتان كيفيّة التّعامل مع رضاعة هذا المولود.

فإن أرضعت هذه التي وضعت حملها ولدها فهل تستحق لقاء ذلك أجر إرضاعه وما هو مقدار هذا الأجر وما هي معايير تقديره؟

ولم يكتف الله تعالى ببيان جميع ما ذكرناه من احتمالات وردت في هاتين الآيتين سالفتي الذّكر. بل وقد أورد أيضاً حيثيّات جميع ما قنّنه جلّ شانه فيها من تقنينات، وورد فيها جميع ذلك مُصاغاً بصياغةٍ بلاغيةٍ لا تدرك مضامينها إلاّ بعد تدبّرها بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره، لذلك فإنّي مُقبلٌ الآن على تدبّر هاتين الآيتين الكريمتين فقرةً فقرةً وبمنهجيّةٍ وأصولٍ مشار إليها.

وأتناول بالتّدبّر الفقرة الأولى التي قال الله جلّ شأنه فيها ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ فما هو معنى قوله تعالى ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾؟ وندرك المعنى من خلال مراجعة (محيط المحيط) الذي ورد فيه أنّ كلمة (الوُجد) تعني الغنى والسّعة التي يكون فيها إنسان ما. فقوله تعالى ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ يعني من وسعكم الماديّ وغناكم.

وعليه فإنّ الله عز وجلّ يكون قد بحث في هذه الفقرة موضوع سكن هذه الزّوجة التي رُفعت عليها قضيّة طلاق. وقد أمر جلّ شأنه

من خلالها الزّوج صاحب قضيّة الطّلاق ألاّ يُخرجها من مسكنه الذي يقطنان فيه. وأمره أن يُبقي عليها في منزله طيلة فترة تمضيتها العدّة أو الحيض أو الحمل وليس أن ينقل الزّوج هذه الزّوجة من منزله إلى منزل آخر سواه. خصوصاً وأنّ قضيّة الطّلاق لم تتوفّر فيها بعد شروطها الشّرعيّة المطلوبة. ويكون الله تعالى قد أمر بذلك كلّه تكريها الزّوجين بعمليّة الطّلاق من جهة، ومن خلال وضعه شروطاً قاسيةً على الزّوج الذي يريد أن يُطلّق زوجته لعلّه يرجع عن قضيّة طلاق زوجته. فتثبيت إسكان هذه الزّوجة في بيت الزّوجيّة يؤثّر بصورة إيجابيّة على نفسيّتها ونفسيّة زوجها وقد ينتج عن ذلك العودة عن عمليّة الطّلاق المرفوعة.

وهنا قد يسألني قارئٌ: ومن أين حصلت على تقدير الحكمة من هذا الأمر الإلهي المشار إليه؟ فأجيب عليه وأقول: إنّني قدّرت حكمة ذلك الأمر الإلهيّ من خلال إيراد الله تعالى حرف (من) ضمن قوله تعالى ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾. فهو تعالى أورد حرف (من) المذكور هنا بمعنى البعضيّة. وهو عطف بيان للجار والمجرور في قوله ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي أسكنوهنّ من بعض سكنكم أي في غرفةٍ من غرفه ولتظلّ هذه الزّوجة تشعر بقيمة نعمة منزل الزّوجيّة طوال مدّة بقائها فيه ولعلّها ترجع وتحنّ إلى ما كان بينها وبين زوجها فيه من مودّةٍ ورحمة.

ولنلاحظ هذا التّأكيد على الزّوج والوارد في الفقرة الثّانية والذي يثبت منه مصداقيّة ما ذهبت إليه. فهو جلّ شأنه أتى بواو العطف وأدخلها على (لا) النّاهية وقال في الفقرة الثّانية ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾. فما هي دلالة هذين الفعلين: (تُضاروهنّ) و (تضيّقوا عليهنّ)؟

ألا إنّ فعل (تضاروهنّ) اشتُقّ من قولك فلانٌ يضارّ زوجته بمعنى يخالفها في كلّ شيء ويلحق بها الضّرر بل ويسرع ويتزوج عليها زوجةً ثانيةً ويأتي لها بضرّة ليزيد من الإضرار بها. وأمّا فعل (تضيّقوا عليهنّ) فقد اشتُقّ من قولك ضاق الرّجل على زوجته بمعنى بخل عليها في موضوع الإنفاق. وأما إذا قلت: ضيّق فلانٌ على زوجته فالمعنى أنه عاسرها ولم يعاملها بلطفٍ ولين. وعليه فإنّ الله عز وجلّ ينهى هذا الزّوج الذي يُبقي على مطلّقته في منزله إلى حين الفصل في قضيّة الطّلاق. ينهاه ربّه عن أن يُلحق بها خلال تلك الفترة من الزّمان أيّ ضررٍ كان، كما ينهاه عن الزّواج بزوجة أخرى غيرها لتُصبح ضرّتها وتزيد في الإضرار بها. والغرض من النّهي المذكور إبعاد هذا الزّوج عن البُخل في الإنفاق خلال تلك الفترة الزّمنيّة على زوجته التي رفع ضدّها قضيّة طلاق. وإبعاده عن معاملته إيّاها بمعاملةٍ تتنافى والتّلطف واليسر معها. وهل يُعقل أن ينهى الله تعالى النّهي المذكور الموجّه إلى هذا الزّوج. إلا أن يكون تعالى يريد تعويد هذا الزوج خلال الفترة الزّمنيّة المطلوبة والتي لن تقلّ عن ثلاثة أشهر تعويده على عدم البخل في الإنفاق وتعويده على معاملة زوجته بكلّ لُطف ولين؟ ذلك أنّ تعامل الأزواج مع زوجاتهم ببُخلٍ وشدّةٍ غالبا ما تشكّل أسباباً حقيقيّةً تدفعهنّ إلى طلب الطّلاق. فإن اعتاد هذه الزّوج على خلاف ما كان قد اعتاد عليه في معاملته لزوجته فلعلّ الأمور تتحسّن بينهما وتعود الأمور إلى مجراها الطّبيعيّ. فهذه حقيقةٌ قد نبّهتنا إليها (لام التّعليل) التي أدخلها الله جلّ شأنه على قوله تعالى (لتضيّقوا عليهنّ). وعلى شاكلة ما فعلته (من) البعضيّة من قبل ضمن قوله تعالى ﴿ مِن وُجْدِكُمْ ﴾. وعليه ومن

خلال هاتين الفقرتين يكون الله تعالى قد حدّد إطار تعامل الزّوج مع زوجته التي أراد تطليقها وخلال فترة الاختبار المطلوبة منه.

ثمّ إنّ الزّوجة المطلّقة الحامل والتي تضع فيما بعد حَملها ينشأ عن ذلك مشكلة رضاعة ولدها. وقد عالج الله تعالى هذه المشكلة في الفقرة الثّالثة وقال ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وقد أوجب تعالى من خلال قوله هذا على الزّوج أن يُنفق على مطلّقته الحامل مهما امتدّ زمن حَملها، وبدليل حرف (حتّى) الذي يُستعمل في غالب الأحيان بمعنى انتهاء الغاية. ولا يخالف هذا المعنى إذا أخذنا هنا لهذا الحرف (حتّى) معنى التّعليل (كي). خصوصاً وأنّ الله تعالى أدخل حرف (حتّى) هنا على الفعل المضارع (يضعن).

وليلاحظ القارئ الكريم كيف أنّ الله تعالى قد أتى بعد ذلك بفاء الاستئناف وقال ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. وكان من واجبنا أن نحيط علما هنا بحكمة هذا الأمر الإلهيّ؟ فأقول: إنّ رأيي هو أنّه ما دامت عمليّة الإنفاق على المطلّقة تنتهي بوضعها جنينها، فلا تعود هي مُلزمة بإرضاعه بعد ولادته لكونها مُطلّقة. لذلك لاحظنا بأنّ الله تعالى أورد (لام) شبه التّمليك من قوله (لكُم) إشعاراً من جانبه تعالى هذا الزّوج بأنّ هذه المطلّقة إن هي حاولت إرضاع ولدها فهي عمليّة منّة تقوم بها من جانبها على هذا المولود، وإلاّ فلا حقّ للطفل الرّضاعَة من ثدييها. ولذلك فإنّ من واجب الزّوج الذي طلّق والدة هذا المولود أن يؤدّي لهذه المطلّقة أجر قيامها بإرضاعها هذا المولود.

وينشأ هنا سؤال يتعلّق بموضوع الأجرة التي ينبغي دفعها لإرضاع هذا الرّضيع والذي ينبغي تأديته لمرضعته. وقد أتى الله تعالى بواو العطف

وراح يجيب على السّؤال المذكور وقال ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ . فما هو معنى قوله هذا وما هي علاقته بقوله تعالى ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾؟ لقد ورد في معجم (محيط المحيط) : إذا قلت ائتمرت الأمر معناه أنّك امتثل للأمر المذكور. أمّا إذا قلت فلانٌ ائتمر الأمر فالمعنى أنّك امتثلت للأمر المذكور. أمّا إذا قلت فلانٌ ائتمر فلانا فمعناه أنّه شاوره في أمرٍ بعينه. ثمّ إنّ قوله تعالى (بمعروف) فالباء تتضمّن معنى الاستعانة. وكلمة (معروف) تعني هنا المشهور من أجور المرضعات زماناً ومكاناً. ويعود معنى قوله تعالى ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أن تتشاوروا وقتئذٍ في موضوع تحديد أجر الرّضاعة واعتمدوا المشهور والمعمول به في تلك الأيّام بين النّاس بشأن الموضوع المذكور ولتَحدّدوا بذلك الأجر المطلوب للرّضاعة.

ولم يكتف الله عز وجلّ بتقديم هذا الحلّ آنف الذّكر، بل أخذ بعين اعتباره إمكانيّة أن يختلف هذان الطّرفان على تحديد الأجر المطلوب، لذلك أتى تعالى بواو العطف وبحرف (إن) المعترضة والتي لا يكون لشرطها جواب والتي تعمل بمثابة حرف وصل ما بين ما قبلها وما بين ما بعدها. وأضاف يقول ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾. وقد اشتقّ فعل (تعاسرتم) من قولك تعاسر بمعنى قوي واشتدّ، والعاسر اسم فاعل. والملاحظ هو أنّه تعالى قد حذف مُضاف تعاسرتم وليصبح التّقدير: إن تعاسرتم وقوي اختلافكم واشتدّ لأسبابٍ منها إصرار هذه المطلّقة على أجر لأعظم ممّا تعارف عليه النّاس في زمنها، فقد حسم الله تعالى هذا الموضوع، فأتى بفاء الاستئناف وقال ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ أي يؤذن في تلك الحالة لهذا الزّوج الذي طلّق زوجته هذه أن يبحث عن مُرضعةٍ أخرى غيرها لتُرضعَ له هذا المولود. وعلى هذه الصّورة يكون

الله تعالى ومن خلال مُعطيات مضمون هذه الآية السّادسة من آيات سورة الطّلاق قد عالج موضوع سكن الزّوجة المطلّقة إلى جانب موضوع التّعامل معها خلال فترة بقائها في منزل الذي طلّقها وقبل الفصل في القضيّة المرفوعة ضدّها. كما يكون قد عالج موضوع عمليّة إرضاع الرّضيع الذي ولدته هذه المطلّقة. يكون تعالى قد عالج جميع هذه الأمور من خلال هذه الآية المذكورة.

ومن ثمّ أورد الله جلّ شأنه بصدد موضوع الطّلاق آية سابعةً تبحث في مقدار الإنفاق المطلوب خلال تلك الفترة الزّمنيّة التي حدّدتها الآية السّادسة. وقد استهلّ تعالى هذه الآية السّابعة بحرف (اللام) الجارّة لاسم السّامع وقال ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾. ولنتدبّر هذه الآية الكريمة فقرة بعد أخرى بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. وتلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى قال في الفقرة الأولى التي استهلّها باللام الجارّة لاسم السّامع (لينفق ذو سعة من سعته) فقد كان الغرض من استهلالها باللام المَذكورة ليُلفت ذهن السّامع الذي رفع قضيّة الطّلاق على زوجته ولينبّهه إلى ضرورة ألاّ يُبدي في الفترة المحدّدة التي تمضيها مطلّقته في منزله ألاّ يبدي مظهر بُخلٍ في الإنفاق، بل إنّ من واجبه أن يكون سخيّاً في الإنفاق عليها في تلك الفترة المحدّدة ومن جميع النّواحي وذلك ليُشعرها بما ستفتقده بعد تركها منزل الزّوجيّة الذي كانت فيه. وكانت الَحكمة من هذا التّوجيه المذكور أن يترُك أثراً إيجابيّاً في نفسها لعلّها تتراجع عمّا شكت منه وتسبّب في تطليقه إيّاها.

ألا وإنّ هذا الذي تضمّنته هذه الفقرة كان الغرض منه أيضا ليدفع الزّوج ألاّ يختلف مع مطلّقته في مقدار الأجر الذي تطالبه به لإرضاع المولود، ولكيلا يضطرّ نتيجة لبخله في هذا الموضوع إلى استئجار مرضعة أخرى ويتسبّبُ بالتّالي نتيجة لذلك في الإضرار بولده.

وأمّا في الفقرة الثّانية فقد أتى تعالى بواو العطف وقال ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ وبمعنى أنّه بفرض أن يكون هذا الزّوج ممّن ضيّق الله تعالى عليه رزقه، فمن واجبه ألاّ يبخل في تلك المرحلة المذكورة وأن ينفق بكرمٍ ظاهر وذلك لتحقيق الحكمة والغرض من هذه الموعظة التي وعظه ربّه بها في الفقرة السّابقة من الآية السّابعة.

وقد راح الله تعالى في الفقرة الأخيرة يبيّن حيثيّات ما قنّنه في الفقرتين السّابقتين قائلا ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾. فبيّن تعالى في هذه الحيثيّات أنّ مرور وقت عُسر مادّيٍ على الإنسان ليس هو مخالف للنّواميس الطّبيعيّة المسنونة. بل إنّ هذا القانون تبدو ظواهره في كلّ شيء يقع نظر الإنسان عليه. فلا يشاهد أمام عينيه أرضا سهلة إلاّ وتنتهي عند جبل وصعود. والعكس صحيح فلا يكون الإنسان على جبلٍ وينزل إلا ويواجهه سهلٌ بعده. والغرض من هذا القانون الطّبيعيّ هو لإخضاع هذا الإنسان إلى قانون الاحتياج العام ولابتلائه فيما آتاه. مع الملاحظة بأنّ إدخال سين التّسويف على فعل (سيجعل) قد ساعد ذلك على إفادتها بدلالة التّناوب الذي أشرنا إليه وبتبشير الزّوج بأنّه مُقبلٌ على حالة فرج ويُسر. فهذه هي دلالة قوله تعالى هنا ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾. إلى ضرورة ملاحظة تنوينه تعالى لكلمة (يُسراً) فالغاية من هذا التّنوين هنا الإشارة إلى عظمة هذا

القانون الطّبيعيّ الذي أشرنا إليه. ولحضّ هذين الزّوجين على الدّعاء من ربّهما أن يُقصّر من أجلهما مدّة زمن (العسر) الذي يمرّان به وليس أن يعمدا إلى الطّلاق والافتراق.

وألخّص للقارئ العزيز ما توصّلنا إليه بعد تدبّرنا هذه الآية السّابعة التي أطلعتنا على ما سيواجهه الزّوجان من احتمالات وعقبات بعد العزم على الطّلاق. وهذه الاحتمالات:

أوّلاً ـ كنّا لاحظنا كيف أنّ الآيات التي صيغت بصياغة بلاغيّة دستوريّة قد نصّت على ضرورة الإبقاء على المطلّقة في بيت الزّوجيّة لتُمضي عدّتها ثلاث حيض. أمّا إذا كانت تجاوزت سنّ اليأس فثلاثة أشهر.

ثانياً ـ فإن كانت هذه المطلّقة حامل، فقد نصّ النّصّ الدّستوريّ على أن تظلّ في بيت الزّوجيّة أيضا إلى أن تضع حملها.

ثالثاً ـ وبما أنّ فترة الحمل قد تطول فقد أمر الله تعالى هذا الزّوج أن يقوم بالإنفاق عليها طيلة تلك المدّة. وذلك بدون أيّ تقتير من جانبه أو بُخل أو انقطاع في الإنفاق.

رابعاً ـ كما فرض الله تعالى عليه إلى جانب الإنفاق عليها أن يعاملها بكلّ لطفٍ ولين وذلك ليكسب ودّها فربّما تعود الأمور إلى مجاريها.

خامساً ـ فإن وضعت ما في بطنها وتمّ الطّلاق من دون أن يتصالحا. تنشأ مشكلة إرضاع هذه المولود. وقد ترك الله تعالى للطّرفين مجال العمل على أحد احتمالين: فإمّا أن تُرضعه المطلّقة وتستحقّ في هذا الاحتمال أن تتقاضى أجراً

وفق المتعارف عليه في ذاك الوقت. فإن رفضت فهو مضطرّ لإحضار مُرضعة لتُرضع هذا المولود وهو الاحتمال الآخر.

سادساً ـ وقد أنهى الله تعالى آيات الطّلاق ببيان حيثيّاتها وبشكل علميّ.

ولابدّ أن يكون القارئ العزيز قد لاحظ كيف ومن خلال نظرة شاملة كيف أنّ الله تعالى قد قيّد الزّوجين الذين يُقدمان على الطّلاق بقيود شديدة لعلّهما يرجعان بسببها عن عمليّة الطّلاق هذه. فلماذا؟ السّببُ في ذلك هو أنّ بيت الزّوجيّة الإيماني يشكّل في حقيقته لبنةً من لبنات المجتمع الإسلاميّ. ولذلك فقد كرّه تعالى الطّلاق حتّى أنّه ورد عن محمّد رسول الله ﷺ قوله (إنّ أبغض الحلال عند الله الطّلاق.). وبالتّالي فإنّك تلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى شدّد في آيات الطّلاق هذه وقال ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وهو خطاب موجّه إلى هذين الزّوجين المؤمنين بالله وبيوم الحساب. وقد وعد الله تعالى هذين الزّوجين إن تعسّرت عليهما معيشتهما أن يجعل لهما ربّهما مخرجا وأن يرزقهما من حيث لا يحتسبان إن هم صبروا وداوموا على وسيلة الدّعاء. وهذا كلّه ورد في الآيات المصاغة بصياغة دستوريّة. أمّا الآيات ذات الصّياغة القانونيّة فقد عالجت ما يواجهه الزّوجان من إشكال بأسلوب حكيم يساعد على رتق تلك المشاكل ويحول قدر الإمكان الحيلولة دون وصولها إلى حدّ الطّلاق.

وبهذه المناسبة فلا ينبغي لك يا عزيزي القارئ أن تظنّ بأنّ هذه الآيات الكريمة الواردة في سورة الطّلاق قد استوفت جميع عناصر هذا الموضوع. بل هناك عناصر أخرى وردت في آيات من سورٍ أخرى قد تصدّت لهذا الموضوع. ومن باب أنّ من خصوصيّات هذا الكتاب

العزيز أنّه يوزّع عناصر الموضوع الواحد على سورٍ كثيرة وبما يناسب موضوعاتها وتسلسل مضامينها الموضوعي. وهي حقيقة بيّنتها في (خصوصيّات القرآن الكريم المعجزة) وبإمكان القارئ الرّجوع إليه ليتوسّع في فهم تلك الخصوصيّات القرآنيّة.

فإن راجع القارئ الكريم سورتي البقرة والأحزاب يعثر على عناصر جديدة تخصّ موضوع الطّلاق وأحكامه. فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى وبعد أن قال في الآية 223 من سورة البقرة ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد نهى تعالى في الآيتين بعدها وقال ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وما إن فرغ تعالى من توجيه هذا النّهي إلاّ وتوجّه يخاطب الأزواج الذين ما إن شكوا من تصرّفات زوجاتهم إلا ويوقعون عليهن قَسَمَ طلاق. ففرض عليهم تقديم كفّارة عمّا يفعلونه. ذلك أنّ الله تعالى قال في الآيتين 226/ 227 من سورة البقرة ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. ولقد اختلف فقهاء الأمّة قديما في موضوع فهمهم لهاتين الآيتين اختلافاً كبيراً. ولا أرى من سببٍ لعرض ما اختلفوا فيه في هذا المقام. وأحاول تدبُّر هاتين الآيتين الكريمتين بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. لذلك أتناول الفقرة الأولى التي أورد الله تعالى فيها يقول ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾

وأتساءل عن معنى الفعلين (يؤلون وتربُّص) وذلك بالرّجوع إلى معجم (محيط المحيط) الذي ورد فيه: فعل يؤلون اشتقّ من قولك آلى فلانٌ إيلاءً معناه أقسم. وأمّا فعل (تربّص) فقد اشتقّ من ربص فلانٌ بفلان معناه انتظر أن يحلّ به خيراً أو شرّاً. أما إذا قلت: ربصت المطلّقة فمعناه أنّها ظلّت في بيت الزّوجيّة وقعدت عن زواج جديد.

وأمّا اللام في قوله تعالى (للّذين) فهي لام التّبليغ الجارّة لاسم السّامع. وأما حرف (من) من قوله ﴿ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ فتفيد التّعليل وكقوله تعالى في مقام آخر ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ ﴾. وعليه يصبح معنى هذه الفقرة الأولى ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ هو أنّ الله عز وجلّ قد وبخّ هنا الأزواج الذين يقسمون بالطّلاق ويعرّضون اسم الله تعالى بمناسبة وبغير مناسبة لقسمهم به عز وجلّ، يوبّخهم ويؤاخذهم ويفرض عليهم كفّارة أيمانهم وذلك بأن يحرمهم من معاشرة زوجاتهم أربعة أشهر متواصلة.

ومن ثمّ فقد جاء تعالى بفاء الاستئناف في بداية الفقرة الثّانية وقال ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. علما بأنّ فعل (فاءوا) اشتقّ من فاء يفيء فيئا ومعناه رجع. فأنت تقول: فلان سريع الفيء عن غضبه بمعنى أنّه سريع العدول عنه. أما إذا قلت: فاء المؤالي الذي أقسم بالطّلاق على امرأته فمعناه أنّه رجع إليها وكفّر عمّا أقسم عليه... (محيط المحيط).

وبالنّظر إلى هذه المعاني يصبح معنى قوله تعالى في الفقرة الثّانية ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أنّ الزّوج الذي أقسم بالطّلاق وتراجع فعليه كفّارة أربعة أشهر يعتزل خلالها معاشرة زوجته فإن فعل

فإنّ الله (غفور) يغفر له ما أقدم عليه خطأ و (رحيم) أي يرأف بحاله ويتعطّف عليه ويرحمه.

ولمّا كان من المحتمل ألاّ يرجع هذا الزّوج عن قسمه بالطّلاق فقد أتى الله تعالى بواو العطف في مستهلّ الآية التّالية وقال ﴿ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ . أي أنّه تعالى أورد فعل (عزموا) المشتقّ من قولك عزمت على الشّيء بمعنى أنّك أردت أن تفعلُه وعقدت ضميرك على فعله وقطعت عليه ومضيت في طريق الحصول عليه بلا تردّدٍ فيه. (محيط المحيط) وبذلك يكون الله تعالى قد أشار على الذي عزم على الطّلاق وقال ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾. فما معنى ذلك؟

نلاحظ أنّه تعالى أورد صفة (سميع) وهي صفة ذاتيّة وأحد أسماء الله الحسنى أوردها بصيغة المبالغة. فإن قلت: سمعت حديث فلان فالمعنى أنّك أصغيت إلى ما قاله وأدركت مضمونه (محيط المحيط). وعليه فكأنّ الله تعالى عندما قال ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ قد نبّه هذا الزّوج الذي أقسم بالطّلاق على زوجته أنّ ربّه الذي أصغى إلى ما حدث ما بين هذا الزّوج وما بين زوجته وأدرك حقيقة ما جرى فإنّه تعالى ينهى هذا الزّوج عن عمليّة القسم بالطّلاق ويدفعه ليسلك طريقا طبيعيّا فيقيم دعوى طلاق على زوجته بعد أن يمضي أشهر الكفّارة عن قسمه.

وبعد فرض هذه الكفّارة وتقديم تلك النّصيحة فقد أتى الله تعالى بواو العطف وبدأ آية جديدة وقال ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

أي أنّ الله تعالى افترض أنّ الزّوج نفّذ أمر ربّه عز وجلّ فرفع قضيّة طلاق وانتهى من ذلك إلى طلاقها في المحكمة الشّرعيّة. افترض تعالى ذلك وتوجّه إلى المطلّقة فطلب منها أن تتربّص عند زوجها ثلاثة قروء ابتداء من كسب قضيّة الطّلاق ليتأكّد الزّوج والقاضي الشّرعي عدم كونها حاملا بولد من هذا الزّوج. فهذا هو معنى الفقرة الأولى.

وقد فتح الله تعالى للزّوج المطلّق فرصة الرّجوع عن طلاقه لقوله ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ ونلاحظ في هذه الفقرة بأنّ الله تعالى أورد الجار والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ مستبدلا اسم الإشارة للبعيد بدل القريب من جهة وحاذفا المشار إليه من جهة أخرى لتوسيع المعنى. وليفسح للزّوج الرّجوع عن قضيّة الطّلاق التي أقامها على زوجته. ومن ثمّ أضاف تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. وقد فهم العلاّمة الفخر الرّازي رحمه الله من هذه الفقرة أنّ الله تعالى يتكلّم عن الحقوق المشتركة التي لكلّ طرف من طرفي عقد الزّوجيّة. على حين أنّ سباق هذه الفقرة قد نصّ على حقّ عودة الزّوج عن دعوى الطّلاق وخلال مدّة تربّص المطلّقة ثلاثة قروء. وهذا السّباق يفرض علينا أن نفهم من قوله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أن نفهم منه بأنّ الله تعالى أعطى هذه المطلّقة حقّ رفضها الرّجوع إلى زوجها وتأكيدها على الطّلاق إن رأت ذلك. فهي متساوية مع زوجها في حقّ الرّجوع عن الطّلاق أو في التّأكيد عليه. أمّا لماذا قال الله تعالى في هذه الفقرة (بالمعروف)؟ فقد قصد بالمعروف هنا المشهور من معطيات الآيات السّبعة الواردة في مستهلّ سورة الطّلاق. والإشارة خاصّة إلى قوله تعالى فيها ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾.

لكنّ الله تعالى أضاف بعد ذلك وقال ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾. وأرى هنا وتبعا لمعطيات هذا القول وسباقه بأنّ الله تعالى قد دفع بالقاضي الشّرعيّ هنا ليساعد الزّوج الذي طلّق زوجته ورجع عن قضيّة طلاقه إيّاها وليدعمه في مقابل زوجته وإصرارها على طلب الطّلاق. وأن يحاول إقناع المطلّقة بالبقاء على عصمة زوجها ولتمنحه الفرصة الأخيرة في مجال التّعامل معها تعاملاً حسناً. وقد انطلقت أيضاً في فهمي هذا لهذه الفقرة من منطلق أنّ الآية الأولى من سورة النّساء المصاغة صياغة بلاغيّة دستوريّة قد ساوت ما بين الرّجل وما بين المرأة ولذلك فلا يجوز أن نفسّر هذه الفقرة بما يخالفها.

ولتلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى اختصر حيثيّات هذه الأحكام التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة اختصرها في ثلاثة كلمات وقال ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. فصفة الله (العزيز) تعني المنيع الذي لا يُغالب ولا يُعجزه شيء ولا مثل له. وصفة الله (الحكيم) تعني الذّات الذي جمع ما بين القول والعمل بإتقان (محيط المحيط). علماً بأنّه تعالى أورد صفتي العزيز والحكيم محذوفا المضاف منهما لعدم توضيحه في أيّ شيء هو تعالى عزيز وحكيم في هذا المقام. والقصد من هذا الحذف هو توسيع دلالة هذه الحيثيّات. ولتعني صفة (عزيز) في هذه الفقرة بأنّ الله تعالى لا يُغالب في صياغة هذه الأحكام بلاغيّا من حيث الصّياغة. ولا يُغالب من حيث المضمون فيما قنّنه من أحكام في هذه المسألة. ولتعني صفته (حكيم) بأنّه تعالى قد أتقن ما صاغه من أحكام من حيث

الصّياغة. وأمّا من حيث المضمون فقد أعطى الله عز وجلّ من خلالها كلّ ذي حقٍّ حقّه ولم يترك لطرفٍ من هذين الطّرفين مجالاً للشّكوى.

ولمّا كان الله عز وجلّ قد كان فرض كفّارة على الزّوج الذي يقسم بطلاق زوجته وسمح له أن ينفّذ ما أقسم عليه إن شاء من جهة أخرى. فقد أورد جلّ شأنه آيتين جديدتين حدّد من خلالهما الطّلاق الممكن والحدّ الأقصى لوقوعه وقال ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ وبذلك يكون الله تعالى قد اشترط أن يكون الطّلاق الثّاني هو الطّلاق الأخير وأنّ على الزّوجة أن تتزوّج زوجا آخر غير الذي طلّقها لتقارن ما بين الزّوجين وأين ترتاح. فإن حدث بينها وبين الزّوج الجديد خلاف وأقدم على طلاقها وأيقنت أنّ زوجها الأوّل كان الأفضل وأنّها ظلمته فلها أن ترجع إلى الزّوج الأوّل وتتفاهم معه إن كان ما يزال عازبا لم يتزوّج بعدها.

وعلى هذه الصّورة يكون الله تعالى قد عالج تلك الصّفة المذمومة التي كان اتّصف بها عرب الجاهليّة الذين كانوا يجعلون الله عُرضةً لأيمانهم في حياتهم الزّوجيّة. وعالج تلك الصّفة بأسلوب منطقيّ وعلميٍّ أيضا لقوله تعالى في حيثيات تلك الحلول ﴿ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾. لكنّ المسلمين الذين جاءوا بعد إنزال هذه

الآيات الكريمة عادوا في حياتهم اليوميّة إلى جاهليّتهم ولـم يفـهموا هـذه الحلول على حقيقتها فابتدعوا بدعة (التّجحيش) لبعدهم عن فـهم هـذه الحلول بما اتّصفت به من صفة منطقيّة وصفة علميّة.

فـالدّرس المستفاد مـن هـذه الآيـات الكريمـة هـو أنّـه ينبغــي علــى الزّوجـين التّحـاور والتّفـاهم فيمـا بينـهم والابتعـاد عـن تصرّفــات ردود الأفعال التي هي صفـة بـارزة مـن صفـات الحيوانـات الغريزيّـة والاعتيـاد على كظم الغيـظ والأخـذ بـروح التّسـامح واللّـين والابتعـاد عـن القسـم بالطّلاق عن تلك الصّفة التي تدخل في صفات الجاهليّين.

ولزيـادة البيـان أحـاول تدبّـر الآيتـين اللّتـين أعطتـا هـذه الــدّروس والعـبر بمنهجيّـة القـرآن الكريـم وأصـول تفسـيره فــأقول: قولـه تعـالى ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ وردت فيه كلمة (الطّلاق) معرّفة بالألف واللام. وإنّ المعهود الذّهني الذي تضمّنه تسلسـل الآيـات الموضوعـي يذهـب بذهننـا إلى الذي أقسم على زوجته بـالطّلاق وآخـذه ربّـه علـى قسـمه بـالطّلاق بحرمانه من معاشرتها أربعة أشهر بشروطها. وبما أنّـه ينتـج عـن مخالفـة الزّوج لهذا الحكم سؤال: ما هي العقوبة التي يستحقّها هـذا الخـلاف إن هو كرّر القسم بالطّلاق مرّة ثانية. فإنّ الله تعـالى صـرّح وقـال ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ ومـن ثـمّ أتـى تعـالى بفـاء الاسـتئناف فاسـتأنف كلامـه وقـال ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾ والمعنــى إمّــا أن يُبقــي هــذا المخـالف علـى زوجتــه ويعاملـها بعـد ذلـك بمعـروف. أو أن يطلّقـها بإحسان. فكلمة (بمعروف) فالباء للاسـتعانة وتعني بمـا هـو مشـهور مـن أحكام. وأمّا قوله تعالى ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾ فكلمة (تسريح) مشتقّة من قولك: سرّح فلانٌ زوجته ومعنـاه طلّقـها بيسـر وسـهولة لأنّ قولـك

سرح فلان الأمر معناه يسّره وسهّله. والملاحظ من خلال ذلك هو أنّ الله تعالى أورد هنا كلمة (فإمساكٌ) في مقابل كلمة (تسريحٌ) ومنوّنا كلتا الكلمتين. والحكمة من ذلك أن يشير تعالى على هذا الزّوج أن يعامل زوجته في الأيّام الباقية لها في منزل الزّوجيّة بيسر ولين وسهولة في معاملته إيّاها وبعيدا عن إهانتها وألاّ يبخل عليها في إنفاقه عليها. وأن يكون تسريحه لمطلّقته مقرونا بالإحسان إليها أيضاً. وذلك لدلالة الباء الدّاخلة على قوله تعالى (بإحسان). وبما أنّ الله تعالى قد حذف مضاف هذه الكلمة فقد حدث هذا الحذف البلاغيّ لتصريف معنى الإحسان إلى التّصرّف مع هذه المطلّقة بمنتهى التّصرّف الحسن وأن يسرّحها وهو محسنٌ إليها. وتوضيحا لنوعيّة هذا الإحسان المطلوب فقد أتى الله جلّ شأنه بواو العطف وقال في آية جديدة ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾. ولنتفهّم مضمون هذه الآية الكريمة والتي اختلف في فهمها الفقهاء والمفسّرون القدماء رحمهم الله جميعا، نتدبّرها من جديد. وأرى أنّ خطاب ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ ﴾ ما يزال موجّها إلى الذين تكلّمت عنهم الآيات السّابقة والذين أقسموا بالطّلاق للمرّة الثّانية. فقد بيّن تعالى هنا وقال لهؤلاء المخالفين ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾. وبمعنى أنّ إحسانكم إلى هذه المطلّقات لا يُعدُّ في نظر ربّكم كاملا إن أنتم استرجعتم من هذه المطلّقات شيئا كنتم قد أتحفتموهنّ به قبل هذا القسم الأخير بالطّلاق. وبغضّ النّظر عن أن يكون هذا العطاء من قبيل الحليّ أو من اللّباس أو من المهر أو من العقارات. وهذا المعنى من منطلق أنّ فعل (آتيتموهنّ) اشتقّ من قولك آتى زوجته شيئا بمعنى أعطاها إيّاه. والملاحظ هو أنّ الله تعالى أتى بعد ذلك بحرف (إلا) وقال ﴿ إِلَّآ أَن

تخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ ففعل (يخافا) اشتقّ من قولك خاف فلانٌ ومعناه فزع وحذر واتّقى. وعلى ضوء هذا المعنى ننظر هل أنّ حرف (إلا) ورد هنا بمعنى الاستثناء أو بمعنى آخر سواه؟ وفي نظري فإنّ المعنى لا يستقيم هنا إلا إذا أخذنا حرف (إلاّ) بمعنى غير. وأن نأخذ لفعل (يخافا) معنى الفزع. وعليه يصبح معنى قوله تعالى ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي غير أن يظهر على طرفي الزّوجيّة الفزع من مخالفة قوله تعالى ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ إذ من المحتمل أن يكون هذا الزّوج الذي أقسم بالطّلاق للمرّة الثّانية أن يكون قد آتى مطلّقته دارا أو حديقة أو حليّاً كثيراً، ويتردّد في ترك ذلك كلّه لمطلّقته فيخالف بهذا الإمساك أمر ربّه عز وجلّ. وهنا ينشأ سؤال وهو: من الذي له حقّ التّدخّل حينئذ لفض هذا النّزاع؟

وإجابة على هذا السّؤال فقد أتى الله تعالى بفاء الاستئناف وبحرف (إن) الجزائيّة وقال يخاطب القضاة الشّرعيّين المكلّفين بتنفيذ حدود الله هذه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ خاطبهم أن يحاولوا إقناع هذه المطلّقة أن تفتدي نفسها بترك ما تستطيع ردّه إليه وإنهاء لقضيّة الطّلاق المرفوعة لديهم. واحتساب ما فعله الزّوج معها إلى الله عز وجلّ.

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى ما إن فرغ من أوامره سالفة الذّكر، فإنّه لم يقل (هذه حدود الله) بل قال ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي أنّه استبدل اسم الإشارة القريب بالبعيد إظهارا لعظمة ما شرّعه وما اتّصفت به هذه الأحكام من مرونة ظاهرة. ومن ثمّ فقد أتى تعالى بفاء الاستئناف وأمر هؤلاء الأزواج المؤمنين وقال ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وبمعنى

أنّكم إن كنتم مؤمنين حقّا فلا تتجاوزوا ما شرّعناه لكم لمعالجة صفة القسم بالطّلاق المذمومة.

ومن ثمّ فقد أتى تعالى بواو العطف وأنذر الذين يخالفون هذه الأحكام وقال ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾. ومعرّفاً كلمة (الظّالمون) بأداة التّعريف التي تفيد المعهود من المخالفين لأوامر ربّهم عز وجلّ أولئك الذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى من أحكام. وهم الذين ستكون لهم سوء عاقبة الدّار. وإنّ هذا إنذار رهيب ومشؤوم. وعلى هذه الصّورة فإنّ هذه الفقرة الأخيرة من الآية استوفت حيثيّات جميع ما قنّنه تعالى من أحكام. فلمّ يصل القارئ الكريم إلى هذا الحدّ من المعرفة يسأل: وهل يسمح الإسلام بقسم ثالث بالطّلاق؟ ولم يدع الله عز وجلّ هذا السّؤال يمرّ هنا بدون الإجابة عليه. ولذلك فقد أتى تعالى بفاء الاستئناف وقال مجيبا على هذا السّؤال: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

فقد قال تعالى في الفقرة الأولى ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ أي أنّه أورد (إن) الشّرطيّة كما أنّ ضمير (طلّقها) يعود إلى الزّوج الأوّل الذي طلّقها وفق شروط الطّلاق التي نصّت عليه الآيات المختصّة. يقول تعالى بعد ذلك ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ أي أنّ هذا الزّوج المطلّق إذا أراد استرجاع زوجته فما عاد له من حقّ أن يفعل ذلك وكان لابدّ لهذه الزّوجة أن تتزوّج رجلا آخر بدليل حرف الجرّ (حتّى) الدّالّة على انتهاء الغاية. ومن ثمّ أتى تعالى بفاء الاستئناف وقال من جديد ﴿ فَإِن

طَلَّقَهَا﴾ وبذلك فقد أعاد تعالى هنا ضمير (طلّقها) إلى الزّوج الثّاني الذي تزوّجته هذه المطلّقة. لماذا؟ لكي تعيش هذه الزّوجة مع زوج جديد ولتشعر بالفارق ما بين حياتها القديمة وما بين حياتها الجديدة.

ومن ثمّ أتى تعالى بفاء الاستئناف من جديد وقال ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ ومن خلال قوله تعالى هذا فقد نبّه إلى أنّه قد لا تتفاهم هذه المطلّقة مع الزّوج الجديد الذي إن هو طلّقها فقد سنحت بعدها للزّوج الأوّل فرصة مفاوضة مطلّقته هذه بعد طلاقها من زوجها الثّاني لعلّها تتراجع لتلتزم بحدود الله تعالى عنده إن هي رضيت أن تصبح زوجته من جديد. ويحقّ للقاضي الشّرعي يومئذ أن يعقد لهذا الذي كان قد طلّق مرّتين أن يعقد له عقد النّكاح للمرّة الثّالثة عليها أيضاً إن هي رضيت بذلك. فهذا ما دلّ عليه فعل (يتراجعا) المحذوف المضاف منه وليعني هذا الحذف أكثر من معنى:

فالمعنى الأوّل أن يتراجعا عن موقف العداء السّابق أحدهما من الآخر.

والمعنى الثّاني أن يتراجع كلّ واحد منهما عن سلوكه الخاطئ الذي كان قد أدّى إلى الطّلاق. والمعنى الثّالث أن يتمّ طلاقها من الزّوج الثّاني لتعود إلى عقد زواجها من الأوّل الذي كان قد طلّقها مرّتين من قبل.

أمّا إذا تراضت مع زوجها الثّاني ولم تتركه فقد انتهت مشكلتها. وقد أكّد الله تعالى ما ذهبنا إليه من معاني حين أتى بعد ذلك بحرف (إن) الزّائدة وبمعنى (إذا) وقال ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي إذا اعتقدا في هذه الحالة أنّهما سيلتزمان بحدود الله تعالى في زواجهما المقبل.

وهذا التّأكيد كان القصد منه أن يُقرّا بهذا العزم وهذا الاعتقاد أمام القاضي الشّرعيّ ليصبح شاهداً عليهما في هذه الأحوال وليعقد عقد نكاحهما الثّالث على أساس منه.

وقد أنهى الله تعالى هذه الآية الكريمة ببيان حيثيّات ما تضمّنته من أحكام وقال: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وقد أورد اسم الإشارة للبعيد (تلك) بدلاً من (هذه) للقريب هنا إظهارا لعظمة ما قنّنه جلّ شأنه في الآية من ﴿ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾. كما أتى بفعل (يبينها) المشتقّ من بيّن بمعنى وضّح. ولم يقل (لقوم عالمون) بل قال ﴿ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ مع حذف مفعول يعلمون لتصريف معناه لأكثر من معنى. وليعود معنى قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أنّ هذه الحدود التي شرّعها الله تعالى في هذه الآية الكريمة عظيمة الأهمّيّة وقد وضّحها تعالى للّذين يتبيّنون نواحي أهمّيتها. ويحيطون علما بتأثيرها النّفسيّ في نفس كلّ طرف من طرفي عقد الزّوجيّة. ولا يحيطون بهذا كلّه إلاّ إذا أدركوا مراميها بإدراك كلّي وشمولي.

وبعد أن أنهينا تدبّرنا لمضامين هذه الآية الكريمة 230 بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره تعود تُدرك يا عزيزي القارئ خطأ من قال بأنّ الطّلاق ثلاث مرّات. فالطّلاق مرّتان. ونظام (التّجحيش) الذي قال به بعض الفقهاء خطأ ومخالف لهذا النّصّ القرآني الذي يستشعر القارئ منه أنّ الله تعالى يبغض عمليّة الطّلاق التي حلّلها في تلك الآيات. ولذلك فإنّه تعالى أتى بعدها بآية حذّر فيها الزّوجين وقال: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾. فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ هذه الآية الطّويلة قد

وردت مصاغة بصياغة بلاغيّة دستوريّة عامّة الدّلالات وغير مخصّصة وقد اشتملت على مصادر جميع آيات الأحكام القانونيّة السّابقة التي كانت أحكامها مخصّصة بأمور معيّنة. وقد أحطنا علما بهذه الحقيقة بعد أن أطلعنا الله تعالى على أصول تفسير آيات كتابه العزيز ومن تلك الأصول وجود آيات مصاغة صياغة بلاغيّة دستوريّة وآيات مصاغة صياغة بلاغيّة قانونيّة. وهذه حقائق لم يُحط بها علما المفسّرون القدماء رحمهم الله لذلك إن أنت راجعت تفاسيرهم لهذه الآيات تلاحظ أنّهم نظروا إلى بعض الأحكام على أنّها مكرّرة وراحوا يدافعون عن ذاك التّكرار الذي توهّموا وجوده. لكنّ الحقيقة هي أنّ الله تعالى كان قد أورد في سورة الطّلاق أربعة آيات مصاغة بصياغة بلاغيّة دستوريّة وكمرجع للأحكام القانونيّة التي أوردها هناك. وأمّا في سورة البقرة فقد جعل الله تعالى نهيه عن اللّغو بالقسم مناسبة للكلام عن كراهيّة القسم بالطّلاق. وأصدر أحكاما قانونيّة تضمّنتها عدّة آيات ومن ثمّ أنهاها بهذه الآية المصاغة صياغة دستوريّة ولتصبح مرجعا لتلك الأحكام القانونيّة الواردة قبلها. وقد أتى تعالى بذلك كلّه بما يتناسب وتسلسل آيات سورة البقرة الموضوعي. وهذا إعجاز يقينا.

وهيّا نتدبّر هذه الآية الدّستوريّة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

فالله جلّ شأنه قال في الفقرة الأولى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾. وكنت قد بيّنت حين تفسير أحكام الطّلاق الواردة في سورة الطّلاق أنّ أحكامها تتعلّق بزماننا الحاضر خاصّة لكثرة انتشار قضايا القَسم بالطّلاق فيه بين المسلمين لتراخيهم في العمل على أحكام الدِّين. وهي

حقيقة دلّ عليها هذا الظّرف الزّماني (إذا) الذي ورد هناك والذي استُهلّت به هذه الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة. فالخطاب في هذه الفقرة موجّه إلى الأزواج المخاطبين في الآيات السّابقة ممّن اعتادوا القسم بالطّلاق خلال حالات غضبهم. يخاطبهم ربّهم إن هم أقسموا بالطّلاق ورفعوا دعاوى طلاق ضدّ زوجاتهم في المحاكم الشّرعيّة. فأتى بفاء الاستئناف وقال ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ بمعنى أنّ القاضي الشّرعيّ قد أجّل الفصل في قضيّة الطّلاق إلى أن تكمل الزّوجة قضاء عدّتها في بيت الزّوجيّة إلى أن بلغن أجلهنّ. وهنا عاد تعالى فتوجّه إلى هؤلاء المطلّقين وقال ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ أي لا تُمسكوهنّ في فترة العدّة بما يضرّهنّ اعتداء عليهنّ من جانبكم. ومن ثمّ أضاف تعالى وقال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي أنّ هذا النّوع من الظّلم يرتدّ على صاحبه. وأضاف تعالى ينهى ويقول ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾.

أي لا تستهينوا بما شرّعه الله تعالى لكم من أحكام. وأضاف وقال ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ أي أنّ ما شرّعه الله تعالى لكم هو نعمة أنعمها ربّكم عليكم بها وإنّ ما كتبه عليكم من أحكام استند فيه إلى حكمة هي في صالحكم وليعظكم بها. وقد أنهى تعالى هذه الآية بقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بمعنى أنّ ثمار هذه الأحكام لا تؤتي أُكُلها إلاّ إذا عملتم عليها بتقوى الله تعالى وأنتم موقنين بأنّها أحكام قامت على أُسسٍ علميّة ومن منطلق كون الله تعالى بكلّ شيء عليم.

وهكذا فقد تبيّن أنّ هذه الآية 231 قد صيغت صياغة عامّة الدّلالات ودستوريّة. وتتضمّن حيثيّات أحكام الطّلاق بالقسم.

ومن ثمّ فقد أتى الله تعالى بالآية 232 وراح يحدّد من خلالها صلاحيّات القضاة الشّرعيّين فقال ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾. فقوله تعالى هنا ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ لم يُقصد به مخاطبة الأزواج ولكن قُصدَ به مخاطبة القضاة الشّرعيّين الذين بيدهم الفصل في دعاوى الطّلاق. فالله تعالى يعظ هؤلاء القضاة ويقول إذا قرّرتم الفصل في قضيّة الطّلاق المرفوعة لديكم بعد أن انتهى الأجل الذي حدّدتموه لقضاء عدّة هذه المطلّقة وهو معنى هذا الاستئناف في الكلام ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ وهذا من باب أنّ لبلوغ الأجل معنيان: المعنى الأوّل هو انتهاء المدّة المقرّرة. وهو المعنى الذي أجمع عليه علماء الأمّة حسب قول العلاّمة القرطبيّ ولقولك: بلغنا البلد إذا وصلنا إلى هذا البلد. والمعنى الثّاني هو قرب انتهاء المدّة المقرّرة. وهو المقصود في هذا المقام من قوله تعالى ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ وفي سياق مخاطبة الله تعالى القضاة الشّرعيّين. فالله تعالى يأمر هؤلاء القضاة الشّرعيّين ويقول لهم ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾. ففعل (تعضلوهنّ) اشتقّ من قولك فلان عضل زوجته من كذا معناه أنّه منعها منه ظلما (محيط المحيط). وقوله تعالى ﴿ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ فالزّوجة لا تنكح زوجها. وإنّ هذا القول ورد من باب أنّ العرب قد تسمّي الشّيء باسم ما يؤول إليه.

وعليه فإنّ الله تعالى يعظ القضاة ويحذّرهم من الوقوف عقبة دون تراجع الزّوجين عن قضيّة الطّلاق فيما ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

ومن باب أنّ كلمة (تراضوا) معناها رضي بعضهما عن بعض (محيط المحيط). ولذلك فقد أتى تعالى بعد ذلك باسم الإشارة للبعيد تعظيما لأمره هذا وقال ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾. وبذلك يكون الله تعالى من خلال قوله هذا قد نبّه عقولنا إلى الفارق الكبير ما بين ما يعقده غير المؤمنين من عقود قران ما بين الفتيان والفتيات وما بين ما يعقده القضاة الشّرعيّون الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر.

والملاحظ أنّه تعالى حذف مضاف كلمتي (أزكى وأطهر) لتوسيع دلالتيهما ولتعنيا بأنّ العمل على هذه الموعظة يؤدّي إلى زيادة خشية الزّوجين من ربّهما وإلى تنمية أواصر المحبّة بينهما وإلى تطهير أنفسهما من كلّ دنس وإلى إعادة محبّة الأولاد لأبويهم بعد التمام شملهما من جديد ويُصانون من جرّاء ذلك من الانحراف عن الطّريق ومن التّشرّد أيضاً.

وبما أنّ موضوع إرضاع المولود له صلة بالمضامين التي نصّت عليها الآيات السّابقة فقد أتى بعدها بآية مصاغة صياغة بلاغيّة دستوريّة عامّة الدّلالات وقال في الآية 233 من سورة البقرة ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. وقد تناول الله تعالى في الفقرة الأولى الكلام عن مدّة الرّضاعة من خلال قوله ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ وإنّ سياق هذا النّصّ الموضوعيّ يؤكّد بأنّ مضمون هذه الفقرة من الآية متعلّقٌ بالزّوجة المكلّفة التي ثبت أنّها كانت حاملا ووضعت حملها وفصلت المحكمة الشّرعيّة في قضيّة طلاقها من زوجها. فإرضاع المولود الذي وضعته وتكفّلت بإرضاعه مدّته ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾. وأمّا إذا أحضر الزّوج مرضعة من أجل إرضاع هذا المولود فمن واجب هذه المرضعة أن تُرضعه ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ أيضاً. وهنا فرض الله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي أنّ الزّوج المطلّق مكلّف بأداء نفقات إطعام المطلّقة وكسوتها مدّة الرّضاعة أو إطعام المرضعة وكسوتها مدّة الرّضاعة أيضاً (بالمعروف) أي بما هو متعارف عليه في تلك الأيّام. ومن ثمّ أتى تعالى بحكم جدّ لطيفة وقال ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾. بمعنى أنّه إن أحبّت المطلّقة أن تُرضع ما ولدته وبقيت في بيت زوجها من أجل ذلك فلا ينبغي معاملتها كخادمة في الدّار بل معاملتها معاملة حسنة ومحترمة. ولا ينبغي أن يُلقى عبء هذا المولود كلّه على المطلّقة فلا تُكلّف إلا وُسعها ولا يكلّف الوالد إلا وسعه أيضاً. ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾. أي إن مات الوالد فإنّ الوارث يكلّف بمثل ذلك العبء. ومن ثمّ أتى تعالى بفاء الاستئناف وقال ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو تعالى قد شرّع استثناء لما شرّعه من قبل لعدّة احتمالات يتعرّض لها كلّ طرفٍ منهما. فقد يجفّ حليب

ثدي المطلّقة، أو تُخطبُ لرجل آخر، وتضطرّ من جرّاء ذلك إلى الاعتذار عن إتمام الرّضاعة ولكن عن (تراض وتشاور) بينها وبين الذي طلّقها خشية على المولود. فإن حدث ذلك فلا جناح عليهما فسخ ما بينهما من عقد رضاعة وينجوان من مؤاخذة ربّهما ومحاسبته. وللوالد حينئذ أن يبحث عن مرضعة تكمل مدّة الرّضاعة فإن وافق حليب ثديها هذا الرّضيع ولم يتقزّز منه فيأتيها بالمولود ويدفع لها المتعارف عليه بين النّاس في حينه. فإلى هذا المعنى أشار قوله تعالى الأخير ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وقد أتى الله جلّ شأنه أخيرا بحيثيّات ما أمر به وشرّعه وقال ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وإنّه جلّ شأنه حين وعظ وقال هنا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فقد وضّح بصورة غير مباشرة حساسيّة ضرورة إرضاع هذا المولود الذي صوّره الخالق من نطفة إذا تُمنى. فكان من الحساسية بمكان المحافظة على حياته. وإنّه جلّ شأنه عندما قال ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فكلمة (بصير) يعني ذو بصيرة. وعليه فقد نبّه تعالى إلى أنّه أمر بما أمر به وشرّعه ببصيرة العارف بجميع ما يتعرّض له هذان الطّرفان من احتمالات فقدّرها جميعها ببصيرة لكونه ذو بصيرة.

واعلم يا عزيزي القارئ بأنّ الله تعالى أكمل موضوع الطّلاق وذلك من خلال الآيتين 236 ـ 237 والمصاغتين صياغة بلاغيّة دستوريّة ذات دلالات عامّة وشاملة قال فيهما ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن

طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ففي الفقرة الأولى أورد تعالى حرف (إن) الشّرطيّة وحرف الجزم (لم) الذي قلب فعل المضارع (تمسّوهنّ) إلى معنى الماضي. وهو الفعل المشتقّ من مسّ الشّيء معناه لمسه وأفضى إليه بيده من غير حائل وأصابه واختبره. كما أورد (إلاّ أن) بمعنى الاستثناء لأنّه نصب فعل (تفرضوا).
وأمّا كلمة (فريضة) فمن فرض فلان لفلانة مبلغا قدّره أي لاحظه بعقله وتصوّره وعيّنه (محيط المحيط).

وعليه يكون الله تعالى قد سمح في الفقرة الأولى وهي قوله ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ قد سمح تعالى للفتى أن يعقد نكاحه على فتاة ومن دون أن يفرض لها فريضة ومبلغا معيّنا قد سمح لهما أن يمضيا مدّة تعارف بينهما لمجرّد اختبار الواحد الآخر ومن دون الإقدام على ظواهر معاشرته لها فإنّ تبيّن لهما عدم وجود تفاهم بينهما فإنّ الله تعالى قد سمح لهما بالافتراق بالطّلاق. وأمّا في الفقرة الثّانية قوله فيها ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فقد فرض تعالى على هذا الفتى تقديم عطيّة لفتاته عند الطّلاق متاعا من فضّة أو من ذهب أو من لباس أو من كلّ واحد من هذه الأشياء. كما فرض أن تكون هذه العطيّة متناسبة مع حالته الماليّة وعلى قدر ما وسّع الله تعالى عليه. أمّا إذا كان (مُقترا) فلتكن عطيّته على قدر حاله أيضاً. وأمّا قوله تعالى ﴿مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فقد أوصى تعالى أن

يكون ما يمتّعها به ممّا هو مشهور في زمانه وأن يؤدّيه كحقٍّ عليه من باب أن يراعي أحاسيسها وسمعتها ويكون في تلك الحال من (المحسنين) في نظر ربّه عز وجلّ.

فإن أنت أمعنت نظرك يا عزيزي القارئ في مضمون هذا السّماح الشّرعيّ الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة تصل إلى أنّ الإسلام قد أتى بأسمى ما يتطلّبه عصرنا من ضرورات على صعيد الزّواج. فهذا التّعليم قد فرض أن يعقد الفتى على فتاته عقد زواج ليحلّ له مخالطتها واختبار مدى مناسبتها له ومدى مناسبته لها شرط أن تقف علاقتهما عند هذا الحدّ ولا تتجاوزها إلى مستوى المعاشرة الزّوجيّة. ولم يحدّد الله تعالى مدّة الاختبار هذه فإن حزما أمرهما على الافتراق فليكن هذا الفراق عن تراض بينهما وعلى صورة تحفظ لهذه الفتاة كرامتها وأحاسيسها وليس هذا وحسب بل وأن يهديها هديّة عند الفراق تتناسب وحال الفتى المادّي والاجتماعي وأن يصبح هذا السّماح عُرفاً في البيئة الإسلاميّة. وهذا النّوع من عقد النّكاح يجوز ألاّ يكون مقرونا بمهر وفريضة.

وأمّا في الآية الثّانية فقد سمح تعالى بعقد زواج على مهر وعطيّة وقال في الفقرة الأولى ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي وكان الفرق بين الحالين أنّ العقد في الحالة الجديدة مقرونا بمهر وفريضة. ولم تمسّوهنّ وعمدتم إلى الطّلاق بعد أن تبيّن لكما عدم إمكانيّة الوفاق بينكما. فقد سمح تعالى في هذه الحالة بالطّلاق شرط أن يؤدّي لهذه المطلّقة نصف ما فرض لها من مهر. وهي حقيقة تضمّنها قوله تعالى ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ وهنا فقد أتى تعالى باستثناء قال فيه ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾

فهو تعالى سمح للفتاة وأهلها أن يسامحوا هذا الفتى فلا يطالبونـه بالمـهر. كما سمح لـهذا الفتـى أن يـؤدّي لـها كـامل المـهر وهـو معنـى ﴿ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ لكون الزّوج وليّ هـذه الزّوجة في الأصـل وقد أورد تعالى فعل (يعفـو) في هـذه الفقـرة بمعنـى أن يـؤدّي هـذا الفتـى الذي طلّق هذه الفتاة قبل أن يمسّها كامل مهرها. ومثال هذا الاسـتعمال قول الله تعالى في الآية **219** من سورة البقـرة ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ ﴾ أي ما يزيد عمّا تحتاجونه من نفقات. ومن ثمّ فقد شجّع الله تعالى هذا الفتى الذي طلّق فتاته من قبـل أن يمسّـها علـى إعطائـها كـامل المهر خشية أن يفقـد هـذا الفتـى محبّـة ربّـه عـز وجـلّ. وهـو معنـى قولـه تعالى ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾.

وأمّا في الفقرة الأخيرة فقد قال تعالى ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ ﴾ فكلمـة (الفضـل) معرّفـة بـأداة التّعريــف تعنــي لغــة وكمــا ورد في (التّعريفات) الابتداء بالإحسان بـلا علّـة ولا سـببٍ لـه. وتشـمل جميـع أنواع الإحسان المقرّرة في كتاب الله العزيـز وهـي حقيقـة دلّـت عليـها أداة التّعريف التي أفادت الاستغراق وذلك لجذب محبّة الله تعالى.

وقد أتى الله تعالى أخيرا بحيثيّات هذه الأحكام وقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وبمعنـى أنّ جميـع مـا شـرّعه تعـالى في هــاتين الآيتــين الكريمتين استند إلى كون الله الذي شـرّعها ذو بصـيرة بنفسيّات الجنسـين وذو بصيرة بوسائل معالجتها. علما بأنّ هاتين الآيتين قد وردتا مصاغتين بصياغة بلاغيّة دسـتوريّة وتضـاف إلـى الآيـات الدّسـتوريّة الأربعـة التـي أوردها تعالى في سورة الطّلاق. وتتّسم جميع هذه الآيات بسمة التّكريه

بعمليّة الطّلاق من جهة وبمحاولة الله عز وجلّ تأخير الفصل في قضايا الطّلاق بغرض إصلاح ذات البين من جهة ثانية.

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى لم يقف عند هذا الحدّ من معالجة اختلافات الزّوجين ومن تكريههما بالطّلاق ومن تأخير الفصل في قضايا الطّلاق. بل وإنّ الله جلّ شأنه راح يصف لهذين الزّوجين وصفة علاج لأحوالهما تمسّ صلب موضوع الاختلافات جميعها والتي تنشأ ما بين الأزواج. وهذه الوصفة العلاجيّة عبّرت عنها الآية 238 والتي وردت بعد الآيتين الأخيرتين وفي سياق التّسلسل الموضوعيّ لهذه الآيات الكريمة فقال تعالى وعزّ من قائل: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ ولنتدبّر هذه الآية بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. ففعل الأمر (حافظوا) من حفظ الشّيء حرسه ومنعه من الضّياع. وأمّا (الصّلاة الوسطى) فمن وسط القوم جلس وسطهم. ووسط المكان وقف وسطه. والوسط المعتدل من الأفعال. ثمّ إنّ فعل (قوموا) من قام بمعنى انتصب وضدّ قعد. وأمّا كلمة (قانتين) فمن قنت وبمعنى أطاع وسكت ودعا وقام في الصّلاة وأمسك عن الكلام فيها. والقانت اسم فاعل ومعناه القائم بالطّاعة الدّائم عليها (محيط المحيط). وأمّا اللام في (لله) فهي لام التّعليل. بمعنى أن يكون القيام والصّلاة والدّعاء من أجل إرضاء الله تعالى وجذب محبّته وقربه ورضوانه.

واستناداً إلى معاني ودلالات ألفاظ هذه الآية الكريمة يصبح معنى قول الله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ هو أنّ الله تعالى وبعد أن شرّع للأزواج طرق حلّ اختلافاتهم فقد راح يعظهم بما يقيهم من الوقوع في أيّ اختلاف فيما

بينهم وذلك من خلال محافظتهم على أداء صلواتهم المفروضة عليهم بشروط صحّتها والإحاطة بفلسفتها والمقصد منها ليستفيدوا من تأثيرها في حياتهم اليوميّة وتعاملاتهم فيما بينهم. وليس هذا وحسب، بل وأن يحافظوا على (الصّلاة الوسطى) وهي اليقظة مع الله تعالى وذكره ما بين كلّ صلاة وصلاة وعدم الغفلة عن حقوق الله عليهم وحقوق عباده عليهم أيضا وحمده وشكره والثّناء عليه في جميع أحوالهم. فهذا هو معنى (الصّلاة الوسطى) التي تتوسّط صلوات عباد الله المؤمنين. وقد ركّز الله تعالى على ضرورة وعي كلّ طرف من طرفي عقد الزّوجيّة هذه الموعظة جيّداً وذلك من خلال ورود إشارة الوقف الواردة بعد هذه الموعظة وهي إشارة (قف) التي من شأنها تنبيه القارئ للتّوقّف عندها ولتأمّل دلالات ما قبلها. وهي الحقيقة التي وضّحتها في (خصوصيّات القرآن الكريم المعجزة). كما وعظ الله تعالى هؤلاء الأزواج وأمرهم وقال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾. بمعنى أنّ الله تعالى يأمر هؤلاء الأزواج أيضا ألاّ يغفلوا عن إطاعة أوامر ربّهم بل أن يقوموا في صلواتهم التي تنهاهم عن الفحشاء والمنكر من الأقوال والأفعال وسعيا لجذب محبّة ربّهم وقربه ورضوانه.

ألا واعلم يا عزيزي القارئ بأنّ المفكّر الباحث الذي يبحث في أسباب اختلال حياة الأزواج التي تؤدّي بهم إلى اختلافهم ووقوع النّزاع فيما بينهم وتنتهي عند فراق هذه الأطراف الزّوجيّة وإلى تشتّت شمل الأبناء وتشرّدهم وتأثّر نفسيّات كلٍّ منهم بتأثير سلبيٍّ وبالتّالي ترك أبشع الآثار السّلبيّة على المجتمع الإسلاميّ. أقول: إنّ أساس ذلك كلّه يرجع في الحقيقة إلى عدم فهم المسلمين لمضمون هذه الموعظة القرآنيّة

التي تضمّنها قول الله تعالى في هذا المقام ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ وبالتّالي بُعد المسلمين عن تطبيق ما طلبته منهم، فهو هذه الموعظة الإلهية وتبنّيهم إياها في حياتهم العمليّة بدقّة اقتضتها هذه الموعظة القرآنيّة العظيمة. خصوصاً وأنّ الله تعالى قد أورد آخر كلمة (الوسطى) إشارة وقف يدعوهم ربهم من خلالها للتّوقّف وتدبر ما تضمّنته هذه الموعظة العظيمة. التي لم يحط الأسلاف بدلالاتها وتسبّبت بالتالي في اختلاف المفسّرين في موضوع هم (الصّلاة الوسطى) إلى سبعة مذاهب وعلى حسب ما أورده العلاّمة الفخر الرّازي رحمه الله من أنّ المفسّرين أخذوا لكلمة (الصّلاة) في هذه الآية الكريمة معنى الصّلاة المفروضة. على حين لو أنّهم كانوا قد أخذوا بمعناها اللّغويّ في هذا المقام وهو الدّعاء لكانوا أدركوا أنّ المقصود بهذه الكلمة هنا ذكر الله تعالى والدّعاء بين يديه عند كلّ ما يواجههم من مشاكل بين كلّ صلاة مفروضة وصلاة. هذا المعنى الذي يتّفق مع تسلسل هذه الآيات الموضوعيّ. فالآباء الذين يحافظون على صلواتهم وعلى صلاتهم الوسطى ويقوموا للّه قانتين لا يُرغمون أولادهم على الزّواج بمن يكرهونه. ويتركون هناك فرصة ليتلاقى الفتى بخطيبته يتعارفان فيها على بعضهم بعضا ووفق ما وعظت به هذه الآيات القرآنيّة. فإذا تمّ عقد الزّوجيّة ما بين الفتى والفتاة فإنّ على هذين الزّوجين ألاّ يتعجّلان في إنجاب الأولاد. فإذا بدأ الإنجاب أن يتركوا مدّة ثلاث سنوات على أقلّ تقدير ما بين إنجاب كلّ ولد وولد وعلى حسب ما أشار عليهم ربّهم في كتابه العزيز. وأن يمضيا حياتهما وكلّ واحد منهما يؤثر الآخر على نفسه ويؤدّي له ما عليه من حقوق فلا يبخسه منها

شيئا ولا يبخل عليه في عطاء. وأن يعظّما شعائر الله تعالى في جميع ما أمرهم به ربّهم من فرائض عبادات وفرائض ماليّة وفرائض معاملات.

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّك وبعد اطّلاعك على المضامين الحقيقيّة لهذه الآيات القرآنيّة الأخيرة تعود تتساءل بداهة: إن أقدم هذا الفتى فطلّق هذه الفتاة التي عقد عليها عقد زواج فطلّقها من دون المساس بها فهل يوجب الشّرع على هذه الفتاة انتظار مدّة (العدّة الشّرعيّة) بعد هذا الطّلاق؟

أقول: لاحظ كيف أنّ الله تعالى افترض أن تسأل هذا السّؤال ولذلك فقد أجاب تعالى على هذا السّؤال ووفق خصوصيّة كتابه العزيز وقال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ أي أنّ الله تعالى قد صاغ هذه الإجابة بصياغة بلاغيّة دستوريّة عامّة الدّلالات وغير مخصّصة بزمان معيّن. وقد أفتى في هذه الآية باستثناء هذه المطلّقة التي لم يمسّها زوجها بعد عقد زواجه عليها أفتاها وأعفاها من انتظار (العدّة الشّرعيّة) بعد طلاقها منه وبألفاظ صريحة.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بالإدلاء بهذه الفتوى بل وأتى بفاء الاستئناف وأضاف يقول ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ ففعل (متّعوهنّ) أشار تعالى به إلى ما فرضه على الزّوج المطلّق وذلك في الآية 237 تلك التي فرض فيها إعطاء المطلّقة نصف الفريضة إلاّ أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النّكاح. وأمّا فعل (سرّحوهنّ) فمن سرّح الفتاة معناه طلّقها. ففعل (سرّحوهنّ) معناه أنّ عليكم بعد إعطائكم هذه

الزّوجة نصف الفريضة التي كنتم قد فرضتموها لها أن تعمدوا إلى تطليقها بلطف ويُسر. ومن منطلق أنّ معنى قولك: سرّح الأمر سهّله. ففعل التّسريح يتضمّن أصلا معنى التّسهيل والتّلطّف. وإنّ الله عز وجلّ بالإضافة إلى معنى التّلطّف والتّسهيل الذي دلّ عليه فعل (سرّحوهنّ) فقد أضاف وأكّد على أن يكون تسريح هذه المطلّقات (سراحاً جميلا) وواصفا عمليّة التّسريح أن تكون سراحا (جميلا). أي أن يكون تسريحهنّ في منتهى التّلطّف والتّسهيل كيلا يجرحن من خلال ذلك مشاعر هذه المطلّقات اللّواتي لم تتلاءم طبائعهنّ مع طبائع هؤلاء الأزواج الذين اختبروهنّ بعد عقد الزّواج عليهنّ.

أقول: أين هذا التّعليم القرآنيّ العظيم من حال مسلميّ هذا الزّمان الذين يثبتون يوما بعد يوم بُعدهم عن فهم مضمون هذا التّعليم ولا يعملون عليه بشكل من الأشكال فإلى هنا أكون قد أنهيت الكلام عن أحكام الطّلاق. ويبقى عليّ أن أطلع القارئ العزيز على ما أتى به القرآن الكريم من أحكام تتعلّق بما للآباء على الأبناء من حقوق وما للأبناء على الآباء من حقوق إلى جانب الكلام ما للأرحام من حقوق عليهم جميعهم أيضا وأكون بذلك قد أخضعت مباحث هذا الكتاب لنفس ترتيب المواضيع الذي اختطّته علينا الأخذ به الآية الأولى من سورة النّساء تلك الآية التي وردت مصاغة صياغة بلاغيّة دستوريّة إلى جانب أنّها قد أورد الله تعالى مجمل مضامينها كأصل ينبغي التّقيّد بمعطياته حين نفسّر جميع آيات سورة النّساء.

الباب الثّالث:

الحقوق المتبادلة ما بين الآباء والأبناء والأرحام

لعلّك تذكر يا عزيزي القارئ أنّي كنت نبّهت حين تدبّرت الآية الأولى من آيات سورة النّساء بأنّ تلك الآية الكريمة قد وجّهت العالم الدِّينيّ الذي يتصدّى لكتابة موضوع نظام الزّواج في الإسلام قد فرضت عليه خطّة بحثه وبنفس ترتيب قوله تعالى فيها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. وإنّ جميع ما بحثته حتّى الآن أوردته بنفس ترتيب ما تضمّنته هذه الآية الكريمة المصاغة صياغة بلاغيّة دستوريّة وقد خصّصت هذا الباب الثّالث لبيان الفقرة الأخيرة التي ورد فيها قول الله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ هذا القول المتعلّق بالحقوق المتبادلة ما بين الآباء والأبناء والأرحام. لذلك تراني يا عزيزي القارئ أبدأ بالكلام عمّا فرضته تعاليم هذا الكتاب العزيز من حقوق على أبنائهم.

الفصل الأوّل:

حقوق الوالدين على أبنائهم

وحين نبدأ بالكلام في هذا الموضوع يتبادر لذهن القارئ بادئ ذي بدء سؤال جوهريٌّ وهو: لماذا الزّواج ولماذا إنجاب الأولاد؟ وإنّ كلّ من طالع ما كتبته حتى الآن عاد بإمكانه أن يجيب على هذا السّؤال قائلاً: إنّ الغاية من فريضة الزّواج وإنجاب الأولاد تنحصر في موضوع ضرورة استمرار وجود النّسل البشري على سطح هذه الكرة الأرضيّة وذلك من خلال العمل على نظام الزّواج الذي أتت به تعاليم السّماء شرط إنجاب ذرّية صالحة تشكّل أساس المجتمعات الدِّينيّة ولصالح الدِّين والوالدين والأوطان. وإنّ كلّ إنسان شذّ عن تحقيق هذه المقاصد الشّريفة يكون قد أدخل نفسه في ذرّية الشّيطان. وعلى سبيل المثال فإنّ مشيئة الله تعالى اقتضت عند إنزال هذا القرآن المجيد أن يُظهر تعالى بواسطة تعاليمه الإسلام الحنيف على الأديان كلّها لقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ وإنّ القيام بهذه المهمة بحاجة إلى سواعد مؤمنة وإلى تأييد من الله عز وجلّ. علماً بأنّ هذه السّواعد المؤمنة تتجمّع إمّا بطريق الإنجاب وإمّا بطريق التّبشير بالدِّين بالحجج والبراهين. وعليه فقد فرضت فريضة الزّواج لإنجاب

سواعد مؤمنة ترعى الوالدين وتعمل على إيجاد مجتمع إسلاميّ مهذّب بتعاليم الإسلام وتعمل على التّبشير بالإسلام الحنيف وتشكّل مواطنين صالحين لتطوير أوطانهم ولتأمين الاستقرار فيه وللذّبّ عن حياضه في وجه المعتدين عليه وبذلك يستمرّ بقاء النّسل البشريّ ويدوم.

ومعلوم أنّ الإنسان يشبه هذا النّبات فهو يخضع لقانون النّشوء والتّطوّر والفناء. أي أنّ الوالدين قد يبلغ أحدهما الكبر أو كلاهما ويعودان بحاجة إلى من يساعدهما على تمضية بقيّة عُمريهما. لذلك فقد أوجبت تعاليم الدِّين الإسلاميّ الحنيف على الأبناء حقوقا من واجبهم أن يؤدّوها لآبائهم وتدخل هذه الحقوق في باب ردّ الإحسان للوالدين ووفق قول الله تعالى ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾. فالمهمّ هو أنّ هذه حلقات ترتبط ببعضها بعضا بصورة عضويّة وموضوعيّة. وعليه كان من واجبنا يا عزيزي القارئ أن نبحث فيما أتت به آيات القرآن المجيد من آيات تبسّطت في الكلام عن حقوق الوالدين على أبنائهم. فما هي تلك الآيات وما هي تلك الحقوق التي للوالدين على الأبناء؟

أولاً: ردّ الإحسان:

ألا إنّ أهمّ ما فرضه الله تعالى على الأبناء من حقوق للوالدين عليهم هو القيام بردّ هذا الإحسان العظيم الذي أحسنه الآباء على الأبناء ابتداء من الأدعية التي كانوا يدعون ربّهم بها ليهبهم ذرّية صالحة ومرورا من رعايتهم لهؤلاء الأبناء بعد ولادتهم إيّاهم وذلك بإطعامهم وإلباسهم والإشراف على تربيتهم وتثقيفهم دون مقابل وتحمّلهم

مختلف أنواع المشاق على هذا الطّريق وانتهاء بالسّعي لعقد قرانهم على فتيات صالحات ذات دين متين. وعليه فإنّ أُطر إحسان الوالدين على أبنائهم واضحة للعيان لا ينكرها حتّى العميان.

لذلك فإن حدث أن نسي الأبناء هذا الإحسان وتجاهلوه بصورة عمليّة وعقّوا والديهم فإنّهم يحرمون أنفسهم من بركات ردّ الإحسان بالإحسان عند الله تعالى الذي أمرهم بردّه إلى والديهم ولا ينجون بالتّالي من غضب الله جلّ شأنه شديد العقاب.

فإن سألتني يا عزيزي القارئ أن أدلّك على النّصّ القرآنيّ الذي يثبت لك مصداقيّة ما بيّنته لك، فإنّي أدلّك على ما أورده الله العزيز في الآيات 22 ـ 25 من سورة الإسراء وذلك في سياق إظهار عظمة ما جاء به هذا القرآن العظيم من تعاليم في هذا الشّأن فهو تعالى قال: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾.

وبإمكان القارئ مراجعة تفسير هذه الآيات الكريمة في (في ظلال تفسير سورة الإسراء) لكنّ المهمّ هنا أن نحيط علما بدلالة قوله تعالى ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ فهو تعالى لم يقل هنا وبالوالدين أن تُحسن إليهم بل قام بحذف (أن تُحسن إليهم) واكتفى بقوله تعالى بدلا عن

ذلك بكلمة (إحسانا). فإن أنت قلت أحسنت إليه إحسانا فأنت تعني أنّك أحسنت إليه إحسانا كاملا من حيث القول ومن حيث العمل. والذي يدقّق في مضامين هذه الآيات السّالفة الذّكر يتبيّن له بأنّ الله تعالى قد حصر الإحسان المطلوب إلى الوالدين في التّالي:

أولاً: فمن خلال قول ربّنا عز وجلّ وهو يخاطب هؤلاء الأبناء ويعظهم قال ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وقد نبّه تعالى أذهان هؤلاء الأبناء إلى أنّهم فكما يخضعون لقانون التّطوّر فتنمو أجسادهم يوما بعد يوم فيتجاوزون سنّ الطّفولة ويرشدون فإنّ والديهم يخضعان أيضاً لنفس هذا القانون فيتجاوزان سنّ الشّباب الذي أمضياه في الإشراف على تربية أبنائهم ويبلغ أحدهما أو كلاهما الكبر وسنّ الشّيخوخة وعند ذلك يعود هذان الوالدان بحاجة إلى من يُحسن إليهما ويفقدان اتزان سنّ الشّباب لذلك تعود تصدر عنهم أقوال أو أفعال تعبّر عن اختلال اتّزان تصرّفاتهما في السّنّ المشار إليه. الأمر الذي يعود الأبناء يشعرون به بصورة جليّة. وهنا انبرى الله عز وجلّ يعظ هؤلاء الأبناء بعد أن وضّح لهم هذه الحقيقة من خلال قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ومن ثمّ أتى بفاء الاستئناف فاستأنف تعالى موعظته ووعظهم وقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فكلمة (أفّ) هي كلمة تكرّه وكرب وتضجّر وألم. وإنّ التّنوين الوارد على آخرها ورد للتّنكير وليشمل هذا النّهي عن التّأفّف في وجه الوالدين جميع أنواعه. والمعنى أنّ الوالدين إذا بلغا سنّ الشّيخوخة تضعف بعض قواهم العقليّة والجسديّة التي كانت لهم

في شبابهم وبالتّالي تترك هذه بآثارها على تصرّفاتهم مع أبنائهم وتدفع هؤلاء الأبناء إلى التّأفّف من تصرّفات والديهم تجاههم. فنهى الله تعالى هؤلاء الأبناء عن أن يتأفّفوا من تصرّفات والديهم المشار إليها ولا يبدون خلال تعاملهم معهم أيّ نوع من أنواع التّأفّف لا بالإشارة ولا بالألفاظ ولا بأيّة وسيلة أخرى فإن هم فعلوا ذلك استجابة لوعظ ربّهم إيّاهم في هذا المجال يكونون قد أحسنوا إلى والديهم على هذا الصّعيد.

ثانياً: ومن جهة ثانية فقد وعظ الله عز وجلّ الأبناء موعظة ثانية في حقّ آبائهم وقال: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ففعل (تنهرهما) اشتقّ من نهر السّائل ومعناه زجره. والمعنى هو أنّ الوالدين إذا بلغا سنّ الشّيخوخة قد يعودان محتاجان إلى أشياء كثيرة ولا يقدران أو لا يملكان ما يساعداهما على الحصول ما أراداه. ويكون الأبناء في سنّ والديهم المشار إليه قد تزوّجوا وأصبحوا عاملين ومنتجين. فإن طلب هذان الوالدان أي شيء احتاجا إليه من أحد هؤلاء الأبناء، فإنّ الله عز وجلّ يعظ هؤلاء الأبناء ويقول ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ والمعنى ألاّ يقوم هؤلاء الأبناء بزجر أحد والديهم الذي طلب شيئا منه أن يعطيه إيّاه. بل من واجب هذا الابن أن يلبي طلب والده أو والدته بكل ترحاب وسرور مهما كلّفه ذلك من مساءلة من جانب زوجته أو من جانب سواها من النّاس. فإن فعل ذلك ولبّى هذا الابن ما سأله منه أحد والديه فإنّه يكون قد استجاب لموعظة ربّه عز وجلّ ويكون ممّن ردّ إحسان الوالدين بإحسان على هذا الصّعيد. ومتذكّرا بأنّه كان طفلا يسأل والديه العطاء ويلبي والداه طلباته المعقولة.

ثالثاً: وقد وعظ الله جلّ شأنه الأبناء موعظة ثالثة وقال ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ وإنّ كلمة (قول) تطلق على التّلفّظ بكلام. كما تطلق على غير ذي لفظ تجوّزا كقولك (قالت له العينان سمعا وطاعة). كما تطلق على الحكم والاعتقاد. فإن دخل الجار والمجرور (له) على كلمة (القول) فالقول حينئذ يعني الخطاب. فقال له معناه خاطبه وهو المعنى المقصود في هذه الموعظة القرآنيّة الثّالثة. وعليه فإنّ الله تعالى حين يعظ الأبناء من جهة ثالثة ويقول لهم ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ فهو تعالى قد وعظ هؤلاء الأبناء أن يحاولوا مخاطبة والديهم بأسلوب يختلف عن مخاطبتهم لغيرهم من النّاس. أن يخاطبوهم فيقولوا لهما قولا كريما. أي قولا يستحق أن يوصف بصفة (كريما). وإنّ هذه الصّفة (كريما) من كرّم فلانا معناه أنّه نزّهه وعظّمه وشرّفه. وعليه فإنّ الله عز وجلّ يعظ هذه الموعظة الثّالثة فيعظ الأبناء على صعيد مخاطباتهم لوالديهم ويقول ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ بمعنى أنّ من قبيل ردّ الإحسان إلى الوالدين أن يسعى الأبناء أن ينتهجوا حين مخاطبتهم لوالديهم نهجاً خاصّاً وبحيث تتّصف مخاطباتهم لوالديهم بصفة التّواضع وخفض الصّوت تعظيما وتشريفا لهذين الوالدين الذين كانا يعطفان على أبنائهم حين كانوا أطفالا ويقولون لهم قولا يُشعرهم بالمحبّة والعطف من جانبهم عليهم. فإن استجاب الأبناء لهذه الموعظة القرآنيّة الثّالثة في مجال مخاطبتهم لآبائهم يُعدّون في نظر ربّهم ممّن يُحسنون إلى والديهم ويردّون إحسانهم عليهم بإحسان مثله.

رابعاً: والموعظة الرّابعة التي وعظ بها سبحانه وتعالى الأبناء في مجال ضرورة ردّهم إحسان والديهم بإحسان قال تعالى فيها

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ وقد وردت هذه الموعظة شبيهة بالموعظة التي وجّهها الله جلّ شأنه إلى رسوله الكريم وقال فيها ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بمعنى تواضع لهم وارفق بهم. فالله عز وجلّ يخاطب الأبناء من خلال قوله ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ ويعظهم أن يتأدّبوا بين أيدي والديهم وأن يرفقوا بهم تذلّلا وجذباً لمحبّة هذين الوالدين وللاستفادة من بركات أدعيتهم لهم. مبيّنا للأبناء بأنّ إحسان والديهم عليهم في طفولتهم يردّه هذا النّوع من الإحسان إلى الوالدين. بسبب أنّ بلوغ الوالدين سنّ الشّيخوخة يتطلّب هذا التّواضع من جانب الأبناء كما يتطلّب هذا الرّفق بأحوال هذين الوالدين. فإن انتهج الأبناء هذا النّهج في تعاملهم مع والديهم في السّنّ المشار إليه يثبتون بذلك أنّهم يردّون إحسان والديهم عليهم الذي بذلوه في الرّفق بهم في طفولتهم ورعايتهم إيّاهم يردّونه بهذا النّهج من السّلوك مع والديهم ويُعدّون حينئذ في نظر ربّهم ممّن يعملون على نصيحة وموعظة ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾.

خامساً: وكانت الموعظة الخامسة التي تضمّنتها هذه الآية المذكورة من سورة الإسراء قد تضمّنها قول ربّنا عز وجلّ هذا الذي يخاطب الأبناء ويبيّن لهم من خلاله حقوق والدبهم عليهم قال ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ بمعنى أنّ من واجب الأبناء أنهم كلّما وقفوا بين أيدي ربّهم يدعونه أن يتضرّعوا إلى ربّهم أن يشمل والديهم برأفته وعطفه عليهم وليشملهم بواسع رحمته. وبيّن الله تعالى السّبب الذي دعاه سبحانه ليعظهم بموعظته هذه وذلك من خلال إيراده كاف التّشبيه وقوله تعالى ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ بمعنى أنّ الأبناء إن ثابروا

على الدّعاء لوالديهم بهذا الدّعاء بعد بلوغ هذين الوالدين الكبر يردّون بذلك إحسان والديهم عليهم الذي أحسنوه إليهم في طفولتهم أيّام كان هذان الأبوان يتضرّعان بين يدي ربّهم عز وجلّ يدعونه ليحفظ لهما ما رزقهما من أبناء وأن يعينهما على تربيتهما تربية صالحة. فهذا هو حقّ الوالدين على هؤلاء الأبناء البررة. الذين يسعون لجذب محبّة ربّهم نحوهم وللحصول على قربه ورضوانه.

ولا تحسبنّ يا عزيزي القارئ بأنّ الدِّين الإسلاميّ الحنيف هو الذي انفرد من بين الأديان جميعها بموعظته هذه التي قال فيها ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾. بل من واجبك أن تراجع الآية 83 من سورة البقرة لتلاحظ قول الله تعالى فيها وهو يذكّر بني إسرائيل بما أخذه من ميثاق عليهم وقال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾. ولكنّ موعظة ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ هذه التي كان الله تعالى قد وعظ بها نبيّه موسى عليه السّلام وردت موعظة مجملة الدّلالة وقد انفردت تعاليم الإسلام بهذه البنود الخمسة التي وردت في الآية من سورة الإسراء من بين جميع ما سبق من تعاليم منزلة قبل الإسلام. وذلك لداعي خضوع تنزيل تعاليم الله تعالى على الأنبياء كان خاضعاً لعمليّة التّدرّج التي اقتضتها قوانين تطوير هذا الإنسان.

وبهذه المناسبة أرى أن أنبّه ذهنك يا عزيزي القارئ إلى أنّك إذا قمت بمقارنة بسيطة ما بين ظاهرة التّماسك الاجتماعي الذي توارثته المجتمعات الإسلاميّة وما بين ظاهرة التّفكّك الاجتماعي الذي تشكوا

منه بقيّة المجتمعات غير الإسلاميّة فإنّ الفضل فيه يرجع إلى هذه المواعظ الخمسة التي أسلفت ذكرها والتي تميّزت بها تعاليم الدِّين الإسلاميّ الحنيف. فمجتمعات أهل الكتاب المعاصرة التي خلت من وجود هذه المواعظ المذكورة بسبب بُعدها عن تعاليم أنبيائها. احتاجت في أيامنا هذه إلى إنشاء مؤسّسات هناك الغاية منها إيواء المسنّين من رجالهم ونسائهم أولئك الذين لا يجدون من أبنائهم رعاية ولا اهتماما بهم لنسيانهم أنّ الله تعالى كان قد أخذ عليهم ميثاقا عن طريق نبيّهم موسى عليه السّلام وقال ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا﴾. وإنّ المسلمين المتخلّفين في عصرنا هذا بدؤوا يسيرون على آثار أولئك الذين تناسوا تعاليم دينهم وباءوا بغضب الله عليهم وببعدهم عنه عمليّاً.

وتجربتي في هذا الموضوع أنّي كنت قد دعيت لحضور مؤتمر دينيّ في إنكلترا فتجوّلت يوما في أسواق لندن ولاحظت حين دخلت أحد متاجرها التي كانت تديرها امرأة مسنّة أن تلك السّيّدة كانت تلبس في كلّ إصبع من أصابع يديها خاتما. فتعجّبت من تلك الظّاهرة واستأذنتها بسؤالها عن سبب ذلك. فأجابتني والدّموع تذرف من عينيها: إنّني ألبس جميع هذه الخواتم ليذكّرني كلّ واحد منها بأحد أبنائي وبأصهاري الذين تركوني بعد أن بلغت هذا السّنّ من الكبر وحيدة لا معيل لي إلا هذا الذي أبذله في هذا المتجر. وما أن سمعت منها ما قالته إلا وذكّرتها بأنّ تعاليم موسى وعيسى ومحمّد أمرت الأبناء أن يؤدّوا ما لواديهم عليهم من حقوق وذلك من خلال هذا التّعليم ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا﴾.

وبهذه المناسبة أرى أيضا أن أنبّه ذهنك يا عزيزي القارئ إلى أنّ الله عز وجلّ لم يكتف بالمواعظ التي ذكرناها والمتعلّقة بحقوق الوالدين

على الأبناء، بل وأتى بالآية الثّامنة من سورة العنكبوت وقال ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ ولم يقل هنا ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ وكان ينبغي أن تسأل عن حكمة استبدال كلمة (إحسانا) بكلمة (حُسنا)؟ أقول في بيان الحكمة من ذلك: إنّ كلمة (الحسن) هي نقيض كلمة (القُبح) وتُجمع على محاسن. وإنّ (الحُسن) في عُرف علماء اللّغة يقتضي أن يكون الشّيء الموصوف بالحُسن ملائما في الطّبع أوّلاً. وأن يتّصف الحسن ثانيا بصفة الكمال. وأن يكون هذا الحسن ممتدحاً من الغير في الوقت نفسه ثالثاً (محيط المحيط). وما دامت كلمة (حُسنا) قد وردت في هذه الآية الكريمة منوّنة على آخرها فلتزيد معنى (الحسن) المطلوب من الأبناء حين تأديتهم إحسان والديهم عليهم بإحسان أن يتّصف إحسانهم بصفات الحسن التي تؤدّيها كلمة (حُسنا) الواردة في هذه الآية من سورة العنكبوت وليكون إحسانهم إلى والديهم ملفتا للأنظار أيضاً. وليؤدّي ذلك إلى إبراز امتياز المجتمع الإسلاميّ على بقيّة المجتمعات بصورة جليّة وواضحة. ولكن هل هناك من يحاول في عصرنا الإحاطة بهذه الحقائق التي بيّناها من هؤلاء المسلمين الذين كاد أبناؤهم أن يشابه حالهم حال أبناء المجتمعات غير الإسلاميّة الذين نسوا تعاليم دينهم وصاروا إلى ما صاروا إليه؟

وبهذه المناسبة أيضا أرى أن أُلفت نظرك يا عزيزي القارئ إلى ناحية ثالثة مهمّة وهي أنّ الله تعالى حين وعظ وقال في الآية الثّامنة من سورة العنكبوت ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ لم يقف عند كلمة (حسنا) بل أكمل موعظته محذّراً الأبناء على صعيد العقيدة وقال ﴿ وَإِن

جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ولا شكّ أنّ الغرض من هذا التّحذير الموجّه إلى الأبناء يهدف إلى غرضين اثنين: فالغرض الأوّل منهما ليشعرَ الله تعالى هؤلاء الأبناء بأنّ ربّهم لا يطالبهم بإطاعة والديهم إطاعة عمياء. والغرض الثّاني منهما أن يوضّح الله جلّ شأنه بأنّ التّعاليم الإسلاميّة تعطي هذا الإنسان حرّيته في تبنّي العقيدة التي يقتنع بها بعد بحث وتمحيص كاملين. ومن منطلق قول الله تعالى في موضع آخر من كتابه العزيز ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. فلا يحاسب أب عمّا يعتقده ابنه ولا يحاسب ابن عمّا اعتقد والداه. وهذه حقائق أشارت إليها هذه الفقرة الأخيرة من الآية المذكورة من سورة العنكبوت.

وكيلا تظنّ يا عزيزي القارئ بأنّ استدلالي بقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ قد لا يحمل هذه الدّلالة الواسعة التي أشرت إليها. لذلك أعود بك إلى الآية 33 من سورة لقمان المصاغة صياغة بلاغيّة دستوريّة والتي خاطب الله جلّ شأنه فيها النّاس جميعا وليس المسلمين خاصّة. فهناك قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾. فنصّ هذه الآية الكريمة واضح الدّلالات لا لُبس فيه. ومن خلال هذا التّعليم القرآنيّ تعود تُدرك يا عزيزي بأنّ الله تعالى لم يُعط الوالدين حرّية إكراه أبنائهم ليقلدوهم فيما يعتقدونه هم أنفسهم بل أمرهم ألاّ يكونوا مقلّدين تقليدا أعمى ولا أن يُكرهوا أبناءهم على

التّقليد الأعمى. وإنّ المجتمعات الإسلاميّة المعاصرة لا تعمل على هذا التّعليم القرآنيّ المتميز.

ثانياً: الدّعاء للآباء:

لابدّ وأنّك سمعت يا عزيزي القارئ بالحديث الشّريف القائل (يموت أحدكم فينقطع عن دنياه إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولدٌ يدعو له) وقد تتساءل: من أين استمدّ الرّسول الكريم ﷺ هذه المعلومة؟ وأدلّك يا عزيزي على مصدر قوله ﷺ (وولد يدعو له). فإن أنت راجعت الآية **41** من سورة إبراهيم عليه السّلام التي قال الله تعالى فيها حكاية عمّا اتّخذه النّبي إبراهيم من موقف من والديه غير المؤمنين قال ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ ودقّقت مضمونها من خلال هذا المنظار الذي ننظر به إلى موضوع دعاء الأبناء للآباء والذي حدّثنا به حديث محمّد رسول الله ﷺ تُدرك بأنّ مضمون هذه الآية الكريمة هو مرجع رسول الله ﷺ في قوله المذكور ومن باب أنّ إبراهيم عليه السّلام هو أبو الأنبياء. فإبراهيم دعا لنفسه ولوالديه على حسب ما درج عليه في حياته فلمّا عادى والده ما أتى به ابنه إبراهيم توقّف عن الدّعاء لوالده انطلاقا من أنّ والده أمسى عدوّاً لربّه عز وجلّ. وكما صرّح بذلك القرآن الكريم. وبعدما كان إبراهيم قد انتقد عقيدة أبيه وقال ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾. فاستنادا إلى كلام الله عز وجلّ وإلى كلام رسوله محمّد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يعود من حقّ الوالدين على أبنائهم أن يدعو الأبناء لوالديهم بجميع أنواع الدّعاء.

الفصل الثّاني:

حقوق الأبناء على الآباء

ألا فاعلم يا عزيزي القارئ بأنّ تعاليم الدِّين الإسلاميّ التي بيّنت ما للوالدين على الأبناء من حقوق وببيان مفصّل امتازت به على ما سبقها من الأديان السّماويّة. فإنّ هذه التّعاليم الإسلاميّة قد فرضت على الوالدين للأبناء حقوقا أيضاً. وبإمكان الباحث الذي يتدبّر آيات كتاب الله العزيز أن يتقصّى تلك الحقوق المشار إليها بكلّ تأكيد. وإليه البيان:

أولاً: الابن حرّ في معتقده:

وإنّ من واجبك يا عزيزي القارئ أن تنظر إلى هذا الحقّ نظرة موضوعيّة في بداية الطّريق. فأنت تلاحظ بأنّ جميع المخلوقات غريزيّة كانت أو كانت من بني الإنسان. فإنّ مواليدها ترضخ لرعاية والديها فترة من الزّمان، تقلّ مدة هذه الحضانة أو تطول. والفرق ما بين الإنسان وما بين الحيوان أنّ الحيوان يولد المولود لديه غريزيّا مثله، لذلك لا يحتاج المولود لدى الحيوان إلى رعاية طويلة الأمد. أمّا المولود لدى الإنسان فيولد حرّ التّفكير وحرّ الاعتقاد وحرّ الإرادة. ولذلك فإنّ هذا المولود بحاجة لرعاية وإيواء وتدريب وتعليم، ليس مدّة قصيرة كما هو الحال لدى الحيوانات الغريزيّة بل هو بحاجة ليبقى سنوات طويلة في بيت أبويه لاستكمال رعايته وإيوائه وتدريبه وتعليمه. وقد تتراوح هذه المدّة ما بين ثمانية عشر عاما إلى عشرين. وهي المدّة التي نظر إليها المشرّع على أنّها مدّة إحسان طويلة على الأبناء لذلك أمر هذا المشرّع وقال

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وقد سبق لنا شرح ذلك وإنّ حقّ حرّية الابن في معتقده يبدأ بعد بلوغه سنّ الرّشد. وقد أشارت إلى هذا الحقّ الآية الثّامنة من سورة العنكبوت التي سبق لنا أن استدللنا بالفقرة الأولى منها على موضوع ردّ الإحسان إلى الوالدين والتي قال تعالى فيها ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لذا أحاول تدبّر الشّطر الثّاني من هذه الآية الكريمة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره فأقول: إنّ فعل (جاهداك) اشتقّ من جهد في الأمر بمعنى جدّ وتعب في الأمر. أمّا قوله تعالى ﴿ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فاللام من (لتُشرك) للتّعليل. وكلمة (تُشرك) لاتفيد الشّرك هنا بمعناه المعروف فالذي يتبادر منه محاولة إجبار الوالدين هذا الابن ليصبح (مشركا). وهو معنى غير مقصود. بدليل قوله تعالى ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فحرف (ما) يستعمل لغير العاقل. وكلمة (علم) هنا بمعنى المعرفة لتعدّيه إلى مفعول واحد. ففي سورة الأنفال ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ بمعنى أنّ الله تعالى يعرفهم. ومن منطلق أنّ العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. وعليه فإنّ الله عز وجلّ حين خاطب هذا الابن قائلا ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فقد قصد سبحانه وتعالى من خطابه هذا حثّ هذا الابن على أن تكون معرفته العقائديّة قائمة على أساس علميّ مطابق للواقع. كما حثّه في الوقت نفسه على ترك التّقليد الأعمى لعقائد والديه. فإن دقّقت يا عزيزي القارئ في هذا التّعليم تُدرك بأنّ تقدّم الأمم يرتكز إلى ما جاء به من حقيقة. فالإنسان الذي يريد أن يتطوّر ويضع قدمه على سلّم التّقدّم والازدهار من واجبه ألا يكون مقلّدا لوالديه تقليدا أعمى ولا أن يخطو خطوة لا تقوم على أساس علميّ. ولذلك لاحظت يا عزيزي القارئ

كيف أنّ الله تعالى أتى بفاء الاستئناف فاستأنف كلامه يأمر هذا الابن وقال ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾. وبذلك يكون هذا التّعليم القرآنيّ قد أعطى الابن حرّية الاعتقاد الذي يشاء بعيدا عن التّقليد الأعمى لعقائد الوالدين.

وقد أنهى الله تعالى هذه الآية بقوله تعالى ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. فما هي دلالة ذلك في هذا المقام؟ إنّ دلالة هذه الفقرة الأخيرة ندركه إذا تذكّرنا بأنّ من خصوصيّات هذا القرآن الكريم أنّه يورد حيثيّات الأحكام آخر الأية وخلافاً لما هو متعارف عليه بين المشرّعين الذين يوردون حيثيّات القوانين قبل نصوصها وليس في آخر تلك النّصوص القانونيّة. وعليه فإنّ الله تعالى أتى هنا في هذه الفقرة الأخيرة بحيثيّات ما تضمّنته هذه الآية الكريمة من أوامر ومواعظ إلهيّة. فالله جلّ شأنه علّل أمره الذي تضمّنه قوله تعالى ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ منبّها ذهن هذا الابن إلى أنّ الطّاعة الكاملة تكون لله الخالق الذي أمر الأبناء بردّ الإحسان للوالدين. خصوصا وأنّ الله تعالى لم يخلق هؤلاء الأبناء غريزيين كباقي الكائنات الحيّة ولكنّه خلق الأبناء أحرارا مكرّمين بما يحملونه من عقل وقوّة تفكير وذلك ليقرّروا عقائدهم بأنفسهم بعد أن يبلغوا رشدهم. علماً بأنّ الله عز وجلّ هو الذي ترجع إليه أمور محاسبتهم ومحاسبة آبائهم ولا تكون الطّاعة الكاملة للوالدين اللّذين يستويان في موضوع مصيرهما الأخرويّ الذي سيصيران إليه مع أبنائهم في نهاية المطاف. هذا وإنّ هذه الحرّية العقائديّة التي فهمناها من معطيات هذه الآية الكريمة عادت تتّفق مع معطيات الآية 256 من سورة البقرة والمصاغة صياغة بلاغيّة دستوريّة والتي صانت حرّية العقيدة لكلّ إنسان والوارد فيها ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾. فمن خلال هذا تعود تدرك يا عزيزي القارئ بأنّ حرّية الأبناء في موضوع اختيارهم لعقائدهم هو من أهمّ الحقوق التي فرضها الله جلّ شأنه للأبناء على الوالدين. وهذه الحقيقة لا تتنافى مع مهمّة تربية الأبناء قبل بلوغهم سنّ رشدهم بما يحمله الوالدان من عقائد وآراء.

ثانياً: حقّ دعاء الآباء للأبناء:

وكما أنّ آيات القرآن الكريم قد وجّهنا الله تعالى من خلال معطياتها إلى حقّ للآباء على الأبناء وهو أن يثابر هؤلاء الأبناء على الدعاء لوالديهم طيلة حياتهم وأن يدعوا لهم أيضا بعد مماتهم. فقد أوجب الله تعالى على الوالدين من خلال معطيات آيات كتابه العزيز أن يدعو ليهبهم ذرّة صالحة منذ اللّيلة الأولى من زواجهم وطوال حياتهم.
فلماذا هذا الحثّ على الدّعاء للأبناء؟ السّبب في ذلك هو أنّ الله تعالى هو الذي يصورّ هؤلاء الأبناء في الأرحام. فإن استجاب لهذين الوالدين يهبهما أولادا صالحين يدعون لهم هم أيضاً. وإنّ هذه الحقيقة أشارت إليها الآية 35 من سورة آل عمران حكاية عن امرأة عمران ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

فالمؤمن الحقيقي ينطلق من أنّ الله تعالى لا يصدر عنه أي عبث، بل إن صدر عنه شيء فإنّه يصدر بحكمة مجسّمة. وعليه فقد كان لتذكير الله تعالى إيّانا بدعاء امرأة عمران هذا حكمة جليلة وهو أن ينبّه أذهاننا بأسلوب رفيع المستوى إلى أنّ للأبناء على الوالدين حقّ الدّعاء لهم ليلة الزّفاف ليصورّهم ربّنا جلّ شأنه أبناء بررة صالحين. وليثابروا على الدّعاء لهم طيلة حياتهم أن يعيذهم الله تعالى من الشّيطان

الرّجيم. وأمّا أن يدعو الوالدان ليهبهم ربّهم ذكرا أو أنثى فهذا لا يجوز ويعتبر تدخّل في شؤون ربّهم عز وجل. وبهذا افهم وبهذا اليقين تعود تتميّز المجتمعات الإسلاميّة عن غير الإسلاميّة.

وقد حثّنا الله جلّ شأنه على العمل على هذا النّهج الرّوحيّ حين أتى بفاء الاستئناف بعد ذلك وقال ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾. فالله تعالى نبّه عقولنا من خلال هاتين الآيتين إلى أنّه لا يضيع أمثال هذه الأدعية إن أتته من نفوس مؤمنة تقيّة بعيدة عن الأغراض النّفسيّة. وإلى أنّه تعالى يتدخّل من خلال تقدير كونيّ خاصّ فيستجيب أمثال تلك الأدعية ولتعود هذه الحقائق أدلّة تجريبيّة يستفيد منها حتّى غير المؤمنين.

ودونك يا عزيزي القارئ مثالا آخر يثبت هذه الحقّ للأبناء على الآباء وقد أشار إليه دعاء نوح عليه السّلام وذلك في الآية 27 من سورة نوح ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾. فلقد أشار هذا الدّعاء إلى غير المؤمنين الذين لا يؤدّون هذا الحقّ الذي هو في أعناقهم لأبنائهم عندما يتزوّجون لذلك لا يلدون إلا فاجرا كفّارا هذا إن كان هؤلاء الآباء من أعداء الدّين. لذلك كان من واجب المؤمن والمؤمنة ما أن يعقد الواحد على الآخر نكاحه إلاّ وأن يبدأ كلّ واحد منهم أن يدعو ربّه ليرزقه ذرّية صالحة تخدم دين الله الحقّ ولا يكونون من مفضّلي الحياة الدّنيا على الآخرة.

ثالثاً: حقّ إطعام الأبناء وإلباسهم:

وهذا يا عزيزي القارئ حقّ طبيعيّ على الآباء تجاه الأبناء وهو حقّ فطريّ. والدّليل على كونه حقّا فطريّا هو أنّك إذا ألقيت نظرة عامّة على جميع المخلوقات الحيّة بجميع أنواعها تلاحظ بأنّ الخالق قد جعل الحيوانات الغريزيّة تعيل أولادها فترة قصيرة تساعدهم على النّضوج غريزيّا وليصبحوا على شاكلتهم يأكلون بأنفسهم ولا يبقون بحاجة إلى والديهم. كما جعل الله تعالى في مقابل ذلك في صدر الأمّ المرضعة عاطفة جيّاشة نحو المولود الذي وضعته وعلى صورة إذا سمعت بكاءه ترضعه ولو كانت في حالة نومها. وقد امتدّت مدّة الإعالة للأبناء هذه سنوات تصل إلى زمن بلوغ هذا المولود سنّ رشده من هذا الباب الطّبيعيّ نفسه الذي يلعب دوره عند بقيّة الكائنات الحيّة. وما دام هذا قد كان حقّا طبيعيّا وفطريّا لذلك لن تعثر يا عزيزي القارئ على نصّ قرآني مستقلّ قد نصّ على هذا الحقّ الطّبيعيّ للأبناء على الآباء. وليس معنى ذلك أنّك لن تعثر على أصلٍ له في كتاب الله العزيز الذي لم يفرّط الله تعالى فيه من شيء. بل بإمكانك أن تراجع الآية 233 من سورة البقرة التي تكلّمت عن موضوع الطّلاق وعلى حسبما كنت قد أوردته من قبل لتلاحظ بأنّ الله تعالى أوجب على الوالد فيها الإنفاق على المولود إن هو طلّق زوجته حيث قال ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وقد تستوقفني يا عزيزي القارئ هنا وتسألني عن دلالة قوله تعالى (بالمعروف)؟ فأقول: الباء في هذه الكلمة بمعنى الاستعانة. وأمّا كلمة (المعروف) فاسم مفعول بمعنى المشهور من نوعيّة الإنفاق في زمن هذا الذي طلّق زوجته. وهو إنفاق يحسن في نظر الشّرع وتستحسنه نفس الإنسان في الزّمن المشار إليه. (محيط المحيط) وهو المعنى الذي يتّفق مع

سباق كلمة (بالمعروف) وسياقها في الآية المذكورة وإلاّ فلكلمة (معروف) دلالات أخرى منها: الخير والرّزق والإحسان والرّفق وتضادّ كلمة منكر. وإنّ المقصود من قولي ما تستحسنه النّفس فهو للإشارة إلى أنّه لا يحقّ للوالد إعالة هذا المولود بأشياء مضرّة له كالمسكرات والمحرّمات.

رابعاً: حقّ عدم قتل الأبناء من إملاق:

ثمّ إنّ تعاليم الإسلام التي امتازت على ما سبقها من تعاليم بما حفظته لهذا الإنسان من كرامة واستقلاليّة وحرّية اختيار أمر الوالدين الحفاظ على أرواح أولادهم وألاّ يقتلوهم بسبب من الأسباب وخاصّة منها سبب الفقر وضيق ذات اليد. وهذا الحقّ الذي اكتسبه الأبناء وأوجبه الله تعالى على عاتق الوالدين تضمّنته الآية **151** من سورة الأنعام التي خاطب الله جلّ شأنه فيها رسوله الكريم وقال ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فالله عزّ وجلّ قد عدّد في هذه الآية الكريمة المحرّمات وكان من جملة ما حرّمه تعالى على الوالدين قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فكلمة (إملاق) اشتُقّت من قولك أملق الرّجل بمعنى افتقر. ولقد نزل هذا الحقّ بسبب أنّ العرب كان أحدهم إذا افتقر زمن جاهليّتهم يقتل أبناءه من إملاق. فقضى هذا التّحريم الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة على هذه العادة الجاهليّة وبذلك حفظت تعاليم الإسلام حياة الأبناء بما غرسته من يقين بالله تعالى وبعطائه من حيث لا يعلم في أفئدة المؤمنين المتّقين.

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى قد أتى بحيثيّات هـذه المحرّمات في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمـة وقـال ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي أنّ كـلّ مـن يعمـل عقلـه ويتفكّـر في خلـق السّماوات والأرض يُدرك بأنّ جميع ما في هذا العالم قد خلقه الله تعالى ليكون مسخّرا للإبقاء على نسل هـذا الإنسان فمن خلال ذلـك يـدرك ويستنتج بالتّالي أنّ هذه الوصايا السّماويّة قد قامت على أساس سليم.

خامساً: أسوة الوالدين الحسنة:

إنّ الإنسان الذي تلقّى على مقاعد الـدّرس معلومـة بصـورة عامّـة يواجه حين وضعها موضع التّطبيق كيفيّـة معالجـة تفاصيلـها. وإنّ الـذي اعتقد عقيدة من العقـائد يواجـه حـين الأخـذ بـها علـى المستوى العملـيّ نفس المشكلة. لذلك كان من الضّـروري جـدّا أن يكـون الوالـدان أسـوة حسنة لأبنائهم وأن يكون الأنبياء أسوة حسنة لأتباعهم من المؤمنـين بـهم وبما دعوهم إليه. واستنادا إلى هذه الحقيقة فقد جعل الله عز وجلّ أسوة حسنة لهؤلاء الذين اتّبعوه وكانوا من المسلمين.

وقد يحتاج هذا الطّرح من جانبي لبعض التّفصيل فأقول: لنفرض أنّ طالبا في إحدى صفوف الدّراسة سمع من أسـتاذ علـم الاجتمـاع بـأنّ الحوار بين الأفراد وأداة الحجّـة والبرهـان همـا في الأبحـاث العلميّـة همـا وسيلتان تعتبران أساس التّعامل بين النّاس وأساس تقدّم الأمم ورقيّـها. وعاد بعد سماعه هذه المعلومة إلى منزله فإنّه يواجه جوّ تعامل والديه مع بعضـهما بعضـا وتعاملـهما معـه بـالذّات. فـإن لاحـظ بـأنّ والديـه لا يتعـاملان علـى أسـاس مـن هـذه المعلومـة التـي تلقّاهـا علـى مقـاعد الدّراسـة، يعـود ينظـر إلـى والديه نظـرة دونيّـة ولا ينظـر إليـهما نظـرة احترام. ولا يعود هذا الطّالب ينظر إلى والديه علـى أنّـهما أسـوة حسنة

لـه . فإن عـامل هـذان الوالـدان هـذا الابـن بنفـس روح الخصـام وعـدم الاتّزان تبدأ روح التّمرّد تدبّ إلى نفس هذا الطّالب بسبب ما تركته تلك المعلومة التي ذكرناها في نفسه ومن حيث يشعر أو لا يشعر.

كذلك فإنّ كلّ نبيّ يأتي معه بتعـاليم سـماويّة فـإن كـان هـذا النّبـيّ لا يمثّل الأسـوة الحسـنة العمليّـة تجـاه أتباعـه مـن المؤمنـين بـه وبرسـالته السّماويّة. فإنّ إيمان هؤلاء يتزلزل مع الأيّام بـهذا الـذي اتّبعـوه وبالتّـالي ينفضّون عنه واحدا بعد آخر. لذلـك ومـن خـلال هـذا المثال ومـن خـلال قـول ربّنـا عـز وجـلّ في الآية 21 مـن سـورة الأحـزاب ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ تعود تدرُك يا عزيزي القارئ بأنّ أسـوة الوالديـن الحسـنة حـقٌّ شـرعيّ مـن حقـوق الأبنـاء علـى الآبـاء. وإنّ جـهل الـزّوج والزّوجـة بـهذه الحقيقــة الشّرعيّة يشـكّل الأسـاس الـذي يتسـبّب في هـذا التّسـيّب الـذي يلاحظـه الباحث ظاهرا في العلاقات التي تربـط بـين الأبنـاء وآبائـهم في المجتمعـات الإسلاميّة المعاصرة. ولاحظ يا عزيزي كيـف أنّ الله تعـالى حـين قـال في الآية سالفة الذّكر ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فهو تعـالى قـد حـذف مضـاف كلمـة (أسوة) فلم يذكر أسوة حسنة في أيّ شيء مقصـود. ولتوسـيع دلالتـها. وليصبح المقصود من هذه (الأسوة الحسـنة) الـوارد ذكرهـا في هـذه الآيـة الكريمة أسوة النّبيّ مع أزواجه. وقـد شـهدت عائشـة ﷺ بعـد أن سـئلت كيـف كـان خلـق رسـول الله ﷺ أجـابت: كـان خلقـه القـرآن. وليصبـح المقصود من هذه الأسوة الحسنة أسوة لكلّ من بايع محمّدا ﷺ على تقبّل تعاليم هذا الدِّين الحنيف وليصبح أيضا أسوة حسـنة في فـهم تعـاليم هـذا القرآن الكريم. وليصبح أسوة حسنة لكلّ الحكّام المسلمين الذيـن يـأتون بعـد رسـول الله ويخلفونـه علـى أمّتـه. ثـمّ ينبغـي أن نفـهم دلالـة هـاتين الكلمتين (الأسوة الحسنة). فكلمة (الأسـوة) تعنـي القـدوة. وإنّ كلمـة

(الحسنة) صفة لهذه القدوة. فالمصلّي الذي يلاحظ بأنّ إمام الصّلاة لا يؤدّي حقوق هذه الإمامة. يفقده ذلك ثقته بإمامة هذا الإمام ولا يعود يطمئنّ فيما بعد للصّلاة وراءه. فلابدّ من تطابق العمل مع القول أن في كلّ شيء من الأشياء. وقد نبّهت الآية الثّانية من سورة الصّفّ إلى هذه الحقيقة عندما لا حظنا أنّ الله جلّ شأنه قد خاطب المؤمنين فيها وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾.

وكنت لفتّ نظرك يا عزيزي إلى أنّ الله الخالق قد مدّ في فترة حضانة الإنسان لهذا المولود سنوات طويلة لأغراض. ومن تلك الأغراض أنّ يصبح الوالدان أسوة حسنة في كلّ تصرّف يتصرّفون به في حياتهم اليوميّة. ذلك لأنّ المولود يبدأ حياته بتقليد والديه بنفس روح تقليد الببّغاوات لهذا الإنسان في صوته. وهي حقيقة يتلمّسها كلّ إنسان في حياته فمن هذا المنطلق وبهذا الاعتقاد بإمكان المسلمين أن يصلحوا أحوال مجتمعاتهم التي دبتّ فيها روح التّسيّب كما سبق أن ذكرته وعاد الآباء لا يسيطرون على أبنائهم. وعليه فمن الضّروري جدّا الاعتقاد بهذا الحقّ للأبناء على الآباء وإعطاءه الصّفة الشّرعيّة وإنّ التّقصير على هذا المستوى من قبل الوالدين وتركهم أولادهم يتأثّرون سلبيا ويتسيّبون بسبب بعد الوالدين عن تمثيل دور الأسوة الحسنة لأبنائهم سيجعلهم مؤاخذين يوم الحساب عنهم يوم يقوم النّاس لربّ العالمين يقينا.

سادساً: حقّ نسبة الابن لوالده:

وللأبناء حقّ هامّ على والديهم وهو أن يُنسب الأبناء إلى آبائهم وليس إلى طرف آخر غيرهما. وإنّ وراء هذا الحقّ مقاصد عامّة منها

الدِّينيّة ومنها الاجتماعيّة ومنها الاقتصاديّة. ومن الجدير أن ألقي الضّوء على كلّ واحد من هذه المقاصد الثّلاثة.

فأمّا المقصد الدِّينيّ من نسبة الأبناء لآبائهم فبإمكاننا أن نحيط به علما إذا تذكّرنا بأنّ بعثة النّبيّ آدم عليه السّلام كانت أوّل بعثة سماويّة. وقد أحدثت تلك البعثة وجود شريحتين من النّاس: شريحة مؤمنة بوجود خالق للإنسان وما حوله وأنّ هذا الخالق يبعث الإنسان بعد الموت ليحاسبه على أعماله وعلى مدى تقيّده بتعاليم خالقه في حياته الدّنيويّة. وإلى شريحة من النّاس ملحدة بكون هذا الكون مخلوق وكفرت برسالة آدم من جرّاء ذلك. وإنّ معتقدات شريحة المؤمنين قامت على أسس عقليّة وعلميّة ومنطقيّة. على حين أنّ أفكار شريحة الملحدين قامت على فلسفات من الظّنّ والتّخمين من دون أن يسندها أساس علميّ وما زالت تحاول إلى يومنا هذا أن تثبت علميّا بنفي كون هذا العالم مخلوق. ولست بصدد تقديم حجج معتقد كلا الشّريحتين من النّاس. وبإمكانك يا عزيزي القارئ ملاحظة ذلك من خلال مطالعتك لجميع مؤلّفاتي. هذا وإنّ انقسام النّاس إلى هذين الفريقين من النّاس قد ولّدت في هذا العالم الأرضيّ صراعا فكريّا استمرّ إلى يومنا هذا. ومن هنا عُدت تُدرك يا عزيزي القارئ السّبب في نسبة الأبناء إلى الوالدين. فالغاية الدِّينيّة هي نقل هذا التّراث الفكريّ الذي تركته تعاليم السّماء إلى الأبناء بعجره وبجره فإذا بلغ هذا الولد رشده فهو مأمور أن يدقّق فيما وصله من تراث ويعود منه إلى الأصل الذي جاء به آدم ومن بعده من الأنبياء والمرسلين. فنسبة الابن إلى أبيه ونسبة الأب إلى جدّه وبلوغ هذه الحلقات من النّسب إلى آدم عليه السّلام تحقّق المقصد من نسبة الابن إلى أبيه وتفسّر قول محمّد رسول الله ﷺ: كلّنا من آدم وآدم من تراب. ولا يعني هذا الحديث أنّ آدم كان أوّل البشر.

وإلى جانب جميع ما ذكرناه فإنّ الآية 223 من سورة البقرة قد أشارت إلى هذا العامل الدِّينيّ في نسبة الابن إلى أبيه حين قال تعالى فيها ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٌ لَّكُمۡ﴾ قال تعالى هذا من باب أنّ الفاكهة والخضار تُنسب إلى من زرعها وإلى مزرعته. والمزارع يتباهى بمحصول أرضه. ولذلك تلاحظ يا عزيزي القارئ كيف يتباهى الابن بأبيه وبالبطن الذي حمله. فمن هنا صدق الله عز وجلّ حين قال بحقّ فئة المؤمنين أنّهم ذرّية بعضها من بعض. على حين أنّ ذرّية الكافرين الملحدين لا ترقى إلى هذا المستوى من النّسب. بل سمّاها القرآن المجيد ذرّية إبليس وذرّية الشّيطان نسبة إلى أوّل إنسان كفر برسالة آدم عليه السّلام. فهذه هي معالم المقصد الدِّينيّ من نسبة الابن إلى أبيه.

وأمّا المقصد الاقتصادي من حقّ نسبة الابن إلى أبيه فيعود هذا الحقّ إلى ما قرّرته الأديان للأبناء من حقوق وراثة فيما يتركه الوالدان من تركات مؤلّفة من أموال منقولة وغير منقولة. ولولا أن قرّر الدِّين نسبة الأبناء إلى والدهم فكان من العسير أن يتحقّق هذه المقصد الاقتصاديّ. فإن أنت أدركت هذه الحقيقة يا عزيزي القارئ يبقى عليك أن تتساءل عن أمور تتعلّق بهذه النّسب الماليّة المخصّصة لكلّ فرد من أفراد عائلة هذا الزّوج الذي دعاه ربّه عز وجلّ إليه وفارق هذه الحياة. فمن المعلوم أنّ الشّريعة الإسلاميّة قرّرت للذّكر مثل حظّ أختين من أخواته الفتيات. كما أوصت لزّوجة الميّت ثمن ما ترك. ولم تجز الشّريعة لحاكم أو لغيره أن يتدخّل في هذه النّسب الماليّة التي ذكرناها. فما هي الحكمة من تقسيم تركة الميّت بهذه النّسب التي ذكرناها؟ وليس بإمكان الباحث إدراك الحكمة من ذلك كلّه إلا إذا نظر بمنظار النّتائج التي يتركها هذا التّقسيم الماليّ للتّركات الأموات. ويتجلّى لعين هذا الباحث مقصد عام ومقاصد خاصّة. فالمقصد العام هو للحيلولة

دون نشوء ثروات ماديّة كبيرة في أيدي النّاس بصورة عامّة وفي أيدي الوارثين بصورة خاصّة. ومن منطلق أنّ تعاليم الإسلام تدعوا لتوزيع الثّروات على أكبر عدد من النّاس خوفا من ظهور الرّأسمال المستغلّ. الرّأسمال الذي يفرض رعبه وسيطرته على الفقراء من عامّة النّاس والذي يؤدّي في الحقيقة إلى استعباد طبقة الفقراء على الصّعيد العمليّ. فالرّأسماليّة المستغلّة هي وراء المآسي التي تحيق بطبقة الفقراء في عالم اليوم كما هو معروف.

فانظر يا عزيزي القارئ إلى حال الرّأسماليّات الغربيّة المعاصرة فمن أسباب نشوئها في أوروبة وأمريكة توريث الميّت ابنه الأكبر ما تركه من أموال منقولة وغير منقولة. وحرمانه بقيّة أفراد عائلته ما كتبه الله تعالى لهم في تعاليم الإسلام. فإن أوصى أحد من الغربيّين لغير ابنه الأكبر فإنّه يوصي بعشر تركته إلى بقيّة أفراد عائلته. ولذلك فقد نشأ بسبب نظام التّركات الغربيّ رأسماليّون كبار راحوا يتحكّمون في أسواق الاقتصاد ليس داخل بلادهم ولكن داخلها وخارجها. على حين أنّ نظام تركات الأموال في النّظام الإسلاميّ الاقتصاديّ لم يقض على ظهور الرّأسماليّة الفاحشة وحسب بل وأعطى الأخوان والأخوات أحياناً نصيباً ممّا ترك الوالدّان. فإن كان الميّت ثريّا فلا يمضي على موته أجيال ثلاثة إلا وتضمحلّ ثروته التي جمعها بذكائه وفطنته ونشاطه الذّاتي. ونستنتج من هذه المعادلة التي أتينا على بيانها بأنّ تعاليم الإسلام تناهض الرّأسماليّة الجشعة المستغلّة بمختلف الطّرق والأساليب المشروعة. وليظلّ المال دولة بين أيدي النّاس. وليتحقّق قول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فجميع النّاس سواسية في أصل استغلالهم لثروات الأرض ولا يتحقّق ذلك إلاّ من خلال تعاليم تقسيم تركات الأموات وغيرها من التّعاليم الدّاخلة في موضوع اقتصاد كل وطن من أوطان البشريّة جمعاء.

وأمّا العامل الاجتماعيّ فقد نبّهت إليه الآية 13 من سورة الحجرات التي قال تعالى فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. فالخطاب في هذه الآية الكريمة موجّه إلى النّاس كافّة ويدور حول المقصد من خلق الله تعالى لهؤلاء النّاس بطريق التّناسل من ذكر وأنثى. فهذا ما دلّ عليه قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ وقد أورد الله تعالى بعد قوله هذا بواو العطف التي تفيد الحال لدخولها على الفعل الماضي جعلناكم بمعنى صيّرناكم. قال ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ومن ثمّ أتى تعالى بلام التّعليل ليعلّل فعله المذكور وليبيّن المقصد من خلقه النّاس من ذكر وأنثى وقال (لتعارفوا). فمن خلال هذا الشّطر من هذه الآية الكريمة تكون هذه الآية الكريمة قد أشارت إلى المقصد الاجتماعيّ من نسبة الابن إلى أبيه. هذه العمليّة التي بات كلّ شعب من شعوب الأرض ينسب نفسه إلى فلان من النّاس. كما باتت كلّ عشيرة من العشائر تنسب نفسها إلى فلان من النّاس أيضاً. وعليه فإنّ نسبة الأبناء إلى الآباء تدخل في باب المشيئة الإلهيّة. وهو حقّ للأبناء على الوالدين. ومن خلال هذا الفهم الذي أوصلتك إليه عُدت تُدرك يا عزيزي القارئ الحكمة من تحريم الزّنا في تعاليم الدِّين الإسلاميّ الحنيف. فابن الزّنى لا يعود يُعرف والده لينسبه النّاس إليه.

ولك بعد الذي علمته أن تسأل عن دلالة قوله تعالى (لتعارفوا) وحقيقة هذا المقصد الاجتماعي من جعل الله تعالى النّاس شعوبا وقبائل فأقول: أمّا دلالة قوله تعالى (لتعارفوا) فإن أنت قلت: عرف فلان فلانا من النّاس معناه علمه بحاسّة من حواسّه الخمس. وأما قولك: تعارف النّاس معناه عرف بعضهم بعضا. وعليه فإنّ قوله تعالى

(لتعارفوا) معناه ليعلم كلّ شعب وكلّ قبيلة بإحدى حواسه الخمس ما تتّصف به بقيّة شعوب الأرض وقبائلها من صفات قوميّة وما تمتاز به من ميّزات عن غيرها. وليحاول كلّ شعب وكلّ قبيلة التّعرّف على غيره من هذه الشّعوب والقبائل. ولكن ما هي حدود هذا التّعارف المطلوب؟ ألا إنّ حدود ذلك ينحصر في الأمور التّالية التي نستنتجها من خلال تعامل فردين من النّاس تعارف بعضهما على بعض. فالذي يتعارف مع فلان من النّاس يبدأ من جهة يتعايش مع هذا على صعيد صداقة ومحبّة متبادلة بينهما ويتبادلان المصالح والمنافع بنفس روح التّعايش التي ولّدتها عمليّة تعرّف أحدهما على الآخر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن تنافس هذان الفردان في تجارة ما أو في أيّ أمر آخر يتنافسان منافسة شريفة وعلى أساس أنّ هذه المنافسة بينهما من قبيل الحوافز وليس من قبيل الصّراع بينهما. ومن جهة ثالثة فإنّ هذان الشّخصان المتعارفان يتعاملان على قدم المساواة بينهما ولا يكون تعاملهما على أساس من استعلاء أحدهما على الآخر. فإن حاول أحدهما التّعامل باستعلاء تنتهي هذه الحالة من التّعارف ويبدأ دور جديد. وعليه فإنّ كلمة (لتعارفوا) هذه التي وضّحت المقصد من خلق الله تعالى النّاس من ذكر وأنثى تكون قد نبّهت أذهاننا إلى ضرورة تعامل الشّعوب والقبائل على تلك الأسس الثّلاثة التي بيّناها من خلال تعارف فردين من النّاس. وهذه الأسس الثّلاثة أن تتعامل القوميات في عالمنا على أساس:

أولاً: على أساس التّعايش فيما بينها وليس على أساس من القتال والصّراع.

ثانياً: وعلى أساس من المساواة بينهم جميعهم وليس على أساس الغطرسة والهيمنة.

ثالثاً: وعلى أساس المنافسة الشّريفة وليس على أساس الاستغلال.

هذا فإن أنت ألقيت يا عزيزي نظرة عامّة عمّا يجري في عالمنا من صراعات وعدم استقرار واختلال في موضوع التّوازن بين ثروات الشّمال والجنوب في عالمنا حالياً فإنّ ذلك كلّه يعود أصلا إلى بُعد النّاس عن الأخذ بهذه المبادئ الثّلاثة التي أسفر عنها حقّ نسبة الأبناء إلى الآباء. هذا الحقّ الذي ابتدأته تعاليم الأديان منذ بعثة آدم عليه السّلام.

سابعاً: حقّ الإرث:

وللأبناء على والدّيهم حقّ تقاسم ما يورّثه الوالدان من أموال وغير منقولة وفق تعاليم هذه الشّريعة السّماويّة. وليس توريث هذه الأموال للولد الأكبر وحسب. فهذا الحق نصّت عليه الآية **11** من سورة النّساء التي قال تعالى فيها ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِى بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾. وقد أكملت موضوع المواريث الآية الأخيرة من سورة النّساء التي ورد فيها قوله تعالى ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِى ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ وقد سبق لي الكلام عن أخطار مخالفة تعاليم هذا الحق من قبل.

خاتمة موضوع نظام الزّواج في الإسلام

وألخّص للقارئ الكريم ما تضمّنه هذا الكتاب (نظام الزّواج في الإسلام) من مواضيع وذلك مساعدة من طرفي إيّاه على استعادة مضامينه في ذهنه. فقد نبّهت ذهن القارئ في التّقديم الذي قدّمته لهذا الكتاب إلى أنّ تعاليم الإسلام الحنيف قد قلبت المفاهيم الجاهليّة في موضوع الزّواج الذي كان مرتكزا إلى دلالة كلمة (أسرة) هذه الكلمة التي كانت تفيد معنى سيطرة الرّجل على المرأة وتعامله معها بفوقيّة تصل إلى حدّ استعباده لها. وإنّ عمليّة قلب تلك المفاهيم الجاهليّة دفعت لتنزيه كتاب الله العزيز عن استعمال كلمة أسرة بشكل من الأشكال. لذلك يلاحظ القارئ بأنّ القرآن المجيد كان يورد كلمات بديلة عن هذه الكلمة (أسرة). مع أنّ الكتّاب المعاصرين وبتأثير عدم تدبّرهم لآيات القرآن المجيد فإنّهم يستعملون في مؤلّفاتهم هذه الكلمة(أسرة) بدون تردّد ولا يدرون أنّهم يثبتون من خلال ذلك الاستعمال لهذه الكلمة أنّهم بعيدين عن المفهوم الحقيقي لنظام الزّواج في الإسلام.

ومن ثمّ أعطيت القارئ فكرة تاريخيّة حول تطوّر نظام الزّواج عبر التّاريخ كما وضّحت للقارئ أهمّية هذا الموضوع. وعدّدت له منطلقات بحثه. فما أنهيت هذا كلّه إلا وقد قمت بتقسيم موضوع

(نظام الزّواج في الإسلام) وبدافع من ترتيب البحث الذي أملته علينا معطيات الآية الأولى من سورة النّساء، أقول قد قسّمت الموضوع إلى ثلاثة أبواب وكلّ باب قد اشتمل على عدّة فصول. وألخّص للقارئ مضامين هذه الأبواب الثّلاثة بالتّدريج واحدا بعد آخر.

فأما الباب الأوّل من هذا الكتاب فقد قسّمته إلى سبعة فصول. وقد بحثت في الفصل الأوّل الفارق ما بين الرّجل والمرأة في نظر القرآن الكريم الذي قال بتساوي المرأة مع الرّجل في كلّ شيء إلا في الأعضاء التّناسليّة لكلّ واحد منهما. الفارق الذي جعل الرّجل كيانا (فاعلا) وجعل المرأة كيانا (منفعلا). ولمّا كان هذا الفارق بحاجة لتوعية كلا الجنسين توعية جنسيّة فقد أفردت الفصل الثّاني للقيام فيه بهذه المهمّة المذكورة.

وفي الفصل الثّاني من هذا الباب قمت بدراسة مفهوم كلمة نطفة وبحثت في استعمال هذه الكلمة في مختلف الآيات القرآنيّة. وقمت بعد ذلك بتوضيح الفارق ما بين نطفة الإنسان ونطفة بقيّة الكائنات الحيّة. وبيّنت حقيقة تكوين نطفة الرّجل التي أطلق عليها القرآن الكريم مصطلح (النّطفة الأمشاج) والتي أطلق الله تعالى على النّطفة الأمشاج عند الدّفق اسم (المنيّ). ولذلك وضّحت هناك جذور ما يحمله هذا الإنسان من قوى نفسيّة تعود إلى تركيب نطفة الأمشاج والمنيّ خاصّة. وبيّنت بعد ذلك أمكنة نشوء حويصلات المنيّ والبويضات في جسم هذا الإنسان. وبذلك أنهيت الفصل الثّاني من هذا الباب الأوّل.

وانتقلت أبحث في الفصل الثّالث كيفيّة تلقيح بويضة المرأة من قبل الكائن المنويّ للرّجل. وانتهيت من ذلك إلى استلهام دروس وعظات

وعظتنا بها الفطرة البشريّة كما فهمناها علميّاً. فالعظة الأولى ضرورة مساواة الرّجل بالمرأة في مجال التّعليم. والعظة الثّانية ضرورة الالتزام بأحكام الزّواج الشّرعي. والعظة الثّالثة ضرورة إدراك أنّ كيان الرّجل والمرأة العضوي هو كيان مصمّم ليكون هادفاً. والعظة الرّابعة ضرورة إخلاص الزّوجة لزوجها. والعظة الخامسة ضرورة إخلاص الزّوج لزوجته. والعظة السّادسة ضرورة منح الرّجل والمرأة حرّية الاختيار في موضوع من يريدان الزّواج منه.

وأمّا الفصل الرّابع فقد بحثت فيه مفهوم رحم المرأة ومكوّناته. ومفهوم كلمات علقة ومضغة وفي قرار مكين. ومن ثمّ بيّنت مراحل تطوّر النّطفة. وهنا أتحفت الفتاة المؤمنة بنصائح ضروريّة تفيدها على الصّعيد المذكور. ومن ثمّ تكلّمت عمّا يطرحونه من أفضليّة الرّجل على المرأة فأوردت أسئلة وأوردت أجوبتها. وتكلّمت بمناسبة ذلك عن ضرورة الدّعاء قبل الإنجاب لعلاقة إنجاب الأولاد بالأقدار الرّوحيّة الخاصّة.

وأمّا في الفصل الخامس فقد بحثت فيه موضوع تحديد النّسل وتاريخ طرح هذا الموضوع. وتكلّمت هناك عن وسائل تأجيل الحمل التي ابتدعها الطّبّ الحديث. وانتقلت من ذلك للكلام عن القوّة الجنسيّة والأمور التي تثيرها. ومن ثمّ وضّحت تعاليم القرآن المجيد والوسائل التي اعتمدها لإطالة المدّة ما بين حملين. بما يتعلّق بخارج منزل الزّوجيّة وبداخله.

وبذلك أنهيت الفصل الخامس من هذا الباب.

وأمّا في الفصل السّادس من هذا الباب فقد بحثت في موضوع مسؤوليّات الزّوج والزّوجة. فوضّحت معنى كون الرّجل (قوّاما) وبيّنت المعنى الحقيقي لكلمة (قوّام) وخطأ المفسّرين القدماء على صعيد فهم هذه الكلمة وقدّمت الشّواهد على ذلك الفهم الخاطئ ومن ثمّ بيّنت مفهوم قول الله تعالى (نساؤكم حرث لكم). وصحّحت المفاهيم المتوارثة.

وأمّا الفصل السّابع من هذا الباب فقد خصّصته للكلام عمّا يقع بين الأزواج من خلافات وقدّمت طرق حلّها. وألقيت الضّوء من خلال تلك المناسبة على السّمات البارزة للشّريعة الإسلاميّة. وتطرّقت بعده للكلام عن كلمة (نشوز) ومفهومه. وعن مراحل علاج النّشوز. وبيّنت هناك عماد الحياة الزّوجيّة الإيمانيّ. وقمت بعدها بتلخيص ما ورد من مضامين في هذا الباب الأوّل من هذا الكتاب.

وشرعت بالباب الثّاني الذي قسّمته إلى ثلاثة فصول. تكلّمت في الفصل الأوّل منه عن النّكاح فقدّمت له ووضّحت مفهوم كلمة نكاح وتكلّمت عن عقد النّكاح والمهر ومن ثمّ أوردت أحكام النّكاح من كتاب الله العزيز. ولم أغفل الكلام عمّا لهذا النّكاح من شكليّات ورسوم متوارثة جيلا بعد جيل. وبذلك أنهيت الفصل الأوّل من هذا الباب الثّاني.

وأمّا في الفصل الثّاني منه فقد تكلمّت عن النّساء المحرّمات وعن فلسفة تحريمها وبيّنت مَن هنّ النّساء المحرّمات على الفتى الذي عزم على عقد نكاحه على فتاة مؤمنة مثله ومن ثمّ انتقلت من هذا الفصل الثّاني

إلى فصل ثالث أخير تكلّمت فيه عن الطّلاق وأحكامه من كتاب الله العزيز وشرحت هناك مفهوم كلمة طلاق ولم أنس أن أورد في هذا الفصل الأخير ما أتت به الشّريعة الإسلاميّة من أحكام متعلّقة بعمليّة الطّلاق. وبذلك أكون قد أنهيت الباب الثّاني من هذا الكتاب.

وأمّا الباب الثّالث منه فقد خصّصته لبيان الحقوق المتبادلة ما بين الآباء والأبناء والأرحام. واكتفيت فيه بفصلين. تكلّمت في الفصل الأوّل منهما عن حقوق الوالدين على الأبناء وعلى حسب ما جاءت به تعاليم الدِّين الإسلاميّ الحنيف. فأثبت في هذا الفصل الأوّل حقّين منحهما الله الخالق جلّ شأنه للوالدين على أبنائهما. فالحقّ الأوّل منهما محاولة هؤلاء الأبناء ردّ إحسان والديهم بإحسان وقد أتيت في هذه المناسبة بالمواعظ القرآنيّة الموجّهة إلى هؤلاء الأبناء في هذا المجال. وكان الحقّ الثّاني للآباء على الأبناء الدّعاء للوالدين الشّيخين ما داما أحياء وبعد مماتهما أيضاً. وهو حقٌّ أشار إليه حديث رسول الله أيضا بالإضافة لما نصّ عليه القرآن المجيد.

وأمّا الفصل الثّاني من هذا الباب فقد خصّصته للكلام عمّا للأبناء من حقوق على آبائهم. وقد حاولت حصر تلك الحقوق بسبعة حقوق: فالحقّ الأوّل من تلك الحقوق كان ضرورة منح الابن الرّاشد حقّ اختيار مُعتقده عن علم وعقل ومنطق سليم. والحقّ الثّاني الذي فرضه الله تعالى للأبناء على والديهم أن يدعو الوالدان لأبنائهما منذ ليلة زفافهما وما داما أحياء وهو حقّ ألزمهما الشّرع به من منطلق أنّ الله تعالى يصوّرنا في الأرحام كيفما شاء. وأمّا الحقّ الشّرعيّ الثّالث للأبناء على

الآباء فينحصر في حقّ إطعام هؤلاء الآباء أبناءهم وإلباسهم أيضا. وفي الحقّ الرّابع للأبناء على الوالدين فقد حرّم الله تعالى على الوالدين قتل أبنائهم من إملاق. وقد فرض الله تعالى في الحقّ الخامس أن يكون الوالدان أسوة حسنة لأبنائهم. وقد فرضت تعاليم الإسلام على الوالدين أن يُنسب الولد إلى أبيه. وقد وضّحت المقاصد المرجوّة من وراء فرض الإسلام هذا الحقّ المذكور على الوالدين. وأمّا الحقّ السّابع والأخير فهو حقّ الميراث. وقد ألقيت ضوء على ما وراء منح الله تعالى الأبناء هذا الحقّ من مقصد هام جدا وهو محاولته محاربة ظهور الرّأسماليّات الكبيرة في المجتمعات الإسلاميّة.

وكنت قد قرّرت مناقشة حقوق المواريث في فصل ثالث أخير لكنّي تذكّرت أنني فعلت ذلك في مؤلّفي (مثنى وثلاث ورباع وحقيقة حقّ تعدّد الزّوجات) ولذلك فقد تركت للقارئ العزيز أن يراجع الكتاب المذكور فقد تبسّطت فيه وتوسّعت شرحاً وبياناً.

وعلى هذه الصّورة أنهيت هذا الكتاب الذي عنونته باسم (نظام الزّواج في الإسلام) وأرجو أن أكون قد وفّيت حقّ مضامينه بحثا وتوضيحا وتدليلا. والله الموفّق وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

فرغت من تدقيقه في الثّالث من شهر شعبان عام 1424 هجري
الموافق للتّاسع والعشرين من شهر أيلول عام 2003 ميلادي

طالب الدّعاء

سليم الجابي

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- تفسير ابن كثير
- التفسير الكبير لفخر الرازي
- التفسير الكبير لمرزا محمود أحمد
- التفسير الصغير لمرزا محمود أحمد
- منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره – سليم الجابي
- السنّة النبويَّة المتواترة
- مختلف كتب الحديث
- معجم أقرب الموارد
- معجم مفردات الراغب
- معجم مقاييس اللّغة
- معجم محيط المحيط

الفهرس